مكتبة ياسمين

نورا ناجي

رواية

سنوات الجري في المكان

دار الشروق

مكتبة ياسمين

سنوات الجري في المكان

في روايتها الجديدة، تقدم نورا ناجي سيرةً استثنائية للحواس، من الرؤية إلى اللمس، ومن التذوق إلى الشم إلى السمع، على شرف ثورةٍ طمحت في الذهاب بعيدًا إلى ما بعد السماء، غير أنها اكتفت بساقيْن مغروستيْن فيما تحت الأرض، قانعةً بالجري في المكان.

ما بين ثورة ووباء، يحاول خمسة فنانون التقدم للأمام لكنهم يكتشفون أن حياتهم قد توقفت بعد فقدان أحدهم في الميدان. يفقدون حواسهم فيحاولون استعادتها بالتمسك بالفن والحب والتفاصيل الصغيرة التي تُشكل الحياة. شخصياتٌ خلقها «واقع يناير»، تشبثت بحلم تحويل مأزق الوجود إلى فن، ومنعطف الثورة إلى أغنية...

في سبيل ذلك صنعت نورا ناجي «رواية نصوص»، فحضرت اللوحة والمسرحية، يوميات الحياة وهلوسات الحلم، فضلًا عن الرواية داخل الرواية، بنص روائي يتجاوز تقنيات السرد التقليدية إلى رحابة التجريب.

«سنوات الجري في المكان» رواية تصنع جداريةً لجيل كامل، يتأمل هزيمته.

نورا ناجي؛ روائية مصرية، من مواليد طنطا سنة ١٩٨٧. تخرجت في كلية الفنون الجميلة - قسم هندسة الديكور. صدرت لها أربع روايات: «بانا» عام ٢٠١٤، و«الجدار» عام ٢٠١٦، و«بنات الباشا» عام ٢٠١٧ التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة ساويرس فرع شباب الأدباء ٢٠١٨، و«أطياف كاميليا» عام ٢٠٢٠ التي وصلت للقائمة القصيرة لجائزة ساويرس والفائزة بجائزة يحيى حقي. وفي عام ٢٠٢٠ صدر لها كتاب «الكاتبات والوحدة»، وبعده صدرت مجموعتها القصصية الأولى «مثل الأفلام الساذجة» عام ٢٠٢١.

telegram @yasmeenbook

9 789770 938010

دار الشروق
www.shorouk.com

نورا ناجي

سنوات الجري في المكان

telegram @yasmeenbook

دار الشروق

سنوات الجري في المكان

نورا ناجي

الطبعــة الأولى ٢٠٢٢

تصنيف الكتاب: أدب /رواية

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية: هاني صالح

التنسيق الداخلي: رحاب محمد

رقــم الإيداع ٢٥١٤٩/٢٠٢٢

ISBN 978-977-09-3801-0

© دار الشروق

٧ شــارع سيبويــه المصــري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

ناجي، نورا،

سنوات الجري في المكان/ نورا ناجي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٢

٢٦٦ ص، ٢٠سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٨٠١٠

رقم الإيداع ٢٥١٤٩/ ٢٠٢٢

١- القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

إهداء

إلى أبي ناجي صقر

وإلى فاتيما

«ما قدرك سوى أن تكون ميتًا؟ من سوء الحظِّ أنَّ جيلك هو المختار. من سوء الحظِّ أنَّ أفضل أيَّام حياتك ستمضيها ماشيًا على الأرض كروح. لكن هذا قدرك.»

ويليام فوكنر

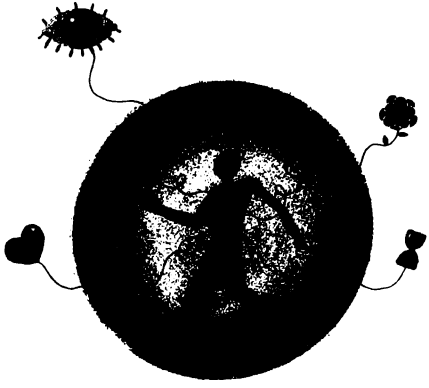

الجري في المكان

مشروع تفاعلي متعدد الوسائط

سعد البيومي

أزرق

.. في الضباب الخفيف يسطع. هو لون الحزن والأحلام البعيدة، ولون الفرح الناقص، والحب الباهت، والكراهية الممزوجة بالحسرة. الأزرق شفاف على الرغم من عتمته، يشفُّ الجلد فوق عروق اليد البارزة، ويطلي الأظافر في الأمسيات الباردة. الأزرق تائه، دائخ، مثل دوخة ولي، مثل دوخة مجذوب. مرتبك مثل الموت، يحوي جميع المتناقضات، ولا يقدم إجابات لضحاياه، يسلبهم المشاعر كلها، ويمنحهم فقط بعضًا من الدهشة..

مكتبة ياسمين

رأيت الأزرق دون أن أفتح عينَيَّ، سطع مثل شمس باردة فاخترق البصر، الأزرق دائمًا ما يخترق البصر، يشُفُّ الجلد أو يرققه.حاولت تجميع أفكاري بلا فائدة، رأسي مصفاة وصدري إسفنجة ممتلئة بالمياه وأطرافي فخار هش. الكلمات، المعاني، الموجودات، العناصر، تلاشت من عقلي، وكأنني جديد على هذه الحياة أو فارغ منها، أعيدها من أولها أو أقف على باب مخرجها، أنزلق من رحم أزرق أو أعود إليه.

شيئًا فشيئًا استعدت جزءًا من كينونتي، تذكرت كلمات وتبينت عناصر، حدقت في السقف المطلي بزرقة رخيصة، تنعكس عليه لمعة خافتة لضوء أبيض. شعرت بجسدي الممدد تحته. بدا لي أنني راقد على سطح معدني، يلفني البرد، لا أتألم لكني غير مرتاح، كأن شيئًا انسحب مني، كأن ثقلًا ما يشدني إلى الأرض اختفى. شعرت بمزيج من خفة وإعياء، ضيق وانفراج، وكأنني لون أزرق يخرج من أنبوب ضيق إلى الفراغ.

ترتدي أمي الأزرق معظم الوقت، أرسمها منذ صغري بفستان أزرق على الورق المسطر، تحملني أو تعطيني المصروف أو أمنحها

وردة، أجري نحوها لأريها الرسمة، تبتسم وتقول يا سعد أنت شفاف، أنت فنان. أبتسم لها فتبتسم لي ويضيء الأزرق. تُعلِّقُ الرسمة على باب الثلاجة.

هي من أخبرتني أن الأزرق يشفُّ الجلد، يكشف عما بداخل الإنسان من أسرار. تقول: الأزرق لون الروح يا سعد. الأزرق يكشف الروح، وهي لم تملك شيئًا لتخفيه. أو كما كانت تقول: أنا لا أخاف من شيء لأخفيه.

أنا أيضًا لا أخاف، عندما ذهبت إلى الميدان لم أخف، لم أتوقع شيئًا ولم أفهم تمامًا ما يحدث. لكن ما رأيته على شاشة التلفزيون كان كافيًا لأن أحمل كاميرتي وأذهب. سيطرت صورة الشاب الواقف أمام المدرعة على أفكاري. قلت هذه صورة ثورة، الأمر لم يعد مزاحًا على الفيسبوك. عرفت أنني سألتقط صورًا مثلها. ثمَّة أمل خفي في أنني سأشارك أيضًا في تغيير التاريخ، لأنني مثل أمي، لا أخفي شيئًا، لكني أحمل الكثير من الغضب.

الغضب رفيقي منذ صحبتني أمي إلى المنصورة، كانت ترتدي الأزرق في ذلك اليوم، فستانًا أزرق منقوشًا بورود صغيرة صفراء، وحجابًا أبيض طويلًا. لم أفهم سر ذهابها إلى المنصورة بالذات، هذه مدينة لا نعرفها، لم نفكر فيها قط، لماذا ومضت فجأة في عقلها؟ أمطرتها بأسئلتي طوال رحلتنا ولم أحظَ بإجابات. ذهبنا أولًا إلى موقف عبود، وركبنا الميكروباص المختنق بالناس. كانت صامتة معظم الوقت، لكنها لم تنسَ أن تسألني إن كنت أريد رشفة ماء من الزجاجة التي تحملها في كيس بلاستيكي، لم تنس أيضًا أن تملأه بساندوتشات ملفوفة بورق مفضض.

امرأة حزينة لا تتوقف عن الاعتناء بي، وعرفت أنني سبب حزنها. لم يتبقَّ سوى شهر على التحاقي بالجامعة، كلية الفنون الجميلة كما حَلَمتُ دومًا وكما حَلَمتْ هي. وكنت أعرف أن المصاريف كثيرة، وأننا لا نملك الكثير.

في يوم الكشف الطبي اخترت قسم الديكور، تبادلت أمي الكلام مع أمهات أخريات، يشتكين من كثرة الأدوات ومن المصاريف اليومية لأولادهن منذ التحاقهم بالكلية، أخبرتهن واحدة عن مشروع التخرج وكلفته التي قصمت ظهرها لابنة تخرجت العام الفائت، وأنها مرعوبة من التحاق ابنها الثاني بنفس الكلية.

على الرغم من شكواهن كن يضحكن، ربما كن قادرات على تدبير المصاريف كما تفعل الأمهات بحلولهن السحرية، وعرفت أمي أن عليها أن تفعل مثلهن، عليها أن تدبر مصاريف العام الأول على الأقل. من يومها وهي تفكر، تفكر وهي تطبخ، وهي تشاهد التلفزيون، وهي تتحدث في التليفون، تفكر حتى وهي نائمة. أما أنا فاكتفيت بالخجل.

نفس الخجل الذي شعرت به عندما وصلنا إلى موقف المنصورة، توقفت أمي لتسأل عن مكان بنك خاص، اسمه أجنبي لم يرحني وقعه على أذنَيَّ، شعرت أن مشوارنا سيفشل حتمًا، وددت لو أسحبها من ذراعها ونعود، لكنها أكملت الطريق وأكملت معها. أرادت أن تطلب قرضًا من البنك الأجنبي، بعدما رُفض طلبها من معظم بنوك القاهرة، لتعثرها في سداد قروض وبطاقات ائتمان سابقة.

نصحتها صديقتها بالذهاب إلى بنك في المنصورة، أخبرتها أن هذا البنك يتجاوز أحيانًا عن طلب الاستعلام من البنك المركزي. لا أعرف كيف صدقتها أمي وكيف تركتها أنا تفعلها. لم أكن صغيرًا، كان شاربي نابتًا تحت أنفي وكنت قادرًا على إيقافها. يبدو أن الأمل سحرني، تمنيت أن يُقبل طلبها وأن تأخذ القرض، كنت أريد ثيابًا جديدة وأدوات كثيرة، أريد أن ألتحق بالكلية التي أحبها، وأن أمسك هاتفًا محمولًا، وأن أشتري كاميرا رقمية. أشياء عادية، أتساءل كيف يملكها جميع من حولي ببساطة وكأنها تُصرف لهم مع التموين، عرفت فيما بعد أن هذه البساطة يختبئ خلفها الكثير من التضحيات المشابهة لتضحيات أمي، لكني كنت بلا حول ولا قوة، تركتها تجلس أمام شاب أنيق يرتدي بدلة زرقاء، ليخبرها بأن الطلب مرفوض، وأنها تحمل سجلًا مشينًا في البنك المركزي.

الشاب لم يكن سعيدًا وهو يخبر السيدة النحيفة، التي يشف جلد كفيها عن عروق زرقاء رفيعة، بأنها شخص غير موثوق فيه برأي كمبيوتر البنك، كان ينظر لها ولي بخجل، وعرفت أنه لا يختلف عني شيئًا، كان محبطًا لأسبابه، وكنت محبطًا لأسبابي. كل من حولنا يملكون أسبابًا للحزن، وكلنا نسير في صمت وكأننا لا نشعر بشيء، لكننا نشعر بكل شيء.

أنظر حولي في كل مكان، كل شارع ومقهى وقاعة درس وبيت، وأرى ما خلف الأقنعة الزائفة. ثمَّة دموع متجمدة في عيون البشر، ثمَّة دموع خفية في الجو، دموع متبخرة ربما، نستنشقها لتتحول إلى دموع جديدة كل يوم.

في طريق العودة أخبرت أمي بأنني سأحول أوراقي إلى كلية التربية الفنيَّة. نظرت لي بعينين متسعتين، أخبرتها أنني أردت تربية فنية من البداية، قلت: «فنون جميلة دي للعيال السيس»، حاولت الابتسام ردًّا على ابتسامتي الحمقاء الكاذبة، لكنها لم تستطع. بكت، بكت طوال الطريق.

في اليوم الأول لي في الكلية عرفتُ أنها لم تكن خيارًا سيئًا إلى هذا الحد، شعرتُ بالانتماء منذ أن دخلتُ من البوابة الحديدية القديمة. كل الطلبة من حولي يشبهونني، والمكان لا يختلف كثيرًا عن أجواء المدرسة. لم تكن كلية رخيصة، لكنها أقل وطأة من الأخرى، كما أن ما بعدها مضمون أكثر. سأتعين مدرسًا في أي مدرسة جديدة، بعقد مؤقت سيتحول إلى دائم بعد سنين، ثم سأسافر إلى السعودية، مثل أبي سأسافر إلى السعودية. ربما لن ينتهي بي الحال مثله غارقًا في البحر الأحمر بكل ما يحمله من هدايا وملابس وحلوى، ربما سينتهي بي الحال ثريًّا مثل بقيّة الآباء، أشتري لأولادي كاميرا رقمية ولاب توب وهاتفًا حديثًا.

مررت من أمام كلية الفنون الجميلة، نظرت عبر السور إلى برجولا خشبية يجلس فيها الطلاب، ورأيت تمثال فلاحة تحمل جرة ينزل منها الماء، نافورة، هي بالتأكيد مشروع تخرج لطالب قديم. فكرت أنه تمثال «كليشيه»، هذه كلية كليشيه، والطلاب بشعرهم المنكوش وملابسهم الممزقة كليشيه، والقصر القديم الظاهر من بين خشب البرجولا كليشيه، هذه مجرد مبانٍ، وهؤلاء مجرد طلبة، وأيقنت أنني قادر على فعل ما أحلم به في أيِّ مكان.

في الأتيليه فردت أول لوحة لي على الشاسيه الخشبي، أمسكت الباليت بيد وضغطت على أنبوب اللون بالأخرى، يخرج الأزرق من الأنبوب على الباليت الخشب ببطء أكثر من بقية الألوان، يظل محتفظًا بكثافة ما، وعندما تمسه الفرشاة يرتجف، أحب استخدامه كما هو دون تخفيف، أضع بطشات منه في بداية أي لوحة وكأنني أفض بكارتها، بطشات زرقاء على الأبيض، تشفُّ الورقة وتُظهر رسمة ما لا تزال في رأسي، تبدو وكأنها انطبعت بالفعل على اللوحة البيضاء أمامي، لا يتبقى سوى نقلها كما هي.

درجة الأزرق الزاهي قليلًا هي ما يحيط بي اليوم. شعرت كأني داخل لوحة ولم أخف. كان اللون مبهجًا ومريحًا والمكان يبدو مألوفًا. سمعت صوت قرآن خافتًا بث الطمأنينة داخلي. بشكل أو بآخر شعرت أنني في بيتي، تقف أمي أمامي بشحمها ولحمها، كانت في المطبخ في بيتنا القديم، تقطع اللحم وتدندن أغنية لوردة، نظرت لي ورأيت عينيها محمرتين، كانت تبكي.

الوجوه التي لا أعرفها حولي في الميدان غارقة في الدموع، دموع من دخان قنابل الغاز الأزرق الفاتح، لكن الابتسامات تحولها إلى دموع فرح. البعض كان يضحك بهيستيريا، ضحكات تتناقض مع شكل المكان والحدث. على الرغم من ذلك، بدت مناسبة جدًا، شريط الصوت المثالي لميدان مكتظ بالشباب وقنابل الغاز تنزل عليهم كالأمطار. كنت أضحك معهم ووجهي مختبئ خلف قناع غاز ضخم أستخدمه في لحام المجسمات لمشاريعي. حماني القناع إلى درجة تأمل كل ما يحيط بي على الرغم من الضباب، وفكرت أنني سأخرج من هنا بأفكار كثيرة لمعارض قادمة.

عندما لحق بي مصطفى كان يرتدي كمامة زرقاء طبية مثل التي يرتديها الأطباء في مسلسل «جرايز أناتومي»، ضحك على منظر قناعي وقال عيش عيشة الناس يا سعد، إحنا في ثورة مش في حرب، مالها الكمامات أم جنيه؟

سألته وما الفرق؟ كنا في حرب بالفعل، أصوات الرصاص تصل إلى آذاننا لكني لم أبالِ بها، لم أتخيَّل أنها ستطالني، لن أموت برصاصة. كيف يكون الموت برصاصة أصلًا؟ وما هي احتمالات حدوثه؟

الغريب أنني كنت أحلم أحيانًا بشيء يشبه هذا، أخرج من مدخل البيت فتصيبني رصاصة، أشعر بها في الحلم تصطدم بي، تخترق عيني أو بطني أو صدري، أشعر بألم شديد في الحلم، نار تصعد من جوفي ثم أستيقظ، لكن الليلة (أم كان الأمس؟) لم أشعر سوى ببرودة مفاجئة، برودة تشبه اللون الأزرق.

لا تزال صورة أمي أمامي، لكني كنت جالسًا أمامها، أصغر قليلًا، بوجه صاف وعينين مرتاحتين. أراقبها تقطع اللحم قطعًا صغيرة، لأنها تعرف أنني أحبه بهذه الطريقة، تشوحه مع البصل والفلفل والتوابل وتضع الطبق أمامي، رائحة اللحم تقتحم أنفي، لكنها لا تغلب رائحة أمي، ولا رائحة الأزرق، ولا رائحة البيت. ارتحت عندما وصلت إلى البيت، ولم يعد يعنيني الأزرق على الجدران.

أسود

.. الأسود لون الأغاني، لأن الحزن فيها غالب على الفرح. تتضارب جميع الأحاسيس في الأسود، لأنه قادر على تلويثها ببطشة واحدة، مثلما يغيِّر الألوان الصريحة بنقاط قليلة، يغير الأصفر إلى زيتي، والأزرق إلى نيلي، والأبيض إلى رمادي، والصراحة إلى ملاوعة. يكره الجميع الأسود وتحبه المرأة الراغبة في التلاشي، تختاره الفتيات في بداية مراهقتهن لإخفاء أنوثة خجلى، ويختبئ داخله القتلة في الليل، الأسود لون الإخفاء، ولون الفقد، ولون القلوب التي توقفت عن النبض وهي لا تزال على قيد الحياة..

قابلت مها في أول معرض مستقل لي، ترتدي فستانًا أسود بكمين طويلين، وتقف وسط الحاضرين تراقبني وأنا أجري في مكاني داخل كرة كبيرة بلاستيكية، وأرتدي بذلة بيضاء تشبه بذلات رواد الفضاء بخوذة شفافة. اسم المعرض: «٣٠ يوم جري في المكان». كل يوم من السابعة إلى الثامنة مساءً ولمدة شهر، أقدم عرضي أمام الحضور، أجري في المكان داخل الكرة بحركات بطيئة، تخرج المجسات من البذلة لتتصل بأجهزة الكمبيوتر من خلفي، فيحوِّل البرنامج الذي صممته مع مصطفى حركتي ونبضات قلبي وكمية العرق وعدد الخطوات إلى شبكة رسومية وأشكال ملوَّنة هندسية تُعرض على شاشة كبيرة، وأصوات تنبعث من السماعات الضخمة، تتغيَّر وفقًا للتغيُّرات الفسيولوجية للجسم، مزيج أصوات وألوان وأضواء تخلق علاقة بين الجسم الحي والرقمي، مثل كائن جديد خرافي، جسمه لوحة، ونبضات قلبه موسيقى. والجري في نفس المكان هو تلخيص الحياة، مزيج ساحر من الثبات والحركة.

رأيت طيف مها، ظهرت فجأة أمام عينَيَّ. احتلت مكان أمي ووقفت تبتسم بفستانها الأسود، تنشع الذكرى داخل خلايا مخي

كنشع ألوان الماء على ورق خفيف. أرى مها تحمل ليلى وتبتسم، يلوحان لي وأنا ألتقط صورتهما، خلفهما أشجار خضراء، كنا في الزمالك، بعد مناقشة رسالة الماجستير، يومها ارتديت أنا أيضًا الأسود، بدلة سوداء وروبًا أسود، الأسود لون مها المفضل، حتى الطفلة تكسوها بالأسود، أقول حرام عليكِ، طفلة صغيرة، فتضع لها توكة وردية في شعرها القصير لترضيني.

هي من تكلمت معي بعد المعرض، كنت لا أزال واقفًا ببدلتي داخل الكرة الشفافة، عندما اقتربت ولمست الكرة بكفها. ابتسَمَتْ فابتسمتُ، وضعتُ كفي على كفها من الداخل، لم أكن يومًا جريئًا لكني شعرت أنني أعرف هذه الفتاة التي ترتدي الأسود، قالت عرض جميل فتمتمت شكرًا، غادرت بعد أن تركت رقمها في دفتر الزوار.

ظللت عدة أيام بعدها أفكر إن كان ينبغي عليَّ الاتصال، حتى حرضني مصطفى بسخريته، قال متى ستصبح رجلًا وتتصل؟ أخبرته أنني غيره، أخاف الارتباط، لا أستطيع تعليق بنات الناس إلى جواري، هو ونانا أغرب ثنائي في العالم، تمر الأيام وهو ملتصق بها مثل جنين في رحم أمه، ثم ينساها وتنساه، ثم يعودان وكأن شيئًا لم يحدث. إن ارتبطت سأرتبط إلى الأبد، هذه الفتاة بالذات غريبة، لو اقتربت منها سأنجذب، مثل مغناطيس يجد نقيضه.

سألني مصطفى ما هو الأبد؟ رفعت حاجبَيَّ مندهشًا من سؤاله، كان ينظر لي بجدية فعرفت أنه بالفعل ينتظر الجواب. قبل أن أرد اقتحم الجاليري رجلان بملابس مدنية، طلبا مني الذهاب معهما

في مشوار سريع، لم أفهم جيدًا حتى ضغط الأول على ذراعي، سِكِت. وسرت معهما أمام نظرات مصطفى الخائفة إلى سيارة سوداء أخذتنا إلى مديرية الأمن.

لمدة ثلاثة أشهر توجب عليَّ الذهاب كل أحد إلى المديرية، يجلسونني في مكتب جدرانه مطعمة بألواح الخشب المدهونة، يستقبلني النقيب محمد بترحاب وكأنني صديق طفولته. يطلب لي قهوة ثم يتركني جالسًا وحدي، لا شيء سوى صوت تكات الساعة، وشباك مفتوح لا أرى منه سوى السماء السوداء بلا نجوم، اندهشت من كل المرات التي ذهبت فيها إلى هذا المكتب، وتأملت فيها السماء من شباكه ولم أرَ ولا نجمة واحدة.

كانوا يربونني كما قال لي فيما بعد. بعدما وصلهم تقرير يفيد بأن سعد البيومي المعيد في كلية التربية الفنية أقام معرضًا اسمه «٣٠ يوم جري في المكان»، وكانت مانشيتات المطالبة بانتخابات نزيهة ورئيس جديد بعد رئيس ظل باقيًا في مكانه ٣٠ عامًا، تزيِّن الصفحات الأولى لكل الجرائد المعارضة. المفارقة في كون الأمن قد توصل إلى باطن فكرة معرضي على الرغم من أن العديد من المثقفين والفنانين لم يدركوها، أصابتني بكريزة ضحك، تذكرت مصطفى وهو يقول لن يفهمك أحد، وأنا أرد عليه بأنني أتمنى ذلك: «عشان ما نروحش في داهية».

في المرة الأولى بقيت أسبوعًا في غرفة فارغة، يدي اليمنى في كلابشات متصلة بحلقة حديدية مثبتة على الحائط، لم أتمكن من فرد جسمي على الأرض، أجلس مقرفصًا إلى أن تتيبس قدماي ثم أقف إلى أن أنهار، أحيانًا يأتيني عسكري بمقعد خشبي وبعض

الطعام ثم يأخذه في نهاية اليوم. لم يحادثني أحد سوى النقيب محمد الذي استقبلني يوم القبض عليَّ بابتسامة، ثم اعتدت زيارته كل ليلة للدردشة كما يقول.

يدخل عليَّ مهللًا، يصافحني بحماس ويجلس على مقعد آخر أمامي، وكأننا جالسان في مقهى، لا ينقصنا سوى ترابيزة صغيرة وطاولة. يطلب لنا شايًا ويسخر معي من التقرير المقدم بأنه خيالي أكثر من اللازم، يضحك وهو يلعن الضباط المشتغلين تحت يده وغباءهم وفذلكتهم. ثم يقطع ضحكه فجأة، ينظر لي متسائلًا ويقول: مش كده؟ خيالي جدًّا يا باشمهندس، ولا إيه؟

كنت أجيبه بهزة رأس مؤكدًا على كلامه، حلقي جاف، وطنين ثقيل يحيط بأذنَيَّ، خلال هذا الأسبوع فقدت قدرتي على الكلام، وشعرت أن بصري يزداد ضعفًا، استولوا على هاتفي ونظارتي ومحفظتي، ولم أعد أبصر ولا أسمع ولا أحس. وبعد إخلاء سبيلي، أخبرني النقيب محمد أنه سينتظرني كل أحد في الساعة السابعة مساءً للدردشة، لأنه «لم يعد قادرًا على التوقف عن الدردشة معي»، ربت على كتفي وقال: «تيجي لوحدك بقى مش لازم نبعتلك.. ها؟»

يرتدي النقيب محمد دائمًا الأسود، كيف يعكس اللون الأرواح؟ كنت متأكدًا أنه شخص عادي في بيته، ربما كان طيبًا ومحبوبًا من الجيران، يخرج إلى السوق مع زوجته ويداعب أطفاله، ربما يشتكي من ضيق الحال والأقساط المتأخرة، ربما في تلك اللحظات يبدو الأسود جميلًا عليه، لكنه أمامي بدا كجلد شيطان يغلفه، رأسه فوق القميص والبنطلون يطل من فجوة سوداء، تمتص الألوان، وتبتلع الحواس، وتخطف الأرواح.

بعد خروجي، اكتشفت أن الارتباط لن يكون أسوأ من كلابشات ظللت مقيدًا بها طيلة أسبوع. وبعد أسبوع آخر من البقاء ساكنًا في البيت لا أفعل شيئًا، نهضت من السرير واتصلت بمها، وطلبت أن نلتقي فورًا. عرفت أنها تعمل في بنك محلي في أول شارع ٢٦ يوليو، فمررت عليها في ميعاد الانصراف. كانت ترتدي بنطلونًا وقميصًا أسود، نَظرتْ لي وابتسمتْ، استعاد الأسود بهاءه.

تجلت ليلى أمامي، ترتدي الأسود هي الأخرى وتلوِّح لي، تمنيت لو رفعت يدي وأشرت لها، لكني لم أعد قادرًا على الحركة، كنت راقدًا بجسم متخشب على طاولة معدنية شعرتُ ببرودتها أسفلي، حاولت النهوض ولم أستطع، لكني بعد محاولتين نهضت، نهضت بشكل ما لأني ارتفعت، ووقتها أدركت أين أنا.

استعدت بصري فجأة، دون الحاجة إلى نظارتي المفقودة، رأيت جسمي راقدًا على الطاولة .المعدنية، ولم أكن وحدي، كان هناك آخرون من حولي، وحولهم يدور الأطباء بالمعاطف البيضاء، يتحركون في صمت، بعضهم يبكي. أو يكتب كلامًا في أوراق بيضاء. حاولت الطبيبة التي تقف بجوار جسمي إغلاق عيني الأخرى التي لم تخترقها الرصاصة، لكنها لم تستطع، فاستغرقت في تنظيف الدم عن وجهي، تساقطت دموعها على جبيني فشعرت بها، مثل قطرات المطر في بداية هطوله. لم أحزن، اقتربت منها ورأيتها تضع يدها على جبيني، عرفتها، الطبيبة صديقة نانا، لم أرها سوى مرتين تبادلنا فيهما بعض الكلمات القليلة، كيف يمكن أن تكون هي من بجواري في هذه اللحظة؟ رن صوت نانا في ذهني فجأة

وهي تقدمها لي بعد انتهاء العرض، قالت: ياسمين، أصغر طبيبة شرعية في مصر. الآن تقف ياسمين إلى جوار جثة من صافحته يومًا، وتحدثت معه عن الكتابة والطعام والفن، ووقفت في معرضه تحاول إخفاء ضحكها عليه وهو يجري داخل كرة شفافة، تبكي وهي تزيل الدماء عن وجهه.

مسدت ياسمين شعري بأصابعها، فتسربت إليَّ سعادة غريبة على الرغم من علمي بأن مها ستغضب لو رأتنا، كانت لتقول جملتها المفضلة: «سأقتلك يا سعد»، لكني بالفعل ميت، الفكرة أراحتني فارتفعت إلى سقف الغرفة، فكرت أنها بالتأكيد ستقدر محاولة طبيبة لمنحي بعض الونس، وأنا ممدد بجسد فارغ في غرفة باردة.

هذا الصباح طلبت مني مها ألا أخرج، توسلت لي أن أبقى في البيت، نظرت إليّ بعينيها السوداوين الدامعتين، وتسربت إلى أذنَيَّ أغنية منبعثة من التلفزيون، آخر ما سمعت قبل مغادرة البيت.

«وباحبك قد العيون السود باحبك»..

ترددت لدقائق، دفء البيت أغراني بالبقاء، كان البرد قارسًا بالخارج، بينما هنا رحم أم. الصالة الضيقة لها رائحة وجنتَيِّ ليلى، والكنبة التي انخفض تنجيدها قليلًا تناديني للجلوس عليها ومشاهدة «وردة» تسير بين الأشجار الخضراء وتغني. ما المُغري في النزول إلى الشارع وسط الغاز والماء والمطر والخوف؟ ما الذي يدفعني إلى المغادرة؟ أرتدي ملابسي وكأنني أستعد للذهاب إلى الكلية أو الاستديو، وليس إلى ميدان معركة. للحظات كدت أتراجع، ثم تذكرت فراري يوم جمعة الغضب وغضبت من نفسي،

قلت «يعني مغسل وضامن جنة؟ الناس تساقطوا من حولك يا سعد وأنت هربت، أنت جبان على العموم، لو حدث شيء ستهرب مرة أخرى». صممت أكثر على النزول.

أكملت ارتداء ملابسي وقلت لمها لن يحدث شيء، قلت إنني سألتقط بعض الصور ولا داعي للقلق، سأبتعد عن المشاحنات والتدافعات، لا أستطيع أن أقف صامتًا دون توثيق لهذه الأحداث المهمة. لكن في أعماقي كان ثمَّة شيء آخر لم أتبينه، فقط شعرت به، شيء يشبه شعوري وأنا أتعلم الغوص لأسابيع، وأنا أهبط في قلب المياه الباردة، أحاول التنفس من أنبوب والرؤية من خلف عدسات سميكة، شيء يشبه شعوري وأنا أقف داخل الكرة الشفافة، أجري في المكان.

دارت الأغنية في ذهني طوال اليوم، وعندما وقف مصطفى إلى جواري قبل أن أصوره أمام الجمل كنت أدندنها.

«وأنت عارف قد إيه كتيرة وجميلة.. العيون السود في بلدنا يا حبيبي»

العيون السود أحاطت بنا، كثيرة وجميلة ودامعة وضاحكة، حتى هاجمتنا الجمال. اختفت أعيننا، ولم أرَ سوى عيون صفراء بلا مشاعر، لم أعد أرى سوى ومضات تظهر في الليل وتختفي، أصوات مكتومة وهسيس وصهيل.

كنت قد مت منذ ساعات طويلة، أكثر من ست ساعات ما دامت عيناي لا تريدان الانغلاق، درست التشريح في الكلية وأعرف

بالضبط وضع جسمي الآن، شيء متصلب ينتظر أن يستريح في قبر. شيء أقرب للتماثيل المضحكة التي اعتدت نحتها. تمثال لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ولا يشم ولا يتذوق ولا يحس. لكني في مكاني المطل على الغرفة من الأعلى، كنت قادرًا على كل ذلك.

عندما تلقيت الرصاصة توقف الزمن، توقفت الأغنية عن الدوران في عقلي، وغرقت في ظلام غريب لا يشبه النوم، ظلام سائل لزج أحاط بي، لم أتوقف عن التفكير، شعرت بجسم ساكن خلف عيني اليمنى، ثقيل وبارد، لم يؤلمني لكنه أزعجنيً بشكل ما. لم أعد قادرًا على الكلام ولا تحريك يديَّ أو قدميَّ، ثم رأيت كل شيء بوضوح أكبر. تماوجت أمامي الألوان ورأيت مشاهد لا أعرف إن كانت حدثت أم لا. لم يكن الموت سيئًا جدًّا، كنت أقول دائمًا من يموت يستريح، التعب لمن يظل على قيد الحياة.

ما الذي سيتغيَّر في حياة أحبائي؟ ستظل مها ترتدي الأسود، وربما تستبدل أمي الأسود بالأزرق، وربما تسأل عني ليلى فيخبرونها أنني في مكان أجمل. سيكتئب مصطفى قليلًا ثم سينشغل بمشاريعه ومعارضه، ربما يهدي معرضه القادم لي، سيكتب على كتيب العرض إلى روح سعد البيومي. ربما سيظل يتذكرني كلما عكف على مشروع جديد، لكن في الحياة ما الذي سيتغير؟ لن يتغيَّر شيء سوى غيابي. وأنا لن أشعر به، على العكس، اليوم، أشعر بحضوري أكثر من أي وقت مضى.

أحمر

.. يسري الأحمر داخلنا إلى الأبد، يملأ القلب ويروي الجسد. نقول الأحمر لون الغضب لأننا نتخيل الدماء وهي تفور داخل الأوردة، على الرغم من أن الأحمر أحيانًا ما يكون لون الهشاشة. أيّ تعبيرٌ عن الهشاشة يماثل انبثاق الدم من الجسم لحظة الجرح؟ هشاشة ممتزجة بذعر، لأن الأحمر لون الخوف. في لحظة فقدان الأمل لن نرى سوى الأحمر. وفي لحظة انتهاء الحب لن نرى سوى الأحمر، وفي لحظات الألم والمرض والجبن والتراجع، لن نرى سواه. في كل اللوحات يظهر الأحمر جليًّا، لا وجود للوحة بدونه، حتى لوحات الظل والرماديات، يظل الأحمر كامنًا في أعماقها بشكل ما، ويعبر عن كل ما نريد قوله ولا نستطيع..

عجزت عن إدراك موقعي، كنت لا أزال متصلًا بجسدي، أرى الغرفة كلها من زاويتين، من مرقدي على الطاولة المعدنية، رأيت السقف الساكن، والرؤوس التي تلقي عليَّ نظرة أو تضع ثلجًا أو تحاول عبثًا إغلاق عيني الباقية. وفي نفس الوقت، رأيتني من الخارج، راقدًا على ظهري شاخصًا إلى اللا شيء، عيني الوحيدة لا تزال تلمع بابتسامة مقطوعة، ومكان العين الأخرى ثقب أحمر.

رأيت الأطباء والعمال، والأجساد الملقاة على الأرض وعلى الأرفف وفوق مقاعد مصفوفة أو كراتين مرصوصة، رأيت أقفاصًا مقلوبة موضوع فوقها الأجساد، نساء ورجال وأطفال. امتلأت الثلاجات ولم ينتهِ توافد الجثث منذ جمعة الغضب. بدا لي أن الأطباء خجلون من وضعها على الأرض، حاولوا إرقادها على أي شيء مرتفع، وكأنهم يؤخرون التحامها بالتراب. ينتظرون بأمل أن يتعرف أحدهم على جسد، ليسرعوا إلى تغسيله وتكفينه، وإيداعه غرفة الاستلام وكأنهم يعيدونه إلى الحياة.

لم أشعر بوجود آخر مثلي، كنت وحيدًا في الهواء، طافيًا بشكلٍ ما. لم أقدر على تحريك ذراعي أو النهوض بجسمي الذي باتَ

شاحبًا، لكني في نفس الوقت أحلِّق بخفة في سقف الغرفة وأتابع كل شيء.

اقتربت أكثر من الأجساد المكدسة في المكان، بعضها لا يزال بحالته، وبعضها شفَّ جلده ورقَّ، وازرقَّ في بعض الأماكن الأقرب إلى الأرض.

تسقط الدماء دائمًا إلى أسفل بفعل الجاذبية، تتجمع في الظهر أو البطن أو الجانبين، طبقًا لوضع السقوط. أنا سقطت على ظهري لأن الرصاصة جاءتني من الأمام. بينما كنت أتأمل كل جسد ممدد في الغرفة، رأيت مشهد سقوطه كأنها مقاطع فيديو على يوتيوب تعمل وحدها أمام عينَيَّ.

في جمعة الغضب، كان الناس يتهاوون من حولي. ركضت على امتداد شارع رمسيس، أردت العثور على تاكسي يحملني إلى البيت. أردت الهرب والناس يتساقطون، لم أستطع التوقف أو إنقاذ أحد، أتردد لحظات ثم أعاود الركض، أركض وسيارة بيضاء تمرق من جانبي، تدهس ظلي، تدهس الراكضين من حولي، تدوس حتى على الأجساد الملقاة على الأرض.

يقع صبي على بطنه، يرفع نظره إليَّ وأنا أقفز فوقه وأكمل ركضي، كيف يمكن أن أجري بهذا الشكل لأنقذ نفسي، وأترك من حولي يموتون؟ لماذا أنا هنا إذن؟ لماذا وقفت في الشارع لأيام، أنام وأقوم وآكل أرغفة الخبز الناشفة وأشرب ماء فاترًا متسخًا ما دمت غير قادر على إنقاذ أحد؟ ولماذا تجري الدماء بهذا الشكل في الشارع مثل ماء المطر؟ لماذا نموت أصلًا؟ ولماذا نعيش؟

انعكست الأضواء الخافتة لأجهزة الهواتف المحمولة التي أمسكنا بها على الدماء الجارية في الشوارع. دماء خفيفة مثل الماء الأحمر، مختلفة عن الدماء التي غطت أرض مطبخ جدتي في البيت القديم بعد أن أمسكت بدجاجة، وطلبت مني أن أشد جلد رقبتها إلى أعلى ثم مررت السكين بجوار إصبعي.

رمتها على الأرض وهي لا تزال ترفرف بجناحيها، وغطتها بحلة ألمونيوم كبيرة، وانتظرت انتهاء تخبطها داخلها. صوت ارتطام الجسم داخل الإناء يمينًا ويسارًا أذاني، وشعرت أنني مجرم بشكل أو بآخر.

الدماء التي انسابت على أرض المطبخ لمست إصبع قدمي داخل الشبشب المفتوح فجفلت. ضحكت جدتي وغمست يدها في الدماء وقالت هذا دم طاهر يا حمار.

شعرت بغثيان وجريت لغسل قدمَيَّ، في كل مرة كنت أقسم بيني وبين نفسي أن أتوقف عن تناول الدجاج وكل اللحوم، ثم أعود عن قراري بمجرد أن ترص جدتي الأطباق على الطبلية. كيف كنت أنسى منظر الدجاجة وهي تتطوح على الأرض، والدماء والصوت المعدني، بينج..بوينج.. داخل الإناء؟

هل دمي الذي غطى بلوفر مصطفى طاهر أيضًا؟ هل سينسى مصطفى مشهدي وأنا أهوي؟ سينسى تعبيرات وجهي وهي تتجمد، ونفسي وهو ينقطع؟ ورائحتي وهي تتلاشى شيئًا فشيئًا؟ هل ستنساني

مها؟ تنسى شكلي في أول لقاء بيننا وأنا أركض في مكاني داخل كرة شفافة كبيرة؟ بالتأكيد بدا منظري مضحكًا. فيم كنت أفكر؟ في التعبير عن رأيي؟ تعبير كلفني ساعات من عمري القصير قضيتها داخل غرفة مغلقة أتأمل السماء من شباك مفتوح على الرغم من أنه كان بالنسبة لي مغلقًا بطبقة لزجة شفافة، طبقة عازلة، عزلت مشاعري وعزلت أفكاري، وعزلتني عن قوتي، عن فني، وعن كل ما تمنيتُ التعبير عنه.

في اليوم الأخير في الغرفة المغلقة، سألني النقيب محمد عما أحضِّره لمعرضي القادم. أخبرته أنني أعمل على مشروع جديد، يرتبط بالبحر، أعماق البحار.

- ده له علاقة بموضوع بابا ولا إيه يا باشمهندس؟

تجمد الزمن لحظات، وشعرت بصهد يخرج من قفاي وأذنَيَّ. حاولت أن أقول أيَّ شيء، أي شيء يبعدني عن الأمر، وكأن موت أبي يصمني أنا وليس هم. خفت أن أنطق، أو أن أقول إن أبي مات بسببك يا سيادة النقيب محمد. مات أبي لأن أشخاصًا مثلك يملكون القوة، يسمحون بموت المئات ببساطة وكأنهم لا شيء. ثم بعد سنين يحبسون أبناءهم في غرف مغلقة، لمحاسبتهم على فكرة لم تخرج بعد إلى النور.

خفت.. خفت من الاعتراف بأن مشروعي القادم هو مشروع حياتي، وأنني أفكر فيه منذ كنت طفلًا، منذ عام ١٩٩١ وأنا أتخيله، وأنا أضع ميزانيته، وأنا أرسمه في اسكتشاتي، مشروع أنا متأكد

أنه لن يغيِّر شيئًا، لن يعيد الموتى ولن يقتص من المجرمين. لكنه استكثر عليَّ تحقيق حلم عبيط ربما لن يراه أحد، سوى أنا وبعض الأصدقاء وتلاميذي في الكلية.

- حضرتك تقصد شيء معين؟

- أبدًا أنا باطمن بس.. بصراحة مش عايز أقابلك هنا تاني.. أو يعني في أي أوضة تانية هنا.

ضحك.. ضحكة عالية مجلجلة وبدا أنه معجب جدًّا بخفة ظله. حاولت أن أرد، أن أقول بأن هذا مجرد تخيُّل، مجرد مجسمات لقاع البحر الأحمر، في مكان ترقد فيه سفينة تأخرت على موعد وصولها تسعة عشر عامًا. لكني لم أقل شيئًا.

كان لا يزال يتحدث ويحكي قصصًا لا أريد سماعها، قال إن أبي بالتأكيد شهيد، وإنني استفدت حتمًا من التعويض الذي حصلت عليه أمي، وإن الحياة تستمر، والناس تنسى، لماذا تريد تقليب المواجع يا باشمهندس؟ تريد تذكير الناس؟ نحن مقبلون على مرحلة مهمة جدًّا، انتخابات وحوارات وتعب كثير. ربما تتحول الكلية إلى لجنة انتخابية، لمن ستعطي صوتك يا باشمهندس؟ لا، لا تخبرني، أنا أعرف طبعًا، أنت رجل وطني ومحترم وتعرف مصلحتك.

تتحول الرؤية أمام عينَيَّ إلى اللون الأحمر، وعرفت أن ضغطي مرتفع، لم أجد ما يكفي من القوة لأخبره أن أمي هي الوحيدة التي رفضت التعويض، عندما اتصلوا بها للذهاب واستلام مستحقات

أبي، خمسة آلاف جنيه بدلًا من مائة وخمسين ألفًا وعدت الحكومة بها في الأخبار والمؤتمرات الصحفية. وقفت أمي وقتها أمام الجميع، ورفضت أموالًا قالت إنها ملوثة بدماء أبي، وإنها لن تتحمل تناول لقمة لها طعم لحم أبي المزرق، أو رشف شربة ماء بطعم الماء المالح الذي دخل جوفه ونفخ جسمه قبل أن يموت.

لم أفكر في نفسي أيضًا، حملت هم الخروج وإخبار مصطفى أن مشروعنا الذي نعمل عليه منذ أعوام، أن كل هذا العتاد والأدوات والكهرباء، ستذهب هباء. كل الأيام التي تعلمنا فيها الغوص على الرغم من كراهيتنا له، والمرة التي هبطنا فيها إلى هناك، وكلفتنا ثروة صغيرة، كل الليالي التي سهرنا فيها نرسم ونجمع ونلوِّن ونلصق ونطارد الناجين لنسجل شهاداتهم، ستذهب هباء. إننا سنهد كل شيء، ربما سنحرق حتى المجسمات التي صنعناها بأيدينا ببطء وصبر، وبمشاعر ودموع، ومن ذكريات وخيالات. سندمر مشروعًا تمنيت لو خرج إلى النور، لو تحول إلى رسالتي للدكتوراه، لو تحول إلى عرض دائم يراه الجميع ويتذكرون، يتذكرون أن الإنسان رخيص جدًّا وأن الحياة رخيصة.

أيقنت أن الحياة رخيصة وأنا أتأمل جثة ولد ملقاة على جانبها في المشرحة، وجهه مستكين غير عابئ بساقيه المتضخمتين المزرقتين. بجواره جسد ضئيل لفتاة، بقبضة يد مضمومة وكأنها ستلكم أحدهم، وجهها نظيفٌ وعيناها مغمضتان، لكن شعرها تحول إلى كتلة خشنة مغطاة بطبقات من الأحمر القاني. كان منظر الشعر والدماء قاسيًا، لكني لم أعد قادرًا على التعاطف، تمنيت

فقط لو بإمكاني غسل شعرها، أن أمدد رأسها على ركبَتَيَّ، وأن أصب الماء على شعرها حتى يستعيد لونه الأصلي، كما فعلت معي ياسمين منذ قليل.

حاولت التمسك بقبضة البنت المضمومة، قربت كياني منها، لمست جلدها، كان باردًا جدًّا، كأنه قطعة ثلج، ارتاحت قبضتها من أثر لمستي، وانفرجت راحتها ببطء. ظلت أصابعها منثنية على نفسها، شعرت أنها تريد التمسك بشيء، أرادت التمسك بشيء قبل أن تموت، لكن قبضتها أطبقت على الفراغ.

أخضر

.. يكمل الأخضر الأحمر، بالعنف وبالوداعة، يقال إنه لون الراحة، لكن الأخضر ماكر، لا يمنح راحته إلا برغبته. يمنح أحيانًا شعورًا غريبًا بالزيف، بالرعب وبالمرض. الأخضر لون الكذب، لأن الكذب بريء مثله، مريح مثله، ويخفي الحقائق التي لا نريد الاعتراف بها لأنفسنا وللآخرين مثله. الكذب مسكين مثل الأخضر، ومثله غريب ووحيد. الأخضر رمز للاختلاف، للروح الملبوسة بطيف شرير، وهو أيضًا لون النمو المدهش. فريد في استمراريته على الرغم من أنه ليس مستمرًّا، حقول فان جوخ خضراء فاتحة، بدرجة تميل إلى الأصفر ولا تنتهي إليه، رأى فان جوخ العالم بدرجات باهتة من أصولها، لأن اكتئابه منعه من الرؤية الصريحة لكل شيء، كان يعرف أن النمو ينتهي بالموت، لأن الأخضر هو أيضًا لون الفناء..

يخدعنا البحر الأخضر بزرقة مزيفة على السطح، أزرق سماوي يربط السماء بالأرض، يحول الأفق إلى كرة بلا بداية ولا نهاية. في فيلمي المفضل، يركب البطل زورقًا، يبحر به، ينام فيه ويتأمل السماء، يعتقد أنها تمتد إلى الأبد، لكنه يصطدم فجأة بجدار، يكتشف أن حياته كلها وهم، وأن الأفق، السماء، امتداد البحر، مجرد حائط خشبي مغطى بورق أزرق، مضاء بألف لمبة، يخفي بابًا سريًّا يقوده إلى العالم الحقيقي، شارع صاخب في لوس أنجلوس، سماؤه غائمة ولا بحر يشقه.

أنا أردت الوصول إلى نهاية سمائي، فغصت في بحر أزرق على السطح، وأخضر في أعماقه. كيف يعود الإنسان إلى أصله، كائنًا بحريًّا بخياشيم وزعانف؟ كيف نرتدي بدلة تشبه جلد القرش، وأنبوب أكسجين مثل حدبة حوت، ونظارات سميكة مثل عيني سمكة، وننزل بإرادتنا إلى بحر مثقل بالأرواح التي ابتلعها، والهموم التي ألقيت فيه؟

من أجل هذه اللحظة قضيت سنة كاملة بعيدًا عن بيتي أتعلم الغوص، ادخرت راتبي لشهور قبلها لأتمكن من دفع تكاليف

رحلات الغوص، نقلت إقامتي لفترة إلى الغردقة، وأخذت إجازة من العمل. تركت زوجتي وأمي وأصدقائي وذهبت إلى هناك. لا أفعل شيئًا سوى أخذ الدروس المكثفة للحصول على رخصة المستوى الأول، وبعد ٦ أشهر و٤٠ غطسة، حصلت على الرخصة الثانية، من أجل هذه اللحظة.

لم أرد شيئًا، لم أرد التقاط بعض الصور أو تسجيل كادرات، لأني في أعماقي رأيت كل شيء، حفظت شكل الحقائب المغلقة المتآكلة؛ ألوانها، درجة صدأ أقفالها، عرفت حتى ما تحويه من متاع. عرفت شكل حقائب أبي؛ حقيبة يد بنية جلدية مستطيلة كان يحملها دائمًا في يده، وحقيبتا سفر، إحداهما بيضاء تُحمل على الكتف، والأخرى مستطيلة تُجرُّ على الأرض بعجلتين خلفيتين. أعرف أيضًا أن الدراجة الصدئة له، اشتراها لي بناء على طلبي. وأن جهاز التسجيل المتآكل الذي يدور فيه شريط وهمي إلى الأبد له، والآلة الكاتبة التي تستقر في نهاية غرفة الأمتعة - يكتب البحر على مفاتيح حروفها كتابًا فريدًا عن الموت - له. كنت أريد شيئًا آخر، كنت أريد أن ألتقي بطيفه، أو أرى آخر ما رآه.

كان يأمل أن يعود ويكمل رسالته للدكتوراه في اللغة العربية، امتلك أحلامًا كثيرة، لم يتح لي الزمن مناقشتها معه، لكني عرفتها كلها. تخيلت نقاشات جمعتنا في عقلي عشرات المرات، حتى اختلط الوهم بالحقيقة، وتخيلت أيضًا رحلة عودته، لون ملابسه وتسريحة شعره إلى الخلف، درجة تشذيب شاربه وكل الثنيات التي ظهرت حول عينيه وفمه في الغربة، أتخيلها كلما رأيت اسمه

في قائمة ضحايا السفينة، وأتخيلها كلما ورد ذكرها في برنامج أو فيلم، أو عندما تحولت إلى مزار، يزوره السياح بحثًا عن مغامرة، وأزوره أنا بحثًا عن بقايا أبي.

رأيته في عينَي سمية عندما التقيناها أول مرة، بعد أن أجرى مصطفى بحثًا عن الغواصين الذين يزورون السفينة بانتظام، قرأ حوارًا لها في جريدة وأعجب بها، لأنها لم تتحدث فقط عن السفينة كونها مزارًا سياحيًّا، لكنها تحدثت أيضًا عن بقايا الأشخاص الذين ماتوا فيها، تحدثت عن غرفة الأمتعة، وعن مشاعرها في كل مرة تدلف إليها، عن إحساسها بوجود الغارقين المستمر هناك في الأعماق حول متاعهم، حول آخر ما تبقى منهم، أو آخر ما يدل على أنهم عاشوا ذات يوم.

في أول مقابلة بيننا سألتني عن سبب تحمسي لتعلم الغوص، والحصول على رخصة المحترفين، على الرغم من عيشي في القاهرة وعملي البعيد، وأخبرتها بكل شيء، أخبرتها بقصتي، وحافظت على مسافة من الدراما. اكتفيت أنا ومصطفى بشرح فكرة المعرض، وأريتها مشروع تخرجي، اللوحات التي سجلت فيها مشاهد من حياتي، طفولتي وشبابي ورجولتي دون أبي. نصحتني بأن ما سأراه لن يكون سهلًا، وأنها قادرة على أن تجلب لي كل الصور التي أريدها، والتي ستساعدني حتمًا في مشروعي، لكني رفضت.

أردت زيارة المكان الذي مات فيه، فكرت أن للموت ثقلًا لا يختفي، تخاف أمي من دخول المستشفيات، تقول فلان جارنا مات فيه وأقول لها يا ماما، ثمَّة إنسان مات في كل مكان على هذه

الأرض، كل حجر، كل ذرة تراب، كل رصيف وكل شارع وكل بيت وغرفة ودرجات سلم وشرفة، كل حيِّز صغير، مات فيه شخص ما في زمان ما. كيف نفرُّ من أماكن الموت؟ وكيف نتجنب الخطو فوق بقعة تحمل ثقله؟

منذ أن بدأ الهاجس يطاردني ومصطفى يساندني في كل خطوة، من أجلي تخلص من خوفه من البحر، وقرأ كل ما وقعت عليه يداه عن الغوص، واشترك معي في مركز لتعليم الغوص للمبتدئين في حمَّام سباحة كبير في القاهرة، ثم سافر معي إلى الغردقة وسفاجا عشرات المرات لبدء الدروس الحقيقية مع سمية.

تعلمنا معًا كيف نهبط تدريجيًّا إلى عمق متر، فمترين، فثلاثة، وكيف نخلع النظارات أسفل الماء لإفراغها وارتدائها من جديد، تعلمنا كيف يمكن أن نصعد تدريجيًّا مرة أخرى، ومتى ينبغي علينا الشعور بالخطر. تعلمت كل شيء لم يتعلمه أبي، وتسلحت بكل الأدوات التي لم يملكها وهو في طريقه إلى أعماق بحر لم يبصر جماله، ولم ير أعشابه المرجانية، ولم يستمتع بسكونه.

تقبع السفينة على عمق ٣٣ مترًا تحت سطح البحر، على بعد كيلومترات من ميناء سفاجا، يزورها الغواصون من حول العالم ليشاهدوا كيف يمكن أن تنمحي الحياة في لحظة، وكيف تظل آثارها باقية. كادرات مؤطرة بمياه خضراء داكنة، أشياء كان لا بد وأن تصل إلى بيت، حقائب ربما كانت ستجد مكانها اليوم فوق الدواليب أو أسفل الأَسرَّة، دراجات صغيرة، سيارات لم تفرح بلوحات أرقامها، ملابس لطفل لم يولد، وفستان زفاف لفرح لم يتم.

لماذا ذهبت إلى المكان الذي مات فيه أبي؟ كان السبب الظاهري هو المعرض القادم، معرض يضم مجسمات صنعناها بأيدينا أنا ومصطفى ونانا، سهرنا ليالي طويلة نحاكي الصور التي جمعناها، ونرسم الاسكتشات لعناصر من خيالنا، ثم نصنعها من الجوخ والجص والجبس والقصاصات والملابس القديمة والمفارش والطين وحتى أوراق الشجر. ولم يعد ينقصنا سوى تسجيل أصوات السفينة والطاقة المنبعثة من داخلها، حركة المياه والشعب، اختراق الملح للخشب والجلد.

لكن السبب الحقيقي كان رغبتي في مقابلته. سيطر حلم طفولي عبيط عليَّ، حلم بأن أهبط إليه تحت الأعماق، فأجده جالسًا في قمرته ينتظر. على الرغم من أنني شهدت دفنه بنفسي، وأعرف أنه غُطي بالتراب وليس بالطحالب الخضراء، أن جسمه أكله الدود وليس الأسماك، أنه تحول إلى تراب وليس فضلات سمك تحللت إلى غازات تهيم في البحار مثل شبح وحيد.

ربما أردت تعذيب نفسي، جزء مني لا يسامح فكرة أنني لم أره، لم يسمحوا لي بالذهاب معهم إلى سفاجا، ولم أركب مع أمي سيارة الإسعاف التي حملت جثمانه إلى مشرحة زينهم، ولم أحضر غُسله، ولم أحمله حتى إلى القبر. كان لا بد وأن يكون لي امتياز ما، مثل امتياز معرفة المكان الذي أخذ فيه آخر أنفاسه، ولفظ فيه آخر أنفاسه.

سجل مصطفى كل شيء، سجل صوت النَّفَس أسفل الماء، الشهيق ثم الزفير المصاحب بقلقلة خروج ثاني أكسيد الكربون

في فقاعات كثيرة كانت في وضع آخر لتثير البهجة، سجل صوت اختراقنا للمياه الخضراء، صوت الشعاب المرجانية المرنة التي تنثني أمامنا، وصوت الخشب الذي ارتطمنا به أثناء دخولنا إلى غرفة القيادة، ثم إلى المخزن، من مربع ضيق مفرَّغ نعبره وكأننا نعبر فجوة سحرية، تنقلنا إلى زمن بعيد، زمن توقف فيه الزمن، ورقدت الحقائب فوق بعضها، مغلقة وهشة، تضم أحلامًا كثيرة لم تُحقق، ووعود لم يوفِ بها.

كنا نحمل كشافات كبيرة، سمية تتقدمنا وخلفها أنا ثم مصطفى، أحاطا بي دون قصد، ربما شعرا بأنني في حاجة لحماية. في الأسفل، في قلب الأخضر، لم أكن على موعد لمواجهة الماضي، ولا حتى مقابلة أبي. في الأسفل، كنت على موعد لرؤية الحياة التي لم تعد لي، كل التفاصيل التي لم تحدث، كل طريق سرت فيه وحيدًا، كل ليلة نمت فيها قلقًا لأنني في الصباح سأقف في طابور المتأخرين عن دفع مصروفات المدرسة. كل مرة رأيت فيها أمي ساهمة في الشرفة، تفكر في الإيجار المتأخر، أو الدين الثقيل.

في الأسفل اكتشفت أنني عانيت. طوال حياتي لم أشعر بأنني أغوص في بحر عميق إلا عندما غصت فعلًا، وأدركت أن الملح كان ينهش في لحمي كل السنوات الماضية، وأنني مثل أبي غريق، وأن أمي ربان سفينة مسكين محبوس في غرفة قيادته، وأننا جميعًا أموات.

في الأسفل رأيت حذاء يشبه حذاء أبي، فردة واحدة من حذاء كان – ذات يوم – أبيض، رياضي برباط طويل لا يزال معقودًا، به خطَّان من الجانبين. يشبه حذاءً مقلدًا اشتراه من وسط البلد قبل

السفر، انتهى به الحال في أعماق بحر، مغروسًا من الأمام في الشُّعب المرجانية وكأنه سقط فيها وانغرز رافضًا الطفو من جديد.

ارتبكتُ، امتلأت العدسات بالماء، للحظة لم أفهم إن كانت بماء البحر أم بالدموع، لم أشعر أنني أبكي لكني لم أعد قادرًا على الرؤية. اندفعت نحو الحذاء وحاولت جذبه، لحق بي مصطفى بينما حاولت سمية إيقافي، أشارت بأصابعها أنه ممنوع، ممنوع أخذ أي شيء من متعلقات السفينة المزار، ممنوع أخذ أيِّ شيء من متعلقات أبي المزار. ارتبكت حركتي ولم أعد قادرًا على الحركة، أحاطا بي من الجانبين، تمسكا بذراعَيّ، شعرت بضغط أصابع مصطفى على ذراعي، كان يرتعش مثلي، لكنه تمسك بي. دفعاني إلى أعلى، كنا نتوقف كل بضعة أمتار لمعادلة الضغط. الصعود إلى السطح لا بد وأن يحدث تدريجيًّا، لا يمكن لإنسان أن يندفع من أسفل الماء إلى أعلاه إلا بعد موته، إلا بعد أن يفرغ جسمه من الروح التي تثقله، لكننا كنا لا نزال أحياء، وكنت أنا أثقلهم روحًا.

دفعاني إلى المركب ونزعا عني أسطوانة الأكسجين والعدسات، لفتني سمية بمنشفة، وأحاطني مصطفى بذراعه كأنني سأغافله وأقفز. لم أكن لأفعلها، كنت أبكي وأرتعش، ورغبت في التقيؤ، لأنني بشكل ما شعرت بأنني أمتلئ بأبي الميت، بماء البحر الذي قتله، الماء الذي ينحت كل يوم في حذاء ربما كان حذاءه، ربما اختلط ببقايا رائحته، ببقايا عرقه الذي تشبع به. كنت خائفًا، من الموت ومن الوحدة، عرفت أن بقايا الموتى مخيفة، لأنها تثبت أنهم ذات يوم كانوا هنا ثم تلاشوا.

اعتقدت أنه حذاؤه بسبب عقدته، كان أبي يعقد حذاءه مرتين فوق بعضهما حتى يضمن أنه لن ينحلَّ أثناء سيره، ويضطر إلى الانحناء وربطه. كره أبي الانحناء، لكنه انحنى ذات يوم عندما قبل بالغربة، وانحنى عندما قبل العودة في عبارة رخيصة، وانحنى عندما قفز منها دون سترة إنقاذ، لم يمت بطلًا. لم يكن بطلًا، كان رجلًا مسكينًا مات وحده. واليوم أموت وحدي. أنا أيضًا لست ببطل، كنت خائفًا من الموت، ولم أرغب في النزول إلى الميدان حتى آخر لحظة، لكن وجه أبي المتعب، وفستان أمي الأزرق، ومدخل البنك البارد، ووجه المحاسب الخجل، وبدلة النقيب محمد، وبرجولا كلية الفنون الجميلة، وحوائط المكتب الخشبية، والنافذة المطلة على سماء سوداء، وحذاء أبي البالي.. دفعوني إلى النزول.

رقد أبي قبلي على نفس الطاولة الباردة، وانتظر مثلي الخروج من هنا إلى المقبرة دون أن يحظى بلمسة أخيرة من أحبائه. كُتب اسمه في قائمة موتى السفينة، وسيُكتب اسمي في قائمة موتى الميدان. كلنا في النهاية، مجرد أسماء تنتظر قوائمها.

برتقالي

.. البرتقالي زاهٍ كالحياة، وميت أيضًا مثلها. لون الأعصاب المهتزَّة، والأفكار المبعثرة. غير مكتمل كأحمر الحب، بل ناقص يكره المنافسة. قلق وغير آمن مثل إشراقة باردة. ثقيل وهلامي مثل رمال متحركة. يبتلعك في لحظات الحزن، أو يصنع حاجزًا بينك وبين العالم. لأن نقصه يمنحك القدرة على الاستغناء، لكنه في نفس الوقت، يزيدك تشبثًا ببقايا الراحلين..

ضحكت نانا عندما أخبرتها بأنني أريد تلوين حوائط المعرض بالبرتقالي. قالت: معرض عن سفينة غارقة نمنحه لونًا مبهجًا مثل هذا؟ أنت مجنون يا سعد، حبك للأكواب البرتقالية سيجننك. هذا ليس مجًّا تشرب فيه الشاي، لا بد أن تكون الخلفية داكنة، وأن نسلط أضواءً على الأحواض التي تحوي المجسمات، ثم تخرج الأصوات من السماعات في الحوائط، نريد أن نجسم تجربة الغوص إلى السفينة داخل غرفة.

كانت على حق، درست نانا الديكور الذي تمنيت دراسته في كلية الفنون الجميلة وتعرف عما تتحدث، لكني لم أوافق، البرتقالي ليس لونًا مشرقًا ولم يبهجني قط. لا يذكرني سوى بلون النعش الذي حُمل فيه أبي من مشرحة زينهم إلى القبر. برتقالي داكن يشبه الموت، آخر حاجز حرمني رؤية أبي، وهو أيضًا آخر ما تبقى لي منه.

لم يترك أبي لي سوى كوب من البورسلين البرتقالي، عاد به من السعودية في العام الذي سبق موته، لم يشرب الشاي والنسكافيه إلا فيه، ثم سافر ونسيه على رخامة المطبخ لينتقل إليَّ. يظهر الكوب

في صورته الملصوقة على حائط غرفتي القديمة، صورة الغربة كما سميتها، يجلس فيها على صندوق كوكاكولا فارغ، أمامه صحن ألمونيوم يغسل فيه جواربه، يرتدي جلبابًا أبيض وخفًّا بلاستيكيًّا، بلحية طويلة وشعر قصير، يبتسم وبجواره كوبه البرتقالي.

أثارت صور السكن الذي عاش فيه خيالي، لأنه بدا وكأنه كهف روبنسون كروزو في رواية دانيال ديفو التي اشتراها لي قبل رحيله. بيت على قمة جبل منعزل، يعيش فيه مجموعة من الرجال الملتحين، على امتداد الحيطان صفوا الصفائح الفارغة بدلًا من الموائد والأرفف، ربما وضعوا مفرشًا أو اثنين ليشعروا بأنهم يعيشون في بيت حقيقي، ربما علقوا ساعة، أو لصقوا صورة على الحائط.

لكني كلما كبرت، شعرت أكثر بخوائهم، أتأمل الصورة كل ليلة قبل النوم، وأكتشف تفاصيل جديدة لم أرها من قبل، الصور ماكرة، لا تفصح عن نفسها إلا لمن يستحق، متموجة، تخفي حكايات وتُظهر أخرى، تخدع العين وتجذبها إلى حيث شاءت. أرى في مرة أكوام علب سجائر مارلبورو الأحمر المكدسة في الخلفية، وأعد في مرة علب الصودا الفارغة وحبات التفاح المتناثرة. تتلبسني وحدة أبي على الرغم من ابتسامته، ويملأ فمي طعم النسكافيه أو الشاي أو القهوة في كوبه. حلمت بالذوبان في الصورة والانضمام إليه، لأنني في مرة قرأت أفكاره في تلك اللحظة، كان يفكر فينا، في بيت آخر يشع دفئًا يود لو كان فيه، أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه بيننا، بنفس هيئته، بجلبابه وخُفه الأبيض ولحيته ومجه البرتقالي.

تعلمت شرب الشاي والقهوة مثله، لأمسك بكوبه وكأنني أحتمي به، ألف عليه كف يدي، أضعه أمامي على الطبلية وأنا أذاكر، أشرب فيه وأنا أقف في الشرفة، أتأمل السماء وأحدثه.

في مشروع التخرج، رسمت لوحتين، في الأولى، تجلس أمي على مقعدها، فوق رأسها على الحائط صورة زفافها هي وأبي، كانت جميلة بفستان بسيط وباقة ورود بلاستيكية، وكان خجلًا، ببدلة بيضاء وربطة عنق داكنة. يقفان متجاورين، ظهرها في صدره ويده على خصرها، ينظران إلى عدسة الكاميرا. شعرها قصير أما هو فبشارب مشذب وفودين طويلين، وغمازتين ورثتهما عنه، أسفل الصورة الكبيرة في بروازها الذهبي المجدول، صورة فوتوغرافية مثبتة بشريط السلوتيب الشفاف، صورته في سكنه الخشن بجلبابه الأبيض، بينما اختفت الغمازتان وراء الذقن الطويل. رسمت نفسي جالسًا على الأرض، أمامي كوبه البرتقالي وصحن بلاستيكي يحوي حبات البرتقال. في اللوحة الثانية، رسمتني شابًّا جالسًا على مقعد، أنظر إلى الحائط المشقق، الصورة عليه تغيرت، لم تعد صورة زفاف، أخرجتها أمي من بروازها واستبدلت بها صورة أبي وحده، بشارة الحداد، صورة جواز سفره الـ٤*٦، كبرتها لدى استديو التصوير ووضعتها في البرواز القديم، وأحاطتها بالسبح الطويلة الملونة. كان حضوره في البيت دائمًا، في صورته، في كوبه، في عينَي أمي وفي كل الحكايات التي تمنيت أن أقصها عليه ولم أستطع.

في اللوحتين، يطل من الجانب جزء من صورة في برواز أقدم لسعد زغلول، الصورة المعلقة على حائط بيتنا منذ طفولتي. أحبه أبي، مثلما أحبه أبوه وجده من قبله. حكى لي أبي عن عم له، حمل اسم سعد أيضًا تيمنًا بالزعيم، واستشهد في مظاهرات الطلبة ضد الإنجليز عام ١٩٤٦ في ميدان التحرير، لينقل أبي الاسم إليَّ بعد سنين إرضاءً لذكرى عائلية مشرفة يتفاخر بها أمام الجميع، دون أن يعلم أنه ينقل شيئًا أكبر من حروف ثلاث.

ترك هذا الفتى الشهيد الذي لم نقابله لا أنا ولا أبي هاجسًا ما بالبطولة، هاجس ربما دفع أبي للتخلي عن سترة إنقاذه لامرأة تعافر الموج وحدها، عاشت هي ومات هو. هاجس دفعني للنزول إلى الشارع، والوقوف في انتظار موت قادم من بعيد. كيف يموت شخص في زمن آخر، ويظل باقيًا، مكررًا في حيوات أخرى؟ الموت والزمن والعبث والحياة، لا شيء فريدًا أو أصيلًا، كلنا نسخ مكررة لهاجس واحد.

عندما انكسر كوب أبي البرتقالي، عندما سقط من يدي وانشق نصفين، حملته ووضعته داخل البوفيه الأسود المنحوت عليه وجه أسد يزمجر، كان مبطنًا بمرايات تعكس ما بداخله وتضاعفه عشرات المرات، بوفيه يوحي بأننا نملك الكثير، وليس بضعة أكواب وكؤوس متبقية من جهاز أمي القديم، وضعت نصفَي المج بينها، واشتريت آخر برتقاليًّا، كلما انكسر واحد اشتريت آخر. اشتريت المجات البرتقالية من كل مكان، اشتريتها من فرشات على الأرصفة ومن جاليريهات فخمة، كلها انكسرت، وفي كل مرة ينكسر فيها كوبي

البرتقالي، ينتهي شيء داخلي لا أدركه، لكني أشعر به، وكأنه طيف يتلاشى شيئًا فشيئًا، رقع من الذاكرة تبهت، ولا تعود.

كنت محتضنًا كوبي بكفَّي يدَيَّ عندما اعترضت نانا على الخلفية البرتقالية للمعرض، أخبرتها أن هذا اللون هو ما يشكلني، وهو ما يحوي طيف أبي في خيالي، أردت أن يصل كل ما أفكر فيه عبر اللون، عبر التناقض بين الدرجة الصارخة مثل اشتعال قلب الشمس وبين الأحواض الغارقة في عتمة الأخضر، البرتقالي على الرغم من زهوته منكسر، وكأنه يمنح السعادة دون أن ينالها، قلب حبات المانجو الناضجة في صيف حار، قشر برتقال لامع في شتاء قاسٍ، التناقض بين هدوئي وبين صخبي، بين حزني وبين سعادتي، بين غربة أبي وحضوره، بين ضعف أمي وقوتها، بين الصوت المستكين لشهادات الناجين من الغرق وبين اهتزاز خفي يظهر في مقاطع الحروف. البرتقالي لون آلي، له رنين المعدن وبرودته، له حرارة الخوف وطعم العرق.

رمادي

.. الموت والحياة، الأنثى والذكر، التعقل والغضب، الهزيمة والانتصار. يجمع الرمادي المتناقضات كلها، يظهر الألوان أو يمحوها، لا يسرق من المأساة عمقها بزهوه، ولا يضفي عليها قتامة بظلاله. الرمادي مكتفٍ بما يحمله من ثقل، مثل عطر من تبغ وخشب صندل، أنيق ومطمئن ومستكين وثائر. في الصور الرمادية بهاء ورصانة، وفيها من الضعف ما يثير الحنين، لصور قديمة وأشخاص ميتين. فلتر الرمادي في الهواتف الحديثة يحوِّل الأحياء في الصور إلى أموات، لكنهم أموات جميلون. ينظر الشخص إلى صورته الميتة ويبتسم، لأنها على الرغم من الوهن فريدة، تنتمي إلى عالم آخر ساحر وبعيد. لا شيء واضح مثل الرمادي، ولا غامض مثله، إذا اكتفيت به اكتملت، وإذا أضفت إليه الألوان زادها قوة، الرمادي لون ناعم وشرس، مثل أفعى تتسلل داخل عروقك، تأمله للحظات طويلة يعتم الرؤية ويتعب العين، والاحتفاظ به داخل القلب يمرضه، ولفظه منه لا يقويه..

متى رأيت اللون الرمادي يصبغ العالم من حولي لأول مرة؟ ربما منذ أن بدأت أعي الحياة، في بعض اللحظات، تتلون الموجودات من حولي بالرمادي، كأنك تشاهد فيلمًا ملونًا ثم تختفي الألوان على الشاشة فجأة، كأنك تعيد تذكر مشهد أو ترجع بالزمن إلى الخلف.

كنت ألعب الكرة في الشارع عندما وقعت على رأسي، جُرح جبيني جرحًا عميقًا وللحظات رأيت كل شيء رماديًّا، اعتقدت أنني أصبت بهلوسة من الخبطة، حكيت لأمي فلم تنتبه لما أقول، كانت ترتجف من منظر جبيني النازف، أخذتني إلى المستشفى، خيَّط الأطباء الجرح بخمس غرز، ورقدت بعدها في سريري أسبوعًا لا أفارقه، لا تدعني أمي أفارقه.

كانت تخاف الموت، في كل مرة يركب فيها أبي العبَّارة ليعود إلينا أو يغادرنا ترتعش، تمسك المصحف وتقرأ سورة يس، تردد «فأغشيناهم فهم لا يبصرون» مرات عدة، تدمع عيناها ويتهدج صوتها، مثلما تفعل وهي تمرر يدها على رأسي وجسمي قبل النوم.

كانت تحاول تضليل الموت، تغشي عينيه وكأنه عدو، ربما نجحت في بعض الأحيان. لكنها فشلت يوم جاءها خبر أبي، وهي تتابع في التلفزيون مشاهد وصول الجثث إلى ميناء سفاجا، ومثلما سيأتيها خبر وجودي في مشرحة زينهم بعد قليل.

في كل مرة تنجح أمي في تضليل الموت عني يصطبغ العالم بالرمادي. وبدا لي أن للإنسان نسخًا كثيرة. في كل مرة تضلل نسخة منه الموت، تموت نسخة أخرى في بُعد آخر. توصلت إلى هذه النظرية يوم أن مررت بجوار زفة عروس بالقرب من شارعنا، سمعت صوت الرصاص يُضرب في الهواء فجفلت، رأيت ومضة الرمادي في لحظة ثم عادت الألوان إلى طبيعتها، جاءتني الفكرة كأنما بزغت فجأة في عقلي، قلت لنفسي مات سعد آخر في بُعد مختلف بهذه الرصاصة، ونجوت أنا هذه المرة.

أخاف الموت، من المضحك أن أعترف بذلك وأنا ميت، من المفترض ألا أشعر الآن بخوف أو حزن، الآن تتساوى المشاعر ولا فارق بين الحياة والموت، ربما عليَّ أن أقول: كنت أخاف الموت، ولا أتوقف عن التفكير فيه. أحيانًا، عندما أعبر الطريق، أو أمر أسفل بناية تحت الإنشاء، أو أقف على سور مرتفع، أو أصعد لضبط طبق الاستقبال على السطح، أو حتى أرقد على ظهري أتأمل الفراغ، تتحول الموجودات من حولي إلى الرمادي. مجرد ومضة ينعكس فيها على كل شيء حولي، فأعرف أن نسخة لي لم تعبر هذه اللحظة، وأنها ماتت أمام سيارة، أو سقط عليها لوح خشبي

من السماء، أو سقطت من علٍ، أو أصيبت بصاعقة كهربائية، أو حتى خرجت روحها في سلام على سريرها.

اكتشفت أن الموت لونه رمادي بعد دفن أبي، منعوني من النزول معه إلى القبر، وقفت منتظرًا مع النساء، أرى خالي، ورجالًا لا أعرفهم، لم يروا أبي من قبل ولا يعرفونه، يحملونه إلى الأسفل بعيدًا عني. يتركون لمسات أخيرة لأياديهم عليه، بينما وقفت أنا بعيدًا، أشعر وكأن الصلة الأخيرة بيننا تنقطع، وكأنه بلمساتهم على جسمه سينسى لمستي، سينساني. في هذه اللحظة، التي غابوا فيها تحت الأرض، رأيت كل شيء من حولي رماديًّا.

يبدو أن نسخة لي ماتت لحظتها، ربما في بعد آخر رميت نفسي مع أبي أسفل الأرض، تسللت إلى قبره وتركتهم يهيلون علينا التراب، رقدت إلى جواره، ووضعت رأسي بين رأسه وكتفه على الرغم من الكفن الأبيض، طوَّقت ذراعي حول صدره ونمت، نمت ولم أستيقظ.

لم أستخدم الرمادي في رسوماتي أو معارضي إلا قليلًا، لكن في يوم وقفت أمام شباك مكسور في واجهة بيت قديم في حي القلعة، ورأيت الرمادي ينعكس ويتكسر ويذوي ويضيء مع تموجات الضوء على الزجاج. امتزج البنفسجي مع الأزرق في دوامة، وفي المنتصف انبثق شعاع رمادي خلاب، بدا وكأنه مغطى بقشور من فضة، لم أعرف لحظتها إن كان مجرد لون ناتج من انعكاسات الألوان مع الضوء، وامتزاجات الزجاج مع التراب والهواء والعناصر، أم أن نسخة أخرى لي تُعلن عن موتها بطريقة فريدة. أو أنها نبوءة لي، بأن موتي الرمادي ربما يُعلن عن نفسه بصخب،

وأن نسختي لن تموت في صمت، بل ستتحول إلى صورة ثابتة تزين لوحة بيضاء ضخمة معلقة في الميدان، تطل على المتجمهرين تحتها كأنها ترعاهم. صورة ستظهر في نشرات الأخبار والبرامج والأغاني والأفلام والمسلسلات والمقالات والروايات والقصص والمؤتمرات. صورة ملونة لي وأنا مبتسم، ستعلقها الكلية في مدخلها، وسيحملها الأطفال في ملصقات يبيعونها في الإشارات، يمكن لصقها على زجاج السيارات، أو الحقائب أو الكراريس أو حيطان غرف الشباب في المدن الجامعية أو على ثلاجات الأسر البسيطة أو أكشاك السجائر أو الميكروباصات والتكاتك.

ماذا سيحدث لي عندما ينزلونني إلى القبر جوار أبي؟ سأرقد بجواره صامتًا، لن نتبادل الحديث ولن يعانقني مرحبًا بي ولن يلقي بإفيه من إفيهاته أو يقول كبرت يا باشمهندس، كبرت وتحوَّلت أنت أيضًا إلى اسم في قائمة، مثل أبيك وعم أبيك وأجيال متتالية من عائلتك ومن أبناء بلدك ومن البشر منذ بداية الخلق إلى اليوم. أسماء محفوظة في سجلات الشهداء وفي محرك بحث جوجل وأرشيف البلد الذي متنا من أجله، أسماء ستُنسى على الرغم من ذلك وتظهر فقط عندما يبحث عنها باحث من أجل رسالة دكتوراه لن يقرأها أحد، أو رواية ساذجة لكاتب يحسب أنه سيغيِّر العالم، كما حسبوا أنفسهم ذات يوم.

ماذا لو كنت أنا الميت الآن، مجرد نسخة لسعد آخر لا يزال حيًّا؟ لسعد آخر مرت الرصاصة بجوار وجهه ولم تخترق عينه؟ ماذا لو كنت مجرد نسخة فرَّت من الموت مرات عديدة في مواقف

سابقة، ماتت فيها بدلًا مني نسخ أخرى في أبعاد أخرى، ثم حان دورها اليوم لتفدي الأصل؟

ربما يكمل سعد الأصلي الآن حياته. ربما في لحظة سقوطي أنا، رأى هو ومضة اللون الرمادي المعتادة، توتر للحظة، ثم اطمأن عندما تلاشت. مشى إلى حيث يقف مصطفى مبتلًا من العرق والماء والدموع، وأراه صورته على الكاميرا وهو يقف أمام الجمل، ثم ضحكا، ونشراها على الفيسبوك، ليعيد الناس نشرها آلاف المرات، وتتحول إلى أيقونة للثورة. رجل يواجه جملًا، وصديقه يلتقط صورته. سيعود سعد الأصلي إلى بيته ليطمئن زوجته، سيأخذ ابنته في حضنه، سيهاتف أمه ليخبرها بأنه بخير، وأنها تبالغ في قلقها، سيتحدث بحماسة، بصوته الكهربائي المبحوح الذي كان أحيانًا يزعج نانا ويثير ضحكات تلاميذه. سيخبرها بأن الثورة حقيقية، وأن تعبهم لن يذهب هباء، ستتغير البلد وسيقيم معرضه المنتظر، وسيتحدث في كل مكان بصوتٍ عالٍ دون خوف. سيقول لطلبته بعد ذلك في المدرج بأن الثورة مضيئة وملونة بألوان زاهية، سيطلب منهم مشروعًا جديدًا، رسم لوحات تسجل الثورة. وسيضع لها شرطًا واحدًا، ألا يكون للرمادي حضور فيها.

أبيض

.. الأبيض لون الثبات. هو اختصار كل الألوان..

صوت بعيد خلخل الصورة، تلاشت أمي وجدتي ومها وليلى ومصطفى وأبي. تلاشى بيتنا وعاد الأزرق، رأيت ياسمين تقف إلى جواري وأصابعها ترتعش، بجوارها وقفت نانا، وجهها جامد، وملابسها مكرمشة وتغطي شعرها بإيشارب، قربت وجهها من وجهي ولمست كف يدي، ثم انتفضت وتراجعت إلى الخلف. بكت ياسمين لكن نانا لم تبكِ، همست بكلمات وابتعدت من أمامي، لحقتُ بها ورأيتها وهي تسير في ممرات المشرحة، تجرُّ ساقيها وتتشبث بالحيطان، اندهشت من حزنها، لم نكن متقاربين إلى هذه الدرجة، غريب أن تكون نانا هي آخر من يرى وجهي، آخر من يودعني وأودعه. أشفقت عليها لأني أيقنت بأنني من هذه اللحظة لن أفارق ذاكرتها، ستراني في كل وقت، وستفكر فيَّ بقية حياتها، ستعيش لسبب يتعلق بي، وربما ستموت أيضًا.

خرجت نانا من البوابة فعدت إلى الغرفة، رأيت ياسمين وهي تلفني بالأبيض، تلف رأسي بشاش أبيض، وكأنها تخفيني، تخفي ابتسامتي المتجمدة، تخفي شعري المبتل، تخفي أنفي وذقني، تخفي عينَيَّ، عين مفتوحة وأخرى مكانها ثقب أحمر.

البياض يغزو روحي، سمعت عن تجارب الاقتراب من الموت، يرى فيها المحتضر نفقًا مضيئًا أبيض، ينتظره على جانبيه أحباؤه وأصدقاؤه، أنا لم أر شيئًا، لكن الأبيض تسلل إلى بصري كأنه بطشات فرشاة تغمر الصورة، أبيض ثلجي هش غمر عينَيَّ بطبقات متتالية، له رائحة المطهرات والأنين، الأبيض لون الأنين.

أخبرنا الأستاذ في أول يوم في الكلية أن الأبيض بداية جديدة، طلب منا رسم دائرة اللون، ليس بها درجة الأبيض، درجات الألوان بجوار بعضها شكلت لوحة جميلة، لكني قصصت الدائرة، خرقتُ مركزها بعصا خشبية وأدرتها حول نفسها، أزيد سرعتها فتتلاشى الألوان، تذوب داخل بعضها، لا يتبقى سوى الأبيض.

حجاب أمي أبيض، ترتديه بسرعة عندما يدق جرس الباب، أو تخرج إلى الشرفة، تدخل إلى الصالة وتجلس أمام التلفزيون ويظل على رأسها، أشده وأخبرها أنني «مَحرَم» فتضحك، تقول نسيته، صار جزءًا منها، أبيض يليق بشكل روحها.

الأبيض لون جدران غرفتي، لم أفكر أبدًا في تغييره، ولون جدران شقتي بعد الزواج، اقترحت مها أن نطلي الصالة بلون على الموضة، أخبرتها أن الموضة هي الأبيض، الآن وبعد ذلك وللأبد، الأبيض بداية جديدة كما قال الأستاذ، وهذه بدايتنا معًا.

الأبيض.. لون فستانها ليلة زفافنا

لون سالوبيت ليلى عندما وضعوها بين ذراعي يوم ولدت

لون حوائط الاستديو عند مصطفى

لون الديكورات في أول معرض

لون البدلة التي جريت بها في المكان

لون قميصي يوم صورت مصطفى وهو يقف أمام الجمل، كنت أضحك بهيستيريا تناسب الموقف، مصطفى يقف أمام جمل، وأنا أقف خلفه أصوره، كيف انتهت بنا الحياة إلى هذا الموقف؟ وكيف انتهيت أيضًا؟

يقول مصطفى الأبيض ليس لونًا، الأبيض انعكاس ما لا لون له. وأنا كنت أفقد لوني شيئًا فشيئًا، وأتحول إلى طيف، يتحول كل شيء من حولي إلى الأبيض. لكني لا زلت قادرًا على الرؤية، رؤية الأبيض لا تعني العمى، رؤيته تعني استعادة البصر.

لون الحب، لون الولادة.. لون الصداقة.. لون الفن.. لون الأفكار.. لون الشجاعة..

الغرفة لا تزال تعج بالحركة، بينما يتراكم الأبيض فوق عينَيَّ، لم أعد أرى سواه، سكنت الأصوات شيئًا فشيئًا، وشعرت بأنني أحمل إلى الخارج، تحررت بمجرد عبور جسمي من بوابة المشرحة، طرت ورأيتهم جميعًا، أمي ومها وخالي ومصطفى، وأناسًا آخرين لا أعرفهم، يحملون النعش البرتقالي الداكن، يتشبثون به وكأنه ملاذهم، كانوا يبكون. أسرعت نحو الميدان المكدس بالناس، في قلبه رأيت اللوحة البيضاء الكبيرة، فوق الرؤوس الكثيرة والصخب الدائر، مطبوع عليها صور متجاورة لشباب وبنات، صورتي في مركز اللوحة، صورة الفيسبوك الأخيرة، أرتدي نظارتي الطبية

وأبتسم، عيناي ضيقتان من الابتسام، نظرت إلى نفسي، رأيت شعري الهائش وأنفي وشفتَيَّ، رأيت القميص والجاكيت وتخيلت بقية جسمي الذي لم أعد أملكه، ثم نظرت إلى الأسفل، رأيت الآلاف على الأرصفة، أمام البنايات وداخل الكعكة الحجرية وفي الحدائق وعلى النواصي، يقفون ويجلسون ويتمشون ويتحدثون ويغنون وينظرون إلى السماء ويتأملون الأرض، كانوا جميعًا على الرغم من ثباتهم يجرون في المكان، أعتقد أنهم لا يزالون يجرون في أماكنهم إلى اليوم.

كل القطط الميتة

(من دفتر يوميات ياسمين السيد)

مذاق الموت

.. ريق يملأ الفم. ملح يملأ القلب، طعم انسحاب البنج من الجسم، تصاعد البرودة إلى الحلق. وَهَن يصيب الركبتين. الموت مثل وجبة فاسدة يأكلها جوعان. مثل طعام الأطفال المهروس في وعاء بلاستيكي. مثل غلي أرجل الدجاج في حلة صدئة. للموت طعم الصدأ، واللبن الرائب والأعشاب المغلية. يقف دائمًا على طرف اللسان ثم يتلاشى. قبلة مبللة، لحم غير ناضج، بقايا منديل ملتصق على الشفتين، عجين ينقصه السكر. طعم ناقص يطاردك، لن يكتمل إلا بعد فوات الأوان..

الجمعة ٢-٢-٢٠١٨

كلما مشيت في شارع رأيت قطًّا ميتًا..

نظرت لي سارة وتجمدت للحظة، كانت الجملة الأولى التي أنطقها منذ شهور، لا أعرف لماذا تذكرت القط الميت على الرصيف المقابل للبيت. ظَلَّت جُثَّته ملقاة على الرصيف أيامًا. كل صباح أمر إلى جواره، وأرى جسده يتحوَّل، يتلاشى شيئًا فشيئًا ويندمج في طبقات الأرض. كل صباح أحاول ألا أنظر وأنظر. كل صباح تتلاشى عظامي، وأشعر بوهن.

قالت سارة: ربما عليكِ أن تكتبي نصًّا. أحضرت لي دفترًا مقسَّمًا بتواريخ الأيام، وقالت إنه ملكي، قالت إنني اعتدت على تدوين يومياتي ووصفات الطبخ التي أحبها، ومن الجميل أن أعود إلى ذلك.

أمسكت الدفتر وتصفحته، لم يكن مألوفًا، لا الشكل ولا الخط ولا طريقة الكتابة، أخبرتها أنه ممتلئ، فوضعت اللاب توب أمامي، طلبت مني أن أجرب الكتابة عليه ففشلت. بدا لي الضغط

على الأزرار قاسيًا جدًّا، ضغطة بحرف، وضغطات بكلمة. كل كلمة يمكن أن تضيف ثقلًا ما إلى جسمي، وأنا أريد أن أطير.

أحضرت دفترًا آخر فارغًا وقلمَ رصاص، أمسكت بالقلم وتذكرت كيفية استخدامه، سألتها ماذا أكتب؟ قالت اكتبي أيَّ شيء.. اكتبي عن القطط الميتة في حياتك.

أمسكت بالقلم وكتبت اسمي.. ياسمين فقط دون ألقاب.. كتبت اسم سعد.. كدت أكتب اسم يحيى لكني توقفت.. شعرت بسخف الفكرة، تريد سارة أن تشغلني بأي شيء لأظل هنا ولا أتلاشى.

المشكلة ليست لدى سارة، هي معذورة لأنها لا تزال قادرة على رؤيتي والتحدث معي، وأنا مخطئة لأنني لا أزال أرد عليها، أصافحها وأسمح لها أن تلمسني وأن تحضر لي كوب النسكافيه على الرغم من أنني لا أمسه. اختفى طعمه المكثف الذي كان يغلف لساني، ولم أعد أشعر بالحنين لسريانه في الحلق أو وصوله الدافئ إلى المعدة. أفضله ثقيلًا نصف ماء ونصف حليب ونصف حرارة، الحليب مخملي، يذوب مع النسكافيه فيحدث المزج الذي أحبه، يكتسب قوامًا وكأنه تكثيف لحياة. يزيد النسكافيه من خفقان قلبي ويضخ الدماء في جسمي الميت، آخر شيء أريده، لذلك لا أمسه. ربما عليَّ أن أطلب ينسونًا أو لافندر، طعمهما بالنسبة لي واحد، مياه مغلية بطعم الأرض. تراب حلو، منه وإليه نعود، التراب هو أقرب تجسد لبقايا الموت على الأرض، قررت أن أطلب ينسونًا في الجلسة القادمة.

تنظر لي سارة وأنا أصف الينسون دون انفعال، لكني أعرف أنها مندهشة، أنها تتظاهر بتصديقي لكنها لا تصدقني. كنت غير قادرة على شرح الحقيقة لها، ربما لأنني أيضًا لا أفهمها. ربما ما زلتُ هنا، لأن ثمَّة أمورًا غير منتهية في حياتي، ربما أنا هنا لأنني ارتكبت جرائم كبيرة أو حتى ذنوبًا صغيرة، يجب التكفير عنها قبل أن أتلاشى.

تطلب سارة أن أكتب ما آكله يوميًّا، لكنها لا تستوعب أنني لا أحتاج إلى تناول الطعام، وإن أجبروني فأنا لا أشعر بطعمه، عجين سائل أو صلب أو بين بين، يدخل فمي رغمًا عني، لا يسمن ولا يغني لأني أصلًا لست بجائعة.

أخبرتها أنني سأكتب لأنني لا أريد إغضابها، هي الوحيدة التي لا تستخف بي، حتى إنها تصمم على الوقوف بجواري قبل إعطائي الحقنة اليومية على الرغم من أنني أخبرتها بأنني لا أشعر بألم. تقف إلى جواري وتمسك يدي وتنظر في عينَيَّ ثم أغيب أنا قليلًا، في كل مرة أفكر أنني أنتقل شيئًا فشيئًا إلى الموت. لكني أعود دون أن أعرف السبب. في كل مرة يعطونني الحقنة أدعو الله أن أغيب، أن أظل في هذا الظلام المريح لكني أعود. الله لا يستجيب لي، ما يؤكد نظريتي عن وجود أمور غير منتهية يجب أن أفعلها أولًا.

الخميس ٥-٤-٢٠١٨

تصر سارة على زيارتي كل يوم وتصمم أن أبتلع أمامها حبات الدواء. وأن أفتح فمي لتتأكد أنني ابتلعتها. المشكلة أنني لست

مريضة، ولا أعرف ما جدوى هذه الحبوب البيضاء. قالت إنها ليست دواء، هي حبوب ستجعلني قادرة على الانتقال لكن في الوقت المناسب، لذلك قبلت بتناولها. قالت إنها بتركيبة خاصة توقف القلب المصر على ضخ الدماء بشرط أن أكون ميتة فعلًا، قالت إنها ستتأكد حينها من صدقي وسيتركونني وشأني. ابتلعتها لأنها على كل الأحوال لن تؤثر، لا شيء يؤثر ولا أملك شيئًا لأخاف عليه.

اكتشفت أن التخلي عن كل شيء يمنع الخوف من التسلل إلى القلب. هذه الخفة هي أجمل ما في الموت. تخيل ألا تتشبث بشيء مما يشدك إلى الأرض. أن تكون خفيفًا كريشة، أو ككيس بلاستيكي يطير في الهواء بعيدًا، كيس بلا أهمية تُغري أحدًا بالتقاطه.. أين رأيت هذا المشهد؟ الكيس الذي يطير.. ربما في فيلم أجنبي.. أو ربما كان يحيى من شاهده وحكى لي..

لا حب ولا كره ولا طمع ولا غيرة ولا لهفة ولا اشتياق في الموت. اللا شعور هو أجمل شعور، مثل طعم السبانخ مع البيض، مجرد إضافة بلا إضافة، لون أخضر يكسر شحوب البيض المخفوق، طعمها مثل الرغاوي، لكني كنت أصمم على اختيار البيض بالسبانخ على الفطور، وكأنني أعاقب نفسي باللا طعم، أو أؤهل نفسي على التوقف عن التذوق.

طلبت مني سارة أن أتذكر متى حدث لي ذلك بالضبط، متى شعرت أنني لا أريد شيئًا، متى توقفت عن التذوق، ومتى تحول الطعام إلى عجين في فمي، وتحولت الحياة إلى صورة ثابتة

مثل لوحة معلقة على حائط.. تظهر أحيانًا أمام عينَيَّ.. لوحة رمادية بها ظل أحمر، أو لوحة حمراء بها ظل رمادي.. لا أذكر، كل شيء مغلف بطبقة هلامية، أحيانًا أشعر أنني سقطت في وعاء من الهلام الشفاف، هلام بارد وبلا طعم. كل المشاهد تتبدد مثل بقايا حلم أصر على التمسك به وأنا أستيقظ لكنه يراوغني ويختفي.. تزعجني محاولة تذكره طوال اليوم..

ربما حدث ذلك يوم مسحت الدماء عن وجه سعد، وجاءت نانا ولمسته ثم جرت هاربة إلى الخارج، دُخت للحظات، اخترقت رائحة الفورمالين أنفي وحرقت حلقي، تعثرت في الجثث على الأرض، وعلى الكراتين، وعلى الأرفف المؤقتة التي وضعها العمال في كل مكان، خارج الغرفة رأيت طبيبًا يتناول ساندوتشًا، كان جائعًا ومرهقًا وحزينًا، يأكل وكأنه لا يأكل، يأكل وكأنه يحشو جسمه بأي شيء ليحافظ على ثباته على الأرض، حتى لا يفقد نفسه أو يتحلل واقفًا. اكتشفت أنني أيضًا جائعة وأنني لم آكل شيئًا منذ الصباح.. عدت إلى غرفة الطبيبات وأخرجت حقيبتي من الخزانة، الساندوتش فيها بارد ومكرمش مثل جلد رضيع ميت، تناولت أول لقمة وتقيأت على الأرض، ثم انتهى كل شيء.

سألتني إن كنت أوافق على أن تقرأ يومياتي فرفضت، أخبرتها أن هذا ليس من حقها، ولكني سأوصيها بالاحتفاظ بها بعد التلاشي، يمكنها أن تقرأها في ذلك الوقت، أو تسلمها ليحيى، على الرغم من أنه توقف عن زيارتي. أنا طلبت منه ذلك، أخبرته أنني أشك فيه،

وأنه ربما يكون سببًا في وضعي العالق، وأن عليه أن يبتعد عني حتى أتمكن من الانتقال بسلام. لكنه الوحيد الذي سيحتفظ بها، أبي سيلقيها في القمامة، وأمي ستدعو عليَّ.. تبرآ مني منذ سنين بعدما خلعت الحجاب وكتبت على الفيسبوك أن الموت راحة أبدية لأن الإنسان يتلاشى وكأنه لم يوجد.. قالا إنني كافرة، طلبا أن أحذف البوست وأن أرتدي الحجاب وأن أصلي.. اكتفيت بحظرهما على الفيسبوك بينما حظراني هما من الواقع.

الحبوب توقفت قليلًا في حلقي، أعتقد أن هذا بسبب توقف أعضائي عن عملياتها الحيوية مثل الابتلاع والهضم. مؤشر جيد جدًّا يدل على قرب الخلاص.

السبت ٧-٤-٢٠١٨

كل نفس ذائقة الموت..

كل نفس ذائقة الموت..

أريد تذكر بقية الآية ولا أستطيع.. كل نفس ذائقة الموت بما كسبت..

يموت كل الناس ببساطة ما عداي، لماذا لُعنت بهذا الشكل؟ ربما كان أبواي على حق؟ لكني لست كافرة، كل المشكلة أنني لا أريد الذهاب إلى أي مكان آخر بعد الموت، أليس هذا تعريف الجنة؟ أن يفعل كل شخص ما يريد؟ أنا أريد الظلام، أريد التلاشي، لا أريد الخلود أو حتى إعادة العيش في حياة جديدة..

لماذا تموت القطط ببساطة وأظل أنا هنا؟ كلما مشيت في شارع رأيت قطًا ميتًا.. نصحتني صديقة ونحن صغار أن أبصق على الأرض كلما رأيت حيوانًا ميتًا، قطة أو فأرًا أو كلبًا أو عصفورًا. سألتها عن السبب فسكتت لحظات، لم تكن تعرف، لكنها ألَّفت سببًا، كان خيالها واسعًا وتحب توزيع النصائح على البنات. قالت حتى لا تغطي وجهي البثرات الحمراء. خفت من البثرات الحمراء وبصقت على الأرض بجوار القط الميت. كلما رأيت قطًا ميتًا بعد ذلك بصقت، حتى كبرت وتعلمت ألا أبصق في الشارع، لكن ريقي السائل ظل يتجمع في مقدمة فمي كلما رأيت الموت. كنت أشمئز منه، من الموت ومن شكل الجثث ومن رائحتها ومن تحللها شيئًا فشيئًا، من التصاقها بالأرض حتى تصبح جزءًا منها. الأرض هي مجرد طبقات من الموت.

لكني في كلية الطب تعلمت تقبل الموت، توقفت عن الخوف منه بعدما تحول إلى مجرد ملزمة أذاكرها قبل الامتحان، أو جثة تشبه تمثالًا سوَّده الفورمالين، نمزقه مثل دجاجة على مائدة الغداء. عندما رآني الأستاذ آكل ساندوتشًا بجوار جثة أخبرني أنني سأصبح طبيبة شرعية.. أو ربما لم يقل ذلك.. ربما قرأت في قصة أن من يأكل بجوار جثة يصبح طبيبًا شرعيًّا.. وأنا أحب تقليد ما أقرأه في القصص.

حاولت الممرضة إجباري على تناول الطعام، أرز وبامية ولحم، لا بد أن سارة أخبرتها بأنني أحب البامية، حاولت تكوير بعض الأرز ودسه في فمي فصرخت، كانت جدتي تضع الإوزة أسفل فخذها

وتدس الحبوب في حلقها، تحشوها بالحب المبلل، والإوزة مستسلمة لها، تحشوها مثل دمية طرية، ثم تطلقها إلى العشة، تنفض الإوزة ريشها وتمشي بتثاقل، مشية كائن ميت. يقول الإنجليز على المحتضرين أو المحكوم عليهم بالإعدام أو المحبطين أو اللا مبالين: رجل ميت يمشي. إوزة ميتة تمشي، لأنها بعد أيام ستُذبح وتُؤكل، تعرف أنها ستُذبح وتُؤكل فلا تكلف نفسها عبء التقاط الحب بمنقارها، تستسلم للحشو والإحساس الزائف بالشبع.

أنا أريد أن أموت خفيفة، مثل طيف عابر أو فراشة، فراشة بيضاء تحلق قليلًا على العشب في حديقة ثم تختفي في ضوء الشمس. فكرت أن أقرأ القرآن، لأنه يطرد الأرواح الشريرة، أنا روحي طيبة لكن ربما يتمكن من طردها أيضًا. أو ربما روحي شريرة، نانا أخبرتني ذات مرة أنني شريرة وألقت بكوب ماء في وجهي، لكني لا أذكر السبب الآن. قلت للممرضة أريد مصحفًا فطلبت مني أن أستحم، جذبتني إلى الحمَّام وأوقفتني أسفل الدُّش، صرخت لأن جلدي لم يعد يتحمل الماء، ربما بسبب الفورمالين الذي يغطيه، ممرضة غبية ولا تصدقني، تصمم على أن أستحم، تقول إن جلدي تقرح على الرغم من أنني متأكدة بأنه محفوظ جيدًا بالفورمالين، صرخت وناديت سارة لكنها لم تحضر، دفعتها وجريت، لكن الممرضات أمسكن بي، ودفعنني إلى السرير، أعطتني الممرضة حقنة فنهجت، تسللت البرودة إلى رأسي وأطراف قدمَيَّ واعتقدت أن هذه هي النهاية، لكني مثل كل مرة عدت، فتحت عينَي ورأيت السقف المظلم فوقي، والجدران تحيط بي، لم أعرف إن كنا في النهار أو الليل، تمتمت: سأخبر سارة بكل شيء.. سأخبر الله بكل شيء..

أين سمعت هذه الجملة؟ أو أنني من ألَّفها؟ تصلح عنوان قصيدة، سأسجلها هنا من أجل يحيى.. ربما يكتبها ذات يوم.

الأحد ٨-٤-٢٠١٨

أخبرت سارة بما حدث فعنفت الممرضة أمامي، طلبت منها أن تعتذر لي، اعتذرت بسرعة وغادرت الغرفة، كنت نائمة في الفراش ملتفة بالملاءة وكأنها كفن، فكرت لو أنني حاكيت شكل الموت لجاء وأخذني. اعتذرت لي سارة أيضًا، ووقفت إلى جواري وأنا أبتلع الأقراص البيضاء. سألتني عما كتبته فأخبرتها. حكيت لها أيضًا الحلم الذي حلمته ليلة أمس. سألتني هل يحلم الميتون فلم أعرف الإجابة، لكني أعتقد أننا حتمًا نحلم. الموت في مجمله مثل حلم، عند الاختفاء نتحول إلى حلم في ذاكرة الأحياء، شخص كان هنا وتلاشى، لا يمكن لمسه أو الإمساك به، مجرد صوت في رسالة صوتية أو صورة في علبة خضراء محفوظة في الدولاب، كل الأطياف الباقية لمن رحلوا هي مجرد انعكاسات للموت والحلم.

أعجبت سارة بتفسيري، قالت إنني شاعرة. تخلط دائمًا بين النصوص التي كنت أكتبها وبين الشعر منذ كنا معًا في كلية الطب. لكني لم أهتم بتصحيح فكرتها. طلبت مني ألا أنسى هذه الفكرة وأدونها. فتشجعت وحكيت لها عن حلمي بالممثل أدريان برودي، يقف على باب الغرفة وينتظرني، يضحك بطريقته التي تضيق عينًا واحدة بينما ينظر بالأخرى للعالم باندهاش أو سخرية أو شفقة.

اقتربت منه، كلما مددت يدي لألمسه ابتعد، واصلت الاقتراب وواصل الابتعاد.

أخبرتها أنه ملاك الموت الخاص بي، كل شخص سيرى الموت على هيئة شخص يعرفه أو ربما لا يعرفه، وأنا رأيت أدريان برودي واقفًا على رأس جدي المحتضر.. يرتدي قميصًا وبنطلونًا، يقف واضعًا يديه في جيبيه، بجلد رقيق وشفتين رفيعتين.. عيناه حزينتان، أو مثقلتان ربما بكل ما رأى. نظرت له ونظر لي وابتسم، وعندما نظرت إلى جدي وجدته ميتًا بعينين مفتوحتين.. قست نبضه وراقبت تنفسه، لا يزال يختلج اختلاجات ما بعد الموت، ترتعش شفته السفلى، أو يختلج جفنه.. عندما غطيت وجهه صرخت أمي أنه لا يزال حيًّا. لكنه كان ميتًا جدًّا.. احتضنتها وجذبتها خارج الغرفة، بكوا جميعًا أما أنا فلم أبكِ، غطيت جسمه بملاءة وسلطت عليه المروحة، كنا في الصيف والحر شديد، لم أرغب أن تتصاعد رائحة على الرغم من أن هذا لن يحدث من ليلة واحدة يقضيها نائمًا على سريره، ليلة إضافية لن تفرق كثيرًا عن ستة أشهر قضاها يحتضر على نفس السرير. في هذه اللحظة ندمت على كل حبوب المنوم التي دسستها في فمه في الليالي السابقة. كان عاجزًا عن النوم، لا يكف عن مناداة أي أحد في الصالة أو الغرف المجاورة، وكنت أخاف الدخول إلى غرفته.. عملت في مشرحة زينهم لسنوات ثم عجزت عن دخول غرفة جدي المحتضر.. أدس له الحبة في فمه بسرعة، أسقيه رشفة عصير من العلبة وأتركه للنوم أو الموت.. أخرج من غرفته واهنة وأغلق عليَّ باب غرفتي. في الصباح أواصل عملي، أدون أسماء الموتى وأشارك في تشريحهم وأكتب بياناتهم

وأسباب الوفاة، أزن القلب والأمعاء، وأغلق العيون المتصلبة وأدفع درج الثلاجة وأغطي الوجوه بالأكفان، وكأنهم مجرد دُمى، عجين صلصال. وكيف يفقد الشخص هويته بالوحدة بين غرباء؟ كل الأجساد على الطاولة المعدنية سواء.. كلها لشخص واحد متكرر يزورني أحيانًا في الأحلام. حتى نام عليها سعد ولم يعد أحد يزورني في الحلم غيره، حتى خللت أصابعي في شعره، ومسحت الدماء عن عينيه، وكتبت تقريرًا عن أسباب موته، ورأيت نظرة نانا وهي تجري هاربة، وتناولت الساندوتش البارد من الحقيبة وتقيأت على أرض الغرفة.

مذاق الدفء

.. طبيخ الجدات، ذرة مشوية على البحر، حمص الشام على الكورنيش، تفاح بالكراميل في الشارع الجانبي، شيكولاتة منسية في قعر حقيبة، قبلة مختلسة في الظلام. أول وجبة في البيت الجديد، وآخر وجبة في البيت القديم. كل الأكلات تدفئك، تملأ الفراغ داخلك، لكن رشفة الشاي الممزوجة بدخان سيجارة تقتسمينها معه يحرق قلبك ويعيد إليك للحظة بعض الإيمان. الدفء الذي تسعين إليه لا يأتي، وكل الأكلات التي تتذكرينها، مثل خبيز تتصاعد رائحته من فرن البيت، لا تكفيك. تريدين شيئًا أعمق، مثل تفاحة محرمة تطردك من الجنة وتدفعك إلى أرض جديدة، أرض باردة ومحطمة لكنها تحاول أن تقاوم، أن تستمر، وأن تمنحك هوية جديدة، واسمًا يناديك به شخص واحد فتشعرين لحظتها بالاكتمال..

الثلاثاء ١-٥-٢٠١٨

فورمالين..

غاز مسيل للدموع..

دماء..

ساندوتش بارد..

بيض مخفوق..

طماطم حامضة..

صديد..

قيء..

طعم انسحاب البنج من حلقي..

تزورني النكهات في أحلامي، تتناوب على حُليمات تذوقي وتحبطني، كل الأكلات التي أحببتها تلاشت ولم يتبقَّ سوى المرارة والعفن. لماذا أستعيد نكهات الحزن؟ عصرت ذهني وحاولت تذكر

أول أكلة صنعتها بنفسي، كانت محاكاة لفطيرة التفاح في مجلات الأطفال، تصنعها بطة طيبة في مطبخها الملون، من العجين والسكر والتفاح والقرفة، وتضعها لتبرد على حافة الشباك.

استغللت انشغال أبويَّ مع العمال في الصالة، كانوا يعيدون طلاء المنزل بعد عودتهما النهائية من السعودية، أخرجت رغيفًا من الفريزر وسخنته في الفرن، ثم عجنته بالماء، حتى تحول إلى كرة لزجة بلا لون، خلطت العجين ببعض القرفة ثم فردته وقليته في الزبد، ثم غطيته بالعسل الأسود، بشرت فوقه تفاحة. رائحته جميلة، ساخنة ومنكهة بالتفاح.. أحضرت شوكة وسكينًا وذقت أول لقمة، تسلل العسل الأسود إلى أسفل لساني، وغطى العجين الساخن سقف حلقي، والتصق التفاح بين أسناني. كان لرغيف التفاح والعسل الأسود مع رائحة الطلاء والشاي في الصالة طعم طفولتي، كلما شممت رائحة طلاء جعت، وكلما شممت رائحة القرفة، تقلصت معدتي بحنين لشيء ما لا أذكره. ربما كل هذه اللحظات التي احتفظت فيها بدهشتي، وكل الأشياء التي فعلتها لأفرح أو لأرضي فضولي. اليوم لا أفرح، ولا أبذل مجهودًا لأفرح، ولا أملك فضولًا للتجربة، يكتبون على الفيسبوك جملة «الحياة تجربة»، وينسون أن يذكروا بأنها جميلة وعميقة جدًّا وبلا معنى. لا تجربة حقيقية سوى في الموت، لأنه الشيء الوحيد الذي نجهله.

عندما اكتشفت أمي فعلتي لم تنهرني، طلبت مني غسل الصحون التي وسختها، وإكمال الواجبات المدرسية. كانت تتركني لأجرب، تقول إنني موهوبة في المطبخ ما يجعلني عروسًا ممتازة. خزنت

أمي أسفل السرير أطقم المطبخ لجهازي منذ الصغر.. يتمنون تزويجي والخلاص من الهم. لم أتمنَّ سوى العيش وحدي في مطبخ كبير لأجرب كل الوصفات في المجلات، صنع فطيرة تفاح حقيقية ووضعها على حافة شباك يطل على حديقة، لكنني بدلًا من ذلك دخلت كلية الطب.. وعملت في مشرحة زينهم.. وشرَّحت الموتى وأنا أتناول ساندوتشًا.. وكتبت تقارير زائفة وتوقفت عن الشعور بالذنب.

الأربعاء ٦-٦-٢٠١٨

بدأت أشك في سارة، الأقراص البيضاء والحقن التي تغيبني عن العالم لا يقرباني من الموت، أشعر بأنني أبتعد عنه. اليوم استيقظت وأنا أسمع دقات قلبي وكأنها في أذنَيَّ، حتى إنني شعرت بالجوع، تناولت عصير برتقال وبيضًا مسلوقًا، لم يكن لهما طعم لكنهما سدَّا جوعي.

استعدت أيضًا طعم الشاي، صعد إلى حلقي فجأة وكأنني سأتقيؤه. ثقيلًا مثل شاي مقاهي وسط البلد. نفس الشاي الذي شربته عندما قابلت نانا لأول مرة. كنت معجبة بها، كتاباتها على المدونة جريئة، حتى إنها تضع صورًا عارية ولوحات فنية غريبة دون خجل. عرفت أنها في كلية الفنون الجميلة، حتى كليتها مثيرة، أما أنا فأدرس في طب الأزهر.. حاولت أن أظهر بمظهر مختلف يوم لقائنا، عقدت الحجاب إلى الخلف وارتديت كل الإكسسوارات التي وجدتها في درج التسريحة، سألتني إن كنت أدخن فأجبت

بنعم على الرغم من أنني لا أفعل.. كانت جميلة ومرحة وشعرت أننا سنكون أصدقاء. في هذا اليوم أخرجت من حقيبتها ساندوتش دجاج بانيه، منحتني نصفه وأكلنا معًا. أخبرتها عن سري لصنع ساندوتشات البانيه، نقع الخبز في شوربة الدجاج، ثم وضع طبقة خفيفة من المايونيز. أعجبتها الحيلة وقالت إنها ستجربها. عرفتني نانا على يحيى، كنا نلتقي كل خميس، يكتب يحيى الشعر بينما نكتب أنا ونانا النصوص، نصوصًا درامية ساذجة.. أما شِعره فكان ناضجًا، يحمل شيئًا ما، همًّا أو تعاسة. أشفقت عليه.. كان وحيدًا، وعرفت أنه يتيم.. هجره أبوه صغيرًا ثم ماتت أمه، عاش وحيدًا من سن السادسة عشرة.

نانا كانت تحب مصطفى، رأيته مرات قليلة معها في مقهى التكعيبة أو مقهى زهرة البستان، وحضرت معهما عرضًا لسعد البيومي، يقف فيه داخل كرة شفافة ويركض في المكان.. لم أفهم شيئًا، ضحكت فلكزتني نانا، قالت إنني جاهلة، وقلت إنهم مجموعة من المتفذلكين.. في هذا اليوم تمشينا بعد المعرض، سارت نانا مع مصطفى أمامي وسرت مع سعد خلفهما، كان هادئًا وخفيف الظل، لا يتوقف عن النظر إلى السماء كأنه يرى شيئًا لا نراه.. جلسنا في مطعم القزاز. كان الدفء غامرًا، والصوت عاليًا، الرائحة جوعتنا، أكلنا كثيرًا جدًّا، في هذا المكان الضيق تحولت الساندوتشات إلى وجبة مشبعة، وشوربة العدس إلى حساء يسري في الشرايين بدلًا من الدماء، يتوجه الحساء فورًا إلى المخ، وينبه مراكز السعادة والحماس فيدفئ الجسم. أخبرتهم أنني سأعمل على رسالة ماجستير توضح امتزاج شوربة عدس القزاز بالدم، ضحك سعد

كثيرًا، كان مبتهجًا بمعرضه، حاول شرح الفكرة لي فأخبرته أنني أكره الركض في المكان منذ أيام حصص الألعاب في المدرسة، احمر وجهه وقال «اسمها الجري في المكان وليس الركض.. الركض لا يحدث في المكان». ضحكت على انفعاله من أجل كلمة تعمدت نطقها بالفصحى لأثبت لهم أنني أيضًا مثقفة.

عندما رقد على الطاولة المعدنية أمامي كان مبتسمًا، تصلبت بسمته على شفتيه، وبقيت عين واحدة مفتوحة، كتبت في التقرير الأولي: مات بالرصاص الحي، اخترقت الرصاصة المخ. أردت أن أكتب: ربما عبرت مراكز الحماس والسعادة، ربما حفزتها لجزء من الثانية فابتسم قبل أن يخمد. كان ظهره مزرقًا، وجسمه باردًا، أبرد جسم في هذا اليوم. غسلت الدماء بماء دافئ.. ثم جاءت نانا ولمسته وشهقت وجرت إلى الخارج.. وذهبت أنا إلى غرفة الطبيبات.. ثم أمسكتُ بالساندوتش.. ثم قضمته وتقيأتُ.. ثم فقدتُ شيئًا ما لا أعرفه.. شيئًا يشبه الكرة الصغيرة التي سحبتها الساحرة الشريرة من حلق حورية البحر فسكتت عن الكلام. فقدتُ يومها لساني، صوتي وحليمات تذوقي وقدرتي على البلع، كنت أفقد روحي شيئًا فشيئًا، ووددتُ لو أرقد إلى جوار سعد على الطاولة، أو أتسلل إلى أحد أدراج الثلاجات وأختفي داخلها إلى الأبد.

مذاق الذكرى

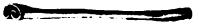

.. قطرة مطر تتسلل إلى جانب الفم، جيل الصبار الذي تغطين به وجهك ليصبح أنعم. كل الأكلات الجماعية، البيض المسلوق في شم النسيم، كعك العيد، تورتة عيد الميلاد، أول مرة سوشي في مطعم فخم، ارتباك الإمساك بالعصوين والضحكات الخجلى. ساندوتش الجبن بالشيبسي في الشارع، فصوص اليوسفي المهترئة من ضغط كيس بلاستيكي، علكة تترك لونًا على اللسان والشفتين، ساندوتشات المربى في المدرسة، صحن الفول في الصباح. الذكرى خادعة بآلاف النكهات، يسهل إحلال طعم محل آخر، مثلما يسهل إحلال حب مكان آخر، وتغيير حب بكره، وكره بشوق، وشوق ببغض، وبغض بشفقة. طعم لا يمكن الإمساك به، لأنكِ في نهاية العمر، وحدكِ في مواجهة الأشباح والوحدة، ستكتشفين أنكِ نسيتِ كل شيء..

الخميس ١٣-٩-٢٠١٨

صاحت فيَّ نانا بأنني مغرضة.. وألقت بكوب الماء في وجهي..

قالت إنني صَمَتُّ عندما تغيرت جميع التقارير، وكُتب في تقرير سعد أنه مات بكسر في الجمجمة! جثة بعين واحدة وكثير من الدماء ماتت بكسر في الجمجمة؟ أخبرتها أنني كتبت الحقيقة، وأنني مجرد طبيبة صغيرة غير قادرة على فعل شيء، أن المدير يؤشر على كل التقارير، ربما هو من غيَّر تقرير وفاة سعد. حاول يحيى الدفاع عني لكنها تركتنا ومشت، بكيتُ كثيرًا جدًّا، بكيتُ وعدتُ إلى البيت وحيدة، لا يزال يحيى منغمسًا في الوقفات الاحتجاجية والمسيرات، مصطفى سافر ونانا عادت إلى طنطا وسعد مات.. بدت كل الأيام التي عشناها معًا مجرد هباء. آخر أيام لا تزال تحمل طعمًا لذكرى كانت في الميدان بعد موقعة الجمل، عندما هدأ كل شيء، حتى المستشفى الميداني لم يعد يحتاج إلى خدماتي، كنا - على الرغم من الموت - سعداء كأننا في معسكر، كأن جميع من ماتوا لا يزالون هنا، حتى نانا كانت تتحدث عن سعد وكأنه حي، تشير إلى صورته المعلقة على الأعمدة وتضحك. الجو بارد جدًّا لكننا

لم نتوقف عن الغناء، الزحام والجولات والهتافات والحماس، كلها انتهت بعد التنحي والاحتفالات وتنظيف الشوارع وطلاء الأرصفة، انسحب الجميع وفرغ الميدان وبقيت نانا.. وعندما عدت إليها صاحت فيَّ ورمت كوب الماء في وجهي ومشت.

لم أرها لشهور طويلة، حتى أصلح يحيى بيننا، جاءت ترتدي يونيفورم رماديًّا، وعرفت أنها عادت للعمل في القاهرة، لم تذكر مصطفى فلم أذكره، تدخن كثيرًا حتى شحب وجهها، وتأكل بنهم لا يناسب نحولها. تقترح علينا كل يوم أن نذهب لنأكل، أي طعام، أي مطعم، المهم ألا تتوقف عن الأكل. لكني كنت قد توقفت عن تناول اللحوم. أخبرتها أنني الآن نباتية فشخرت شخرة قصيرة ثم دمعت عيناها من الضحك.. قالت هذه هي آخرة الثورة، نتحول إلى نباتيين ومحبطين وملبوسين بالعفاريت أيضًا.

لم تتوقف عن السخرية، حتى عندما كنا نتجمع مع الأصدقاء الصحفيين والكتاب والشعراء، أقرأ نصوصًا أو يقرأ يحيى الشعر فتبتسم بجانب فمها وتسخر منا، لم تقبل أن تقرأ نصًّا أو تدلي برأيها فيما نقول. ذات يوم، قرأتُ نصًّا عن سعد، فانتفضت نانا من مكانها، جذبت دفتري من يدي ومزقت الورقة، قالت: اخرسي خالص، لا تذكري اسمه ثانية على لسانك.

كانت تحتقرني، خفت منها، تنظر إليَّ نظرات مجنونة، حاول يحيى تهدئتها فدفعته في صدره ومشت، لحق بها وتركاني على المائدة مع بقية الشباب، بوجه محمر ودفتر ممزق.

تعلمت ألا آتي على سيرته مرة أخرى، على الرغم من أنني من استقبل أهله أمام المشرحة، حضرت عزاءه ولم يحضر أحد منهم. طبعت صورته على الدبابيس المدورة، ووزعتها في كل مكان. تتعامل وكأنه ملكها، لأنها صديقة صديقه، وأنا التي غسلت جسمه بالماء الدافئ.. وتوقفت عن تناول الطعام.. وحلمت به عشرات المرات.. لا شيء.

السبت ٢-٢-٢٠١٩

قلت لسارة إنني أرفض تناول الحبوب أو الحقن، وطلبت منها أن أعود إلى البيت، أو تحضر لي يحيى، أريد أن أموت على السرير الذي نمت عليه سنوات، أسفل اللوحة التي أهدتني إياها نانا بعد فرش الشقة، لوحة لتمثال رمادي يقف منتصبًا وسط رياح حمراء. لوحة شريرة لكنها جميلة، الشر دائمًا ما يكون جميلًا، ونانا كانت شريرة وجميلة وطيبة ومسكينة، لم أكرهها قط، حتى عندما مزقت دفتري وألقت بالماء في وجهي. أريد أن أموت أسفل هذه اللوحة.. ربما ويحيى جالس إلى جواري.. أريد أن أموت مثل جدي على السرير، وأن أنتظر أدريان برودي بهدوء، سأتأبط ذراعه وأسير معه، سيكون يومًا مثاليًا لي، حين أتلاشى في الظلام كما تلاشت جدتي ذات يوم أمامي.. كانت تتحدث وتضحك ثم أرجعت رأسها للخلف وغابت.. اختفت في لحظة، تلاشت وهي جالسة على مقعد.. حملوها من أمامي، ابتلعتها سيارة الإسعاف وذهبت.. هكذا ببساطة رحلت المرأة التي كنت أنام بجوارها طوال أعوامي

العشرة، التي كنت أراقب تنفسها كل ليلة خوفًا من أن تموت إلى جواري، كنت أدعو الله أن يحميها من الأمراض التي أسمع عنها في التلفزيون، السرطان والإيدز والالتهاب الرئوي والسكتات القلبية، لكن الموت راوغني وأحدث نزيفًا في مخها، لم يستمر طويلًا لأنها ماتت بعد ساعات. كلما تذكرت جدتي تصاعد إلى حلقي طعم مهلبية اليوسفي، كانت تعدها في أعياد الميلاد، تفرغ اليوسفي من فتحة في القشرة وتحتفظ بها مكورة ومفرغة.. تعصر اليوسفي بيديها.. تقطره بأصابعها فتمتص نكهته صوتها الحاد وابتسامتها وأغاني إيهاب توفيق التي تصر على تشغيلها في الكاسيت.. تضيف النشا وماء الورد والفانيليا وتقلب وهي تدندن معه..

«وعدى الليل.. على مهله.. على مهله..»

كنت أضحك من غنائها فتبتسم، تضيِّق عينيها ويحمر وجهها.. تصب المهلبية في القشور المجوفة، ترصها على الصينية وتضعها على طرف المائدة. ينشغل الجميع بالتورتة والجاتوه، وأنا بالمهلبية، أرفع الغطاء الصغير وأتناولها بالملعقة، أقضم قطعًا من القشرة أيضًا، حلوة وحادة على لساني، تترك أثرًا مثل المخدر يتسلل من طرف اللسان إلى البلعوم.. حرَّاق قليلًا مثل الكحل الناعم الذي كانت تكحل نفسها به، ثم تضع ما تبقى في المكحلة داخل عينَيَّ بسرعة قبل حتى أن أجد الفرصة للمقاومة.

تلاشى طعم اليوسفي وماء الورد والكحل في لحظة.. لحظة موتها سَقَطَت مروحة السقف إلى أرض الصالة، وبدا لي الموت

حينها مفزعًا.. مثل سقوط قطعة من السقف، خلابًا مثل سقوط قطعة من السماء.

قلت لسارة لن أتناول الحبوب، عرفت أنها مضادات اكتئاب وأنها تخدعني. ابتسمت، قالت هذا خبر جيد، لأنني أستعيد إدراكي، تحدثت كثيرًا عن أهمية الدواء، قالت: «لو كنتِ ميتة لن يؤثر فيكِ على كل الأحوال، ولو كنتِ حية سيعيدكِ للعيش بشكل طبيعي، دون ألم ولا انتظار ولا تساؤلات». طلبت منها مهلة للتفكير، وطلبت أيضًا أن تحضر لي يحيى لأتحدث معه. طلبت منها أن تخبره بأنني تراجعت عن كلامي وأنني أريد رؤيته، صمتت لحظة ثم قالت سنرى، غادرت بسرعة قبل أن أرد.

الخميس ١٦-٥-٢٠١٩

أخبرتني سارة اليوم أن يحيى طلقني. سكتُّ ونظرتُ في عينيها، لم تكن تكذب، قالت إن أهلي هم من أحضروني إلى هنا بعدما تركت البيت واختفيت أيامًا، وجدوني في شارع بعيد في المعادي، جالسة على رصيف وبجوّاري بقايا طعام تركه لي المارة، لم أمسَّه، كنت مصابة بالجفاف ومغطاة بالطين.

لم أصدق.. اقتربت مني وحاولت لمس يدي، سحبتها بسرعة.. قالت إن يحيى طلقني، كانت تضغط على الكلمة وتؤذيني.. قلت إنها كاذبة.. وإن يحيى هو من أتى بي إلى هنا لأموت في هدوء.. وإنه لا يزورني لأنني طلبت منه ألا يأتي، ألا يمنعني شيء عن الموت، إنني مثل أي قطة أحب أن أنعزل في مكان خفي وحيدة

حتى الموت. هزت رأسها نافية، قالت إن يحيى تركني منذ ثلاثة أعوام، وإنني أعيش مع أهلي، وإنهم لم يتبرأوا مني، وإنهم أحضروني إلى هنا للعلاج.

كاذبة.. وأهلي كاذبون.. يكرهونني لأني خلعت الحجاب وأخبرتهم أن الموت ليس بعده شيء.. عندما وقفت أمام مقبرة جدي معهم وهم يبكون ويدعون، قلت إنه لا يسمعهم وإن لا شيء يصله.. لا الصدقات ولا قُرص الرحمة ولا الفاكهة التي يوزعونها على الصبية الملتفين حول المقبرة.. قلت إنه مات وانتهى.. تلاشى ولا شيء خلف هذا الجدار الأزرق، تلاشى كما تلاشى سعد وتلاشت كل القطط، وكل الجثث في حياتي.

يكرهونني لأنني نشرت أغنية يوم وفاة جدي على الفيسبوك، كانت تتردد في عقلي منذ قست نبضه وغطيت وجهه، وسحبت أمي خارج الغرفة وأخبرتها أنه مات. «أنا مستحيل أنساك في يوم»، أغنية كانت نانا ترسلها لمصطفى كلما اختفى وتوقف عن الكلام معها. وكان أدريان برودي يدندنها وهو واقف خلف رأس جدي، قلت لأمي إن هذه طريقتي في الحزن.. أن أسمع أغنية عن الموت.. وأن أغني أغنية عن الموت.. قالت إنني بلا قلب، الجثث التي تحيطني كل يوم جمدت قلبي، وإنها نادمة على إدخالي كلية الطب.

أين كان يحيى يومها؟ لماذا لا أذكره؟ آخر شيء أذكره وهو يقف في مطبخ بيتنا، يُعد مكرونة بالمشروم، أخبرته أنني أكره المشروم.. وأنه لا شيء.. مجرد مطاط بلا طعم.. وأنه يصر على إطعامي أشياء بلا معنى، مثل حياتنا بلا معنى.. لم يرد عليَّ، واصل الطبخ وجلس

وحده يأكل طعامه وتركني جالسة على الكنبة، بجواري قط أسود نائم، أين ذهب هذا القط؟ وأين ذهب يحيى؟

لم أصرخ ولم أبكِ، أخبرتها أنني أريد مغادرة هذا المكان، أريد الذهاب إلى يحيى وأن أفهم منه ماذا حدث. قالت إنها ستحدثه، ستطلب منه أن يأتي للتحدث معي.. لم أصدقها، تنظر لي نظرة أعرفها جيدًا، نظرة المهاودة، نظرة أبي كلما طلبت منه شيئًا، نظرة يحيى وهو يُعد المكرونة ويجلس ليأكل، ويرتدي ملابسه ويغادر البيت.

السبت ١٩-١٠-٢٠١٩

اليوم أكلت مكرونة مسلوقة ودجاجًا، أكل مستشفيات، يشبه أكل الطائرات والفنادق الرخيصة، أحب أكل الطائرات، أحب شكل العلبة البلاستيكية المقسمة، تسهل عليَّ التفكير في طريقة تناولي للطعام، أنهي كل جزء وحده، ثم أتناول الكعكة. أضع السكر وباكت الشاي في الكوب وأشربه، أكل الطائرات يساعدني على أخذ الحياة ببساطة على الرغم من أنه بلا طعم مثل أكل يحيى. لماذا رفضت طعام يحيى وصحت فيه حتى تركني؟ يوم سخرت مني نانا عندما قرأت نصًّا، احتضنني وقال إن نانا غبية ومجنونة، وإنني لم أفعل شيئًا، بعد أيام زار أهلي وطلب يدي، وقال إنه لن يتركني أبدًا. لماذا تركني؟ ربما اكتشف أن نانا لم تكذب، أنا مضيت على التقرير الذي يقول بأن سعدًا مات بكسر في الجمجمة.. مضيت مثلما أمضي على كل الأوراق، قال مديري إنها إجراءات روتينية،

وإننا لسنا مطالبين بشيء.. على أهله أن يرفعوا قضية لإثبات أنه مات برصاصة.. نحن لم نرَ الرصاصة، ما أمامنا كان كسرًا في الجمجمة.. كرر.. لسنا مطالبين بشيء.

كل القطط الميتة ماتت دون تشريح، لا نقف أمام قطٍّ ونقول: مات من الجوع.. مات من البرد.. مات دهسًا بعجلات سيارة في الظلام.. مات دون أن يتوقف الكون.. مات دون أن يشعر أحد بالذنب. كل الجثث التي كتبت تقاريرها، ماتت دون أن أشعر بالذنب.. الجثث المتصلبة الملقاة في الشوارع.. جثث المشردين.. والأطفال.. والزوجات المعنفات.. والأمهات المتروكات والرجال المهشَّمين. كل الجثث في الثلاجات.. الملتفة بأسمال تحللت قبل أصحابها.. تعيش معي.. تطاردني في أحلامي.. لم تتلاشَ.. لم يخفِها الموت...كل الجثث.. كل القطط الميتة..

قلتُ لسارة إنني أريد محادثة نانا، فاتَّصَلتْ بها على الماسنجر، ردت نانا عليها، تحدثتْ إليها ثم أعطتني الهاتف، سمعتُ صوتها، تنادي اسمي، ولم أرد، أنهيتُ المكالمة.

الأربعاء ٢٥-٣-٢٠٢٠

أعادني أبي إلى البيت.. في هذا اليوم، ساعدتني الممرضة على ارتداء ملابسي، ووضعت كمامة على وجهي، كانت تضع واحدة هي الأخرى، سألتها إن كان الغاز المسيِّل للدموع لايزال يغطي المدينة فلم ترد، قالت لا تخلعيها، ثم أجلستني على كرسي متحرك وخرجت بي من الغرفة. رأيت أبي واقفًا مع سارة، يرتديان

الكمامات.. الجميع يرتدي الكمامات.. اقتربت مني سارة، قالت إن المصحة لم تعد آمنة، وإن هناك وباء..

لم أفهم.. قالت إن العالم يعاني من جائحة مثل جائحة الأنفلونزا في القرون القديمة، وإن عليّ المغادرة والبقاء في البيت لفترة صغيرة، وإن هذه رغبة أبي.. بكيت، لم أرد العودة إلى البيت، حاول أبي لمسي فصرخت، لم يكررها.. سار بجواري والممرضة تدفعني بالكرسي المتحرك إلى الخارج، قبل المغادرة، أجروا لي بعض الفحوصات والتحاليل، وانتظرنا حتى أذنوا لي بالرحيل.

أركبوني سيارته، جلست إلى جواره، نفس السيارة، ونفس الرائحة، رائحة تراب وخبز.. شغَّل الراديو على إذاعة القرآن، الشوارع خالية.. والبيوت مغلقة.. مثل أفلام نهاية العالم.. بكيت لأن العالم ينتهي وأنا ما زلت هنا.. قلت هذا ظلم.. نظرت إلى السماء وقلت هذا ظلم كبير.. مددت يدي وأغلقت القرآن فاستغفر أبي الله، لم يشغِّله ثانية، لم ينظر في وجهي.. حاول مساعدتي على الهبوط من السيارة فرفضت، مشيت على ساقين مهتزتين.. ووقفت إلى جواره في الأسانسير.. رفضت عناق أمي ودخلت غرفتي وأغلقت الباب.. لا شيء في حقيبة يدي سوى هذا الدفتر.

مذاق الخوف

.. مثل فنجان قهوة بارد يلمس الخوف شفتيك. برتقالة مجعدة وحيدة على رف الثلاجة، بقايا طبيخ بائت لا تجرؤين على التخلص منه. ثمة خوف في كل رغيف خبز ناشف تلقينه في القمامة، لأنك ربما لن تجدي غيره في اليوم التالي. تريدين الاحتفاظ بأكياس مجمدة، وبقايا وجبات جاهزة وأكياس شيبسي نصف فارغة في الحقيبة، لأنك خائفة. دائمًا خائفة. أواني الأرز الممتلئة لا تمنحك الشجاعة لكنها تطرد خوفك. مثل طعام المستشفيات والطائرات. دليل على بقائك على قيد الحياة، وسط المرض، وسط الهواء، وسط اللا شيء. لا زلت قادرة على تذوق طعم العناصر، وإدخالها إلى جسمك لتمُسَّك برفق من الداخل، لتصبح أنت، جزءًا منك يظل حتى الموت..

الخميس ٣٠-٤-٢٠٢٠

الأيام تتكرر، أستيقظ من النوم وأجلس في الشرفة، أتناول الطعام وأشاهد المسلسلات مع أمي ثم أنام، فقدت وظيفتي وأصدقائي وزوجي وبيتي وقطي، لكن الحياة لا تزال مستمرة، كيف تستمر بعد فقد كل شيء يكوِّنها؟ لا أفهم.. في المسلسلات يعيش البشر حيوات أخرى موازية، مشاكلهم تجذبني وكأنها مشاكلي، أتابع الأحداث المكررة بانتباه، وأحترق لمعرفة أحداث الحلقات التالية، تشاركني أمي الشغف، تبدو سعيدة لأنني ركزت كل اهتمامي على المسلسلات وتوقفت عن الذبول والصمت، لكني كل مساء عندما أرقد على ظهري وأتأمل ظلام السقف أستعيد حياتي أنا، وأشعر أنني أيضًا في مسلسل طويل وممل وبلا نهاية.

الخميس ١٨-٦-٢٠٢٠

رفض أبي طلب سارة بعودتي إلى المصحة، قال إنني بخير، أتناول الطعام والدواء وأتحدث معهما، وأشاهد التلفزيون مع أمي.

قالت سارة إن علاجي لم ينتهِ بعد، وإنني بحاجة إلى المتابعة لكنه رفض. لم يشأ أن أغادر البيت حتى ينتهي الوباء، طلبتُ منه أن يعيد لي هاتفي فأعاده، أرسلت ليحيى رسائل كثيرة ولم يرد. أخبرته أنني أصبحت بخير وأنني أتناول الدواء وأن عليه أن يعيدني إلى البيت، لم يرد، ينشر صورًا وقصائد، وبدا لي أنه نسيني، أو كأنه لم يعرفني قط. حذف كل صورنا، صور الزفاف وصور السفر وصور الندوات. كان شخصًا آخر، شعره خف وأسنانه أصبحت بيضاء جدًّا، شكلها مرعب في الصور، حتى نظرته أصبحت بيضاء، ينظر إلى الكاميرا بثبات وكأنه ينظر إلى شخص يعرفه، كان شهيرًا على الفيسبوك ويملك متابعين كثر، رأيت صورًا له في برامج تلفزيونية، وصورًا في أمسيات شعرية في الأوبرا، دخلت إلى حسابه على يوتيوب وسمعت آخر قصيدة، لم أصدق، صار يكتب القصائد العاطفية والأغاني والمسرحيات الكوميدية البلهاء التي تُعرض في التلفزيون ويتصوّر مع الممثلات على السجادة الحمراء في المهرجانات. لم يكن يحيى، كان شخصًا آخر، لو كانت نانا هنا لقالت لبسه عفريت، كلنا لبسنا عفاريت، كانت ستضحك وتشخر وتخرج سيجارة وتدخنها وتنفث الدخان في وجهي، كنت سأدخن معها وأضحك أيضًا. سأدخن إلى أن أشعر بالغثيان وأتقيأ على الأرض، ثم سأركض، كما ركضت هي يوم المشرحة، سأركض في الشارع حتى أضيع.. أريد أن أركض حتى أضيع.

الأربعاء ٢٤-٦-٢٠٢٠

غادرت البيت هذا الصباح دون أن يشعر أحد، أخذت نقودًا من حقيبة أمي ونزلت، ركبت سيارة أجرة إلى وسط البلد، لم أرتدِ كمامة، سرت في الشوارع، شوارع أخرى غير التي أعرفها، الميدان بدا متسعًا وخاليًا، الذكريات تداخلت في عقلي، آخر ما أذكره ميدان مزدحم بحديقة خضراء دائرية ولافتات كثيرة، هذا الميدان لا أعرفه، انقبض قلبي.. واهتزت الأرض تحت قدمَيَّ.. استعدت شعوري بالسير فوق الموتى. تعثرت.. مد لي أحدهم يده لأنهض، أمسكت بيده ولم أتركها.. كنت ألمس شخصًا للمرة الأولى منذ وقت طويل، شخصًا غريبًا لا أعرفه. تمسكت بلمسة يده وظللت في مكاني لحظات، نظر لي بدهشة، فأفقت.. ابتعدت.. مشيت في شارع محمد محمود.. وانحرفت يسارًا.. سرت بداخل الشوارع الفرعية الضيقة حتى وصلت إلى شارع هدى شعراوي.. أخرجت هاتفي والتقطت صورة.. نشرتها على الفيسبوك.. أرسلت ليحيى رسالة، أخبرته أنني بجوار مكتبتنا المفضلة، طلبت منه أن يأتي.. لم يرد.

مشيت.. بحثت عنه في كل الشوارع التي مشينا فيها من قبل، نظرت إلى وجوه الجميع، الجالسين في المقاهي الصغيرة بداخل الحارات.. والسائرين في الشوارع بلا صوت.. لم ينظر أحد إلى وجهي، ينظر الجميع إلى الأرض، يختبئون خلف كمامات زرقاء وسوداء وملونة.. بدت الأشجار القليلة الصغيرة المتبقية على الأرصفة خضراء أكثر من اللازم.. والبنايات صفراء أكثر من اللازم.. والأسفلت أسود أكثر من اللازم.. وكأن الموجودات كلها

برزت قليلًا إلى الخارج، أو أنها نفضت عنها لونًا واحدًا شاحبًا كان يغطيها، مثل لون الموت.

لم أعثر على يحيى، عثرت على كتابه عندما ذكرت اسمه للبائع في المكتبة، ناولني ديوانًا عليه صورته، نظرت إلى صورته وقرأت النبذة المكتوبة عنه على الغلاف. تخرج في.. وعمل في.. وشارك في.. وكتب ديوانين.. وفاز بجائزة كذا.. لا تذكر النبذة اسمي، لم يذكر أنه عاش مع.. وبكى مع.. وضحك مع.. ونام مع.. لم يذكر أنني من نسق ديوانه الأول وأعدتُ كتابته على الكمبيوتر لأنه يفضل الكتابة بالقلم، لم يذكر أنني قرأته كلمة كلمة.. وصححته حرفًا حرفًا.. اكتشفتُ أنني بالنسبة ليحيى ميتة، وأن كل هذا الوقت الذي قضيته في انتظار الموت مضحك، لأنني مُت فعلًا منذ سنوات.

انحرفت إلى الشارع بجوار المكتبة، خرجت إلى شارع صبري أبو علم، رأيت قطَّة صغيرة بيضاء ميتة، مُلقاة على ظَهرِها كما تفعل القطط عند التَّدَلُّل، بعينين مغلقتين، أوَّل قطة مَيتة مغمضة أراها، أَظُنُّ أنَّها ماتت صغيرة جدًّا، قبل حتى أن تمنحها الحياة فرصة لتفتح عينيها وترى العالم.. أفرزت غددي اللعابية الريق، بصقت في الشارع.. بصقت بجوار القطة.. بجوار الموت.. حتى لا تظهر البثور الحمراء في وجهي.. حتى لا يترك الموت علامته على وجهي.

ابتسمت.. سرت إلى مطعم القزاز وطلبت ساندوتشًا، «أي ساندوتش» أجبت الفتاة على الكاشير، نظرت لي.. سألتني: شاورما؟

فأومأت برأسي.. وقفت أمام سيخ الشاورما الساخن أتابع دورانه المستمر، لم أنتبه إلى البائع وهو يناولني الساندوتش، فاضطر إلى وضعه في يدي وكأنه يناول طفلًا صغيرًا طعامه، أخذته وجلست على الرصيف المقابل، أكلته كله.. كان بلا طعم، مثل كل شيء بلا طعم.. نهضت.. مشيت قليلًا.. ثم تقيأت في الشارع.

مذاق اللا شيء

.. أن تفقدي قدرتك على التذوق يعني اقترابك من النهاية، هناك بعد حدود العالم وبعد أن يتساوى كل شيء، طعم الماء مع طعم الخبز، طعم الحزن مع طعم الفرح، ستعرفين أن لا شيء يستحق، وأنك ركضت طويلًا جدًّا من أجل اللا شيء، وأنك احترقت وتعبت وبكيت وقاومت لأنك تمسكت بطعم فرح ضئيل يشعلك للحظة ثم يتلاشى. كل شيء هو لا شيء، فقد الشيء مثل العثور عليه، مجرد أمل زائف بالاستمرار. كل شيء تبتلعينه بلا طعم، كل الموجودات تحولت للا لون، أنت نفسك ستبهتين، تتحولين إلى مجرد سطح، ورقة بيضاء، ستفقدين أبعادك والزمان والمكان، ستفتقدين طعم الأكلات التي تكرهينها، والأكلات التي تحبينها، وستدركين القيمة الزائفة للأشياء. اللا شيء سيشعرك بالندم، لكنه سيمنحك في نفس الوقت الاكتفاء..

الجمعة ١٠-٧-٢٠٢٠

بكتْ أمي، توَسَّلتْ إلى أبي أن يعيدني إلى المصحة..

توقفتُ عن تناول الطعام ومشاهدة المسلسلات، فقدتُ الوزن الذي اكتسبته في الأيام الماضية، شعرتُ أنني خفيفة، لكن أمي بكتْ، حاولتْ دس طعام مهروس في فمي فبصقتُهُ. فقدتُ القدرة على البلع عندما وقفتُ أمام زر إنارة الغرفة منذ أيام وعجزتُ عن الضغط عليه، لم أفهم كيف أفعلها، وتساءلتُ عن طريقة البشر في التغلب على الظلام، لماذا يصعبونها بهذا الشكل؟ لماذا يجب أن أفعل شيئًا لأحصل على بعض الضوء؟ جلستُ في الظلام حتى دخلتْ أمي الغرفة ورأتني متجمدة في مكاني، أنارتْ الغرفة ببساطة فاندهشتُ، طلبتْ مني أن أخرج لتناول الإفطار ورفضتُ، رفضتُ الغداء والعشاء ورفضتُ شرب الشاي، رفضتُ مشاهدة المسلسل ورفضتُ أن تلمسني.

كنتُ قد سمحتُ لها بلمسي لأني ارتحتُ ليدها في يدي، وشعرتُ بأنه لا بأس أن أعود مرة أخرى إلى الحياة إن كنت سأتمتع بهذه اللمسة. عادتْ تسرح لي شعري مثل طفلة، وتعاونني على الاستحمام، وتضع لي عطرًا من زجاجتها القديمة. ابتسمتُ لها عدة

مرات، ورددتُ على بعض الأصدقاء على الواتس آب والفيسبوك، حتى توقفتُ أمام زر الإنارة وعجزتُ عن الضغط عليه.

هاتفتْ أمي سارة فجاءتْ في المساء.. سألتني إن كنت قد توقفتُ عن تناول الحبوب فلم أجبها.. هزتْ رأسها في يأس.. قالت أين دفتر اليوميات فأشرتُ لها إلى الحقيبة.. سألتني عن الصفحة الممزقة من أيام فلم أرد.. سألتْ أمي إن كنتُ هاتفت أحدًا، رأيت شيئًا.. همستْ أمي في أذنها بكلمات فامتقع وجهها.. طلبتْ أن أعود إلى المصحة، رفضتُ.. هززتُ رأسي رافضة بقوة.. صدمتُ رأسي في شباك السرير.. وسقطتُ على الأرض.. تمرغتُ على الأرض فحملاني ووضعاني على السرير.. ثبتني أبي من كتفَيَّ.. رأيت في عينيه نظرة رجل يائس.. ثمَّة دموع متجمدة في عينيه، وارتعاشة خفيَّة في جانب فمه. شعرت بوهنه، وعرفتُ أنه فقد الأمل. أعطتني سارة حقنة.. عدتُ بالزمن إلى الخلف.. فقدتُ كل شيء.. وكان لا بد أن ينتهي كل شيء.

الجمعة ٧-٨-٢٠٢٠

أخرجت أمي كل شيء غريب أو موح من غرفتي، أخذوا هاتفي وعلب دوائي وعطري وكل المكياج والملاءات وشفرات نزع الشعر والتوك.. خائفون.. يخافون أن أقتل نفسي.. رآني أبي ألف رأسي بكيس بلاستيكي واعتقد أنني أحاول الانتحار، لم أفعل.. كنت أريد اختبار انعدام الأكسجين حولي كما سيحدث في القبر.. أخبرته أنني لا أحتاج إلى فعل ذلك، لم يتبقَّ الكثير من الوقت لأختفي.. بكى.. أمي أيضًا بكت.. حملوا كل شيء من غرفتي..

تأتي سارة كل يوم لتعطيني الدواء، تحادثني ولا أرد، قالت إن يحيى لن يعود.. تغييره لحالته الاجتماعية على الفيسبوك.. وصورته محتضنًا تلك الفتاة تعني أنه نسيني.. يعيش حياته، ربما يتزوج وينجب وأن عليَّ التعامل مع الأمر، عليَّ أن أعود إلى حياتي، لم أفهم شيئًا.. سألتها أيُّ صورة؟ أين ذهب أصلًا؟ كان معي منذ ساعات.. يحضر المكرونة بالمشروم.. هل غضب لأنني أكره المشروم؟ صمتتْ.. بلعتْ ريقها وسكتتْ، طلبتْ مني أن أستمر في الكتابة.. أن أتوقف عن تمزيق الصفحات. أخبرتها أنه ممتلئ فأحضر لي أبي دفترًا جديدًا.. أخذتْ معها الدفتر القديم.

لن أنتحر.. لماذا يجب عليَّ أن أنتحر؟ أنا ميتة أصلًا.. الفورمالين يحفظ جلدي لذلك يعتقدون أنني حية.. أخبرتُ يحيى أن يتوقف عن زيارتي حتى لا يمنعني وجوده من التلاشي.. مِتُ.. مثل أي قط يموت كل يوم.. لماذا يضخمون الأمر بهذا الشكل؟ كل القطط تموت وتتلاشى.. وسعد مات وتلاشى.. أنا مسحتُ الدم عن وجهه.. وخللتُ أصابعي في شعره.. واتصلتُ بنانا.. فجاءتْ ولمسته وانتفضتْ وجرتْ إلى الخارج.. فذهبتُ إلى غرفة الطبيبات.. وتناولتُ قضمة من الساندوتش.. ألقتْ نانا الماء في وجهي.. واتهمها يحيى بالجنون.. ثم أهدتني لوحة.. تمثال رمادي يقف وسط عاصفة حمراء.. نمتُ أسفلها سنوات بجوار يحيى.. أين ذهبت هذه اللوحة؟ نظرتُ إلى الجدار خلفي ولم أجدها.. كان الجدار خاليًا لكنني رأيتُ نفسي عليه.. ظلًا أسود بلا ملامح..

الانتباه إلى الصَّوت

معرض للفنان مصطفى عبد العزيز

مفتوح للجمهور من السبت إلى الأربعاء

من كل أسبوع بين ٧ و ١٠ مساءً

صوت الرسائل

.. صوت الإشعارات على الهواتف، صوت التكة القصيرة أو الرنين الطويل، أو رنتين تفصلهما أقل من ثانية لكنها تسرق نبضة قلب معها. اسمع صوت الرسائل، دقق في النغمة التي اخترتها لهاتفك، وحلل الصوت. أنة خافتة، أو صرخة قصيرة، أو عملة معدنية تُلقى على أرض باردة، أو صرير يثير القشعريرة، وستعرف كل شيء عن نفسك. رسائل الحب، العتاب، العمل، الشجار، الكراهية، الرسائل كلها بصوت واحد، والمشاعر من توحد الصوت اختلطت. الرسائل لم تعد تنجلي في عقلك كصورة لظرف في صندوق بريد، صارت جملًا مصفوفة تنتظر فتحك للشاشة، كتابة الرقم السري أو طبع البصمة، لتظهر لك كلمات قد تقتلك أو تحييك. صوت الرسائل هو صوت العالم الجديد، وهو الدليل على الاختيارات الخاطئة، وقصص الحب الميتة، والحياة التي لا نريدها، والدليل أيضًا على وجود حياة أخرى نتمناها..

رن هاتفه بنغمة رسائل الواتس آب، نظر إلى الشاشة، كانت نتيجة المعمل قد وصلت، دق قلبه بسرعة وهو ينقل بصره إلى الكلمة الوحيدة في خانة النتائج: Negative. شعر أنه صار أخيرًا قادرًا على التنفس. المسحة سلبية بعد شهر كامل من العزلة، شهر شعر فيه وكأنه كبر عشرين عامًا، فهم كيف ستكون الشيخوخة، العجز، الألم الذي يسحق صدره إن أراد الذهاب إلى الحمّام. وعرف قيمة النَّفَس الذي يدخل ويخرج من صدره، النفس الذي يأخذه باستخفاف، تحول في بعض اللحظات إلى أثمن شيء في العالم.

وضع الهاتف على السرير بجواره وفكر في النهوض وإخبار علا أن المسحة سلبية، وأنه قادر على التحرك بحريته في شقتهما الضيقة، لكن الهاتف رن مرة أخرى، رسالة جديدة أتته هذه المرة على إنستجرام. نظر إلى الاسم ولم يصدق، نانا عبد الوهاب، بصورتها الثابتة كما رآها آخر مرة، فتح الرسالة ووجد رابطًا لأغنية، نفس الأغنية التي أرسلتها له منذ سبع سنوات.

عاد بالرسالة إلى الوراء قليلًا وقرأ رده القديم عليها، سألها وقتها إن كانت تريد أن يلتقيا ووافقت، أرسل هذا الرد وهو في روسيا

يسجل أصوات المستنقعات لمشروع عمل عليه مع مؤسسة ثقافية هناك. تأمل للحظات الفرق الكبير بين ما كان يفعله حينها وما يفعله الآن ورفع حاجبيه. وقتها ارتدى قناع أكسجين، يشبه ما ارتداه سعد ليلة موته، ووقف بحذاء عالي الرقبة وسط المستنقعات، حمل معداته على ظهره وفي يديه، وظل صامتًا لساعات، يسجل أصواتًا وذبذبات خافتة لا يسمعها أحد سواه، ويفكر في كل ما حدث.

دخل على صفحتها على إنستجرام، لم تكن نشطة جدًّا عليه، رأى صورًا بتواريخ متباعدة، صورها وهي تقف بجمود أمام الكاميرا في أماكن غريبة مثل الورش أو المقاهي الشعبية أو مداخل البيوت القديمة، في مصر وفي بلد عربي خمن أنه خليجي. آخر ما سمعه عنها أنها تزوجت وسافرت مع زوجها، بعدما اتصل بها في نهاية عام ٢٠١٤، وأخبرها أنه يفتقدها وأنه يحبها، فقالت: «أنا اتخطبت»، وأغلقت السماعة.

لم يتمكن من لومها، لقاؤهما الأخير قبلها بنى بينهما حاجزًا، ظهر عندما وقف بجوارها ينتظران الميكروباص الذي سيحملها من أرض اللواء إلى رمسيس، والتفت لها فوجدها تنظر إليه بشفقة لم تناسب الوضع، من المفترض أنه هو من جرحها لكنها هي من تشفق عليه. ضايقته نظرتها لأنه علم بأنها على حق، هو بالفعل يستحق الشفقة ولا شيء آخر. ركبت الميكروباص واختفت، واختفى هو، سافر إلى لندن ولم يتصل بها، ينشر صوره في الحدائق ومع الأصدقاء الذين تعرف عليهم هناك ويتجاهلها. في البداية كانت تعجب بكل الصور، تضغط على زر الإعجاب وترسل قلوبًا

في التعليقات لكنه لم يرد عليها ولا مرة إلى أن توقفت. لم يبادلها الإعجاب على صورها القليلة التي تنشرها، وكلها صور داكنة من داخل حجرتها، خمن أنها لا تغادر البيت، ربما لا تغادر السرير، لكنه أيضًا لم يهتم.

عندما عاد إلى مصر، انشغل بعشرات الأمور، مرض أمه ومشاكل العمل والبيت، زار طنطا عشرات المرات، ومر من أمام بيتها عشرات المرات، لكنه لم يرفع رأسه مرة إلى شرفتها، الشرفة التي جلس أمامها بالساعات حتى الفجر يحدثها في التليفون أو يخدعها في الهاتف بأخبار كاذبة تحدث في شارعها لتخرج ويراها. باتت شيئًا هامشيًّا لا ينتبه له.

ثم ذات يوم، في نهاية العام، ومضت صورتها فجأة في عقله، كان جالسًا بجوار أمه في استقبال المستشفى، ينتظران دورها لتلقي جلسة الكيماوي رقم... لم يعد يذكر.. الثالثة أو الرابعة، قبل أن تخضع لعملية استئصال الثدي، عندما نظرت إليه أمه فجأة وطلبت منه أن يتزوج قبل أن تموت.

وجه أمه المتعب ونظرتها المحايدة، لا حزينة ولا سعيدة، لا تترجاه حتى أو تضغط عليه عاطفيًّا، نبرتها الهادئة وكأنه أمر محتم أن يتزوج، أرعبته أكثر مما لو صاحت فيه أو بكت أو قالت إنه أناني ويريد أن يحرمها فرحتها به وبأولاده. في هذه اللحظة سطعت صورة نانا في ذهنه، اتصل بها فور أن دخلت أمه لجلستها، لكنها أخبرته أنها خُطبت وأغلقت السماعة، ظن أن صوتها تهدج أو أنها

بدأت في البكاء وهي تضغط على حرف التاء في آخر الكلمة، لكنها أغلقت الخط بسرعة، ولم يعاود الاتصال بها.

واليوم ترسل له هي أغنية تقول إنها «مستحيل تنساه في يوم»؟ ماذا عليه أن يفعل؟ أن يغادر السرير وهو لم يتعافَ بعد؟ ويخرج ليقول لعلا إنه يحب امرأة أخرى؟ أن يتخلى مثلًا عن ولديه ويهرع إليها؟ ضحك جدًّا حتى سعل مجددًا، بدا صدره وكأنه مكشوف، معرض لكل شيء، شعر وكأن رئتيه تتلاشيان، لم يفقد الشم والتذوق، لكن سمعه ضعف أكثر، الماء المتكثف حول أذنيه ازداد عمقًا، ولم يعد قادرًا على التواصل.

نغمة رسائله تشبه أصوات المستنقعات، هسهسة بسيطة تأتيه على فترات، هسهسة تحمل أخبارًا مهمة أو مجرد تفاهات، في المستنقع أيضًا قد تكون تنفيسًا لغاز الميثان أو مجرد حركة لكائن لا يراه، للطحالب التي تنمو في كل مكان، أو هو صوت العطن نفسه. أحيانًا لا يكون هناك صوت، مجرد غمغمات خافتة قد يكون هو مصدرها. ثمَّة شيء غير حقيقي في كل هذا، مشروعه كان فاصلًا بين الواقع والحلم، المستنقعات بالنسبة له كانت حلمًا، لا يعرف سبب غرامه بها، لكنه في كل مشروع تسجيل صوتي لا يعرف سبب افتتانه بالفكرة، سواء سجل أصوات رفاقه، أو أصوات الشارع الضيق الذي يعيش فيه، أو أصوات الهتافات المنبعثة من الميدان بعد موقعة الجمل، أو أصوات الناجين من غرق العبارة سالم إكسبريس. لا يسمع الكلمات بمعانيها، ولا النبرات كما يسمعها غيره. هو أصلًا لا يستطيع سماع الأصوات العادية، لكنه قادر

على الانتباه إلى التون الخافت الذي يحمل ما خلف المعنى وما خلف المشاعر وما خلف الحياة.

اليوم وهو راقد في الفراش نصف عارٍ على الرغم من البرد، لم يرغب سوى في رؤية أمه، وفي العودة إلى العمل، وإلى المعارض والسفر. منذ بداية الكورونا وهو حبيس البيت، الفن أيضًا حبيس الاستديوهات، من الذي سيرغب في إدخال رأسه في فجوة مفرغة لسماع أصوات العالم بينما العالم نفسه يحتضر؟ فكر في تسجيل أصوات العالم المحتضر لكن المرض أخمد حماسه لأي فكرة.

المسحة سلبية، والأصوات لا تزال بعيدة، صوت رسائل الهاتف الموحدة لكل التطبيقات تأتيه من بعيد، الاهتزاز هو ما يجعله ينتبه إليها، والأغنية عندما شغلها سمعها وكأنها تدور ببطء، صوت المغنية لزج وكأنه مغموس في العسل، حاول استعادة صوت نانا ولم يستطع. لكنه استعاد نظرتها الأخيرة التي رمقته بها قبل أن تتركه واقفًا على ناصية الشارع وتختفي.

صوت الموت

.. مثل فتح زجاجة يأتي الموت. دفقة هواء مكتوم تنطلق من فوهة ضيقة، الموت انطلاقة فكرة. هو التخلص من خواء جسمك وتركه - على عكس المفترض - ممتلئًا بالحياة. اضغط بشفتيك على بعضهما، ثم افتحهما مع زفر الهواء بسرعة، كرر الحركة، أنصت إلى صوت كل ذرة هواء تخرج من الفم، ستنسى النَّفَس للحظة، وسيفوِّت قلبك دقة، وستُمحى أفكارك مرة واحدة، ستموت.. ستموت لأقل من ثانية ثم تحيا. كما نموت جميعًا لثوانٍ كل يوم..

وقف أمام المرآة في الحمَّام ونظر إلى وجهه، كاد لا يتعرف على نفسه، نحيل وشاحب بذقن نابتة وشعر مشعث، تضاعفت الشعيرات البيضاء فيه، عيناه غائرتان، لونه الأسمر بدا وكأنه مدهون بطبقة نحاس، كأن الظلام هبط على وجهه. يشبه ظلام الاستديو في ذلك اليوم منذ سبع سنوات، سواد باهت بسبب ضوء كشاف خافت وضعه إلى جوار نانا بعدما جلست على الكرسي بجوار باب غرفة النوم، هادئة على عكس ما توقع، تشفط العصير من علبة جاءها بها، وتدخن سيجارة مارلبورو، قالت إن سجائرها نفدت وسينبغي عليه النزول لشراء علبة أخرى لها.

سألها إن كانت ستخاف لو تركها وحدها في شقة نصف مظلمة، ممتلئة بكراكيب تبدو في الإضاءة الخافتة وكأنها وحوش على وشك الهجوم، فهزت رأسها نافية ببطء، لا يزال يذكر خصلات شعرها الملتصقة بجبينها من العرق، تهوية سيئة وظلام مزعج ورائحة تراب تغطي كل شيء، لماذا قبلت بالمجيء معه؟ لم يعرف إلى اليوم، لن يعرف أبدًا.

قفز درجات السلالم درجتين درجتين، كشك السجائر قريب من العمارة، أرض اللواء مزدحمة دائمًا، والشباب الواقفون على الناصية، الذين رأوه وهو يدخل البوابة الصدئة مع الفتاة منذ قليل يرمونه بنظراتهم، مزيج من الحسد والنذير، لم يخف، مصطفى لا يخاف، ولا يرتبك، أحيانًا يشعر أنه لا يشعر.

آخر شعور يتذكره، فرحة خافتة لمعت لثوانٍ في روحه، عندما وقف بجوار سعد في الميدان بعد انتهاء المعركة، ورحيل البلطجية بجمالهم وأحصنتهم، شعر بأن المكان صار ملكًا له، وأنه واجه أكبر مخاوفه، أن يخوض قتالًا ويخرج منه سليمًا، إلا من بضعة خدوش مضحكة.

طوال عمره وهو يتجنب القتال، يتجنب المشاكل، لا يجرؤ على الحديث، ولا يدافع عن نفسه، لا أمام أبيه، ولا مع أطفال الحي، ولا خلال الدراسة في كلية التربية الفنية، هادئ جدًّا، وصموت حتى إن زملاءه في الكلية لم يتبادلوا معه كلمة إلا في الترم الثاني من العام الأول، يحضر المحاضرات وحده، ويجلس في الأتيليه لينهي لوحته في صمت، يغادر دائمًا في السابعة، ينهض، يلملم أدواته، يعدل البيريه على رأسه، ويشد الجاكيت، ويجري للحاق بالقطار عائدًا إلى طنطا.

طفل مسكين وشاب منطوٍ، يرتدي نفس القميص لأيام، والحذاء لأعوام، لم يخرج من مدينته سوى إلى القاهرة، ولم يعرف أن ثمَّة جمالًا أكبر في العالم إلا عندما دخل الكلية، وتعلم لأول مرة كيف يمزج الألوان على لوحة بحرية، دون أن يضطر إلى رسم حدود

للعناصر بالقلم الرصاص كما كان يفعل وهو يرسم لوحاته الصغيرة في اسكتشات الرسم المتبقية من المدرسة، بألوان فلوماستر تشتريها له أمه خلسة من وراء أبيه.

لو أخبره أحدهم منذ خمس سنوات فقط أنه سيقف منتصبًا في ميدان التحرير بلا حركة، أمام جمل ضخم يركض نحوه، لمات من الضحك، لا يذكر فعلًا كيف فعلها، لا يذكر سوى أنه أسقط الجمَّال على الأرض، وأنه ظل راقدًا فوقه في شبه إغماءة لحظات حتى أفاق وتركه.

الحركة حوله أشبه بالتصوير البطيء، لم يكن يجيد التصوير، سعد هو من كان يحمل الكاميرا دائمًا كأنها جزء من يده، التقط صورته وهو يقف أمام الجمل الراكض، وعندما هدأ كل شيء، انحنى نحوه، وقال له إن هذه الصورة ستصبح الأشهر على الفيسبوك غدًا. كان ملمس خصلات شعر سعد الثائرة لا يزال باقيًا على أذنه اليسرى التي همس فيها بكلماته، رائحته، مزيج العرق والسجائر وبقايا مزيل عرق أكس في أنفه، وصوت التقاط الكاميرا للصور في أذنيه، ابتسم مصطفى، ابتسامة واسعة كادت أن تتحول لضحكة، لقهقهة، فتح فمه ليرد عليه، لكن صوتًا مكتومًا سبقه، صوت كأنه سدادة تنفتح بقوة، اخترقت الرصاصة عين سعد في لحظة. توقفت الرائحة، وتلاشى صوت الكليك كلاك، لم يتألم لأنه لم يجد الوقت الكافي لذلك، سقط إلى جواره والابتسامة لا تزال على شفتيه، حتى مصطفى ظل مبتسمًا للحظات، ظل واقفًا لا يدري ماذا يفعل. وعندما التف

الجميع حولهما، وعندما صرخت الفتيات وهن يمسحن الدم من على وجه سعد، فهم. بدا وكأن أحدهم قد ضغط زر إيقاف المشاعر داخله، لم يشعر بشيء، لا بحزن ولا غضب ولا خوف، انحنى والتقط الكاميرا من بين يديِّ سعد، صارت ملكه، لم يلمسها أحد غيره من يومها إلا نانا، التي أصرت على حملها بينما ينزل هو إلى الكشك ليشتري السجائر.

حاول إيقاف سيل الذكريات في رأسه، لأن الصداع هجم مرة أخرى بقسوة، الزغللة في عينيه أدارت رأسه، لكنه أمسك هاتفه وكتب لها، سألها أين أنتِ فقالت إنها في مصر، طلب رقم هاتفها لكنها لم ترد، كانت تكتب وتمسح، فقال إنه يود لو تقابلا، قالت إنها كانت ستطلب نفس الشيء، إنها تود لقاءه يوم ٢ فبراير أمام مجمع التحرير. ضغط على ضروسه لا إراديًّا وشعر بالحرارة تعود إلى جسمه، ظن أنه مرض مجددًا، لكنه لم يعترض، أخبرها أنه موافق وحددا الساعة، الميعاد بعد خمسة أيام، يكفي لاستعادة قوته وربما السفر إلى طنطا لرؤية أمه التي لم يرها منذ شهر.

لولا وجود أمه لغادر منذ سنين إلى عالم آخر، لخرج ذات يوم ولم يعد. قبل زواجه وإنجابه، فكر عشرات المرات في أن يسافر خارج مصر لحضور افتتاح أيِّ معرض، ثم يكسر الفيزا ويبقى في أيِّ بلد، بلد يستطيع أن يتنفس فيه، بدلًا من بلد يسير في شوارعه فيشعر بأنه لا يتحرك.

فكر في حياته كلها، مرت كلقطات ثابتة أمام عينيه، صور مؤطرة تظهر في عقله مائلة أحيانًا إلى اليمين وأحيانًا إلى اليسار ثم تتكاثف

فوق بعضها مع إيقاع دقات طبل مثل صوت دق الخشب بالخشب الذي كان يحدثه سعد في محاضراته العملية، تذكر منظره وهو يمسك بشاسيه الخشب ويهبط به على مقعد أو ترابيزة ليحدث صوت «الطاخ» المكتوم، يشجع الطلبة على القيام وفعل المثل، لحظات ويتحول الأتيليه إلى ساحة معركة مضحكة، يحاربون أعداء وهميين بشاسيهات الرسم. أحيانًا يرفع الشاسيه مثل عصا ويحطب به مع مصطفى، ويضحك. يتذكر ضحكته بلا صوت، لا يسمع سوى صوت دقات الخشب، والصور لا تزال تومض في ذهنه.

حتى التفكير في حياته يحوله إلى مشروع داخل عقله، له شكل ولون وأبعاد وصوت. عقله مبرمج على ذلك. مثلما برمج نفسه في يوم ٢ فبراير من كل عام، أن ينشر صورته مع سعد ويقول مر عامان، مرت ثلاثة أعوام، أربعة، خمسة، ثمانية، تسعة.. هذا العام سيكتب مرت عشرة أعوام يا سعد، ثم ماذا؟ ما الذي سيتغير في الصورة؟ يقف فيها واضعًا كمامة طبية لم يعد يخلعها اليوم، بينما يرتدي سعد قناع غاز بفلترين، شكله مضحك جدًّا، يسخر منه فيخبره سعد بأنه حمار، وأن القناع سيحميه حتمًا من الغاز. لكن القناع لم يحمه من الرصاصة التي أصابت عينه ليموت في لحظة، ويموت جزء من مصطفى معه، ربما جزء من نانا أيضًا، لأنه بعد كل هذه السنين، لا يرى سببًا آخر لكل ما حدث لهما سوى هذا.

هذه الفتاة الحمقاء كسرته، ربما لا يذكرها كثيرًا، لا يفكر فيها كما يحاول أن يدَّعي اليوم، لكنها كلما مرت على باله اندهش. كانت حاضرة في حياته ثم اختفت، فكر أنها جزء من حياة سابقة بعيدة،

اليوم يبدو وكأنه انسلخ عن مصطفى القديم وتحول إلى شخص آخر، لا يعرف إن كان انسلخ عن نفسه القديمة لحظة موت سعد أمامه، أم لحظة سفره لأول مرة خارج البلد، عندما رأى عالما جديدًا لامعًا لا يشبه عالمه، لا يشبه شارعه الضيق في طنطا، ولا شارع الاستديو في أرض اللواء. شوارع نظيفة وحدائق ونوافير. حتى مستنقعات روسيا أنظف من حارته القديمة، في الحارة مستنقعات أيضًا صغيرة من المياه الآسنة السوداء، مياه تشبه تلك التي تحيط بأذنيه وتمنعه من السمع. لو سجل ذبذباتها بأجهزته لن يسمع سوى صراخ وشتائم تكثفت فيها على مر السنوات ممن يمرون بجوارها أو يبصقون فيها أو يدوسونها بأحذيتهم البالية. داخله أيضًا مستنقع كبير، عطن لا يعرف مصدره، يعرف فقط أن المياه التي تغلف أذنيه ليست نقية، ليست مثل مياه البحر الأحمر مثلًا التي غاص فيها مع سعد، وليست مثل مياه النيل ولا حتى مياه الرشاشات التي أغرقته أيام الثورة.

أول مرة تكونت هذه المياه حول أذنيه عندما صفعه أبوه، ظل الطنين في أذنيه مستمرًّا لأسبوعين، حتى صحبته أمه إلى مستشفى الجامعة، الاستقبال مزدحم بأمهات يحملن أطفالهن مثل أمه، وتخيل أن كل الآباء يصفعون أولادهم كل يوم مثل أبيه، وأن هذا هو مكان الاستشفاء من الصفعات. في هذا المستشفى أيضًا صحب أمه كل شهر لعام ونصف لتلقي جلسات الكيماوي، وفي هذا المستشفى أجرت جراحة الاستئصال ونجت، يُحمِّل أباه ذنب كل المرات التي ذهب فيها إلى هذا المكان، صفعاته تسبب الأمراض، من الطنين في أذنيه إلى الخلايا الخبيثة في ثدي أمه، صفعاته وكلماته ونبرة صوته ونظرات عينيه ولمسات أصابعه.

يعيش أبوه اليوم في عمارة قريبة من بيت أمه، لم يُطلَّقا لكنهما انفصلا، انصرف كل منهما عن الآخر إلى درجة أنهما عادا غريبين عن بعضهما. هو أيضًا ارتاح لهذا الانفصال، لكنه اعتاد المرور عليه كلما زار أمه، يجلس معه دقائق على مقعدين متقابلين في صالة ضيقة ممتلئة بالكتب ثم يغادر. يمضي أبوه وقته في القراءة والكتابة، لا يعرف ما الذي يكتبه بالضبط، أبحاث أو مقالات أو قصص لا يقرأها أحد، لكنه يمضي في كتابتها بكل عزمه، لا يسأله عن حاله ولا أولاده ولا زوجته ولا أمه، يسأله فقط عن العمل، والمال والأسفار، لم يتصل به مرة واحدة عند إصابته بالكورونا، اعتقد أن أمه لم تخبره لكنها أخبرته، يعتقد أن أباه لم يجد معنى لاتصاله به، بالتأكيد فكر أنه إن مات سيكون قدره، وإن عاش فلأنه حسن الحظ.

أحيانًا يفكر في أبيه، يحاول أن يفهم سبب عنفه معه ومع أمه وشقيقيه، في النهاية لا يتوصل إلى شيء، يفكر أنه طَبع، أن أباه أصلًا لا يرى الصورة كما يرونها، لا يدرك مدى قسوته، هذه طريقته في الحب والعشرة والتعامل، أو ربما ندم لأنه تزوج وأنجب، جلب أشخاصًا آخرين إلى الحياة التي يعلن عن كرهه لها طوال الوقت. لن يفهمه أبدًا.

قالت نانا إن أباه نرجسي وكاذب، لا يكره الحياة بل يعشقها، هو يكرههم لأنهم منعوه من عيشها، تقول إنها تفهمه جيدًا، الرجل فنان وكاتب، في المرة الوحيدة التي صحبها فيها إلى بيته لمقابلة عائلته في عامهما الدراسي الأخير، أهداها أبوه كتيبًا فيه خواطر

مثل القصاصات، تأملات له في الحياة، وكلها تنضح بشعوره الكبير بنفسه، وكراهيته لكل شيء أو شخص آخر.

ضحك مصطفى عندما تذكر كلام نانا، هو غير مضطر على العموم لمعرفة أسباب كراهية أبيه لهم، معرفة السبب لن تعيد شيئًا، لن تعيد كل رسوماته التي مزقها أبوه لأنه يراها قبيحة، وكل الأيام التي تذلل فيها طلبًا لبعض المال ليستطيع السفر إلى الكلية أو شراء أدوات، ولا كل المرات التي صفعه فيها أو حبسه في غرفته، أو جاء من الخارج بمزاج عكر فـ«دوّر» الضرب فيه وفي أمه وشقيقيه.

أبوه هو سبب كل ما حدث بعد ذلك، لأنه عندما وصل إلى محطة أنور السادات يوم ٢٦ يناير، ورأى أمين الشرطة يصفع المرأة أمام طفلها، غامت الرؤية أمام عينيه، وزاد الطنين في أذنيه، وحدث كل ما حدث.

صوت المترو

.. يُسمع صوت المترو بالقدمين أولًا، رجات تشبه تربيتة على ظهر طفل، دغدغة، تتصاعد إلى البطن ثم القلب ثم الرأس، تصل إلى العينين، فترى المترو قبل ظهوره خارجًا من النفق المظلم. يظهر مثل طوق نجاة، مثل كائن خرافي يخرج من أعماق بحر، مثل حبيب يظهر على ناصية الشارع. صوته غمغمة، نوستالجيا لرحلات قديمة في قطار متداعٍ إلى المصيف، إلى القرية، إلى الأحباء. همهمة تلف الأذنين وتحافظ على ثبات التون طوال الرحلة. يخفت مع خروجك من أعماق الأرض إلى السطح، لكنه لا يختفي أبدًا..

في آخر مرة التقيا فيها منذ سبع سنين، نام بجوارها ثم استيقظ ولم يجدها، لدقائق لم يفهم ما الذي حدث، ومضت لمحات من ليلة الأمس بضوء أحمر مثل معمل تحميض الصور داخل ذهنه لدرجة آلمته، لكنه عجز عن تبيُّن التفاصيل. وضع يده على جبهته وكأنه يريد كتم الصداع الذي شعر به فجأة يندلع في رأسه، تردد صوت مثل الأزيز في أذنيه، ورائحة تراب الغرفة الوسخة يؤذيه أكثر.

أدار عينيه في الغرفة وكأنه يراها لأول مرة في ضوء الشمس الداخل من النافذة، أقبح مما يتذكر، في الليلة الماضية لم تبدُ بهذا الشكل، الظلام يخفي الوسخ، أو ربما وجودها، هالتها أخفت كل شيء، كما أنها لم تبدُ وكأنها تلاحظ القذارة. كانت عيناها مثبتتين على وجهه فقط. نهض، ودخل الحمَّام ووقف أسفل الدش، تذكر ما حدث ليلة أمس بوضوح، عندما عاد من الأسفل بعلبة السجائر وجدها في مكانها لم تتحرك، تحمل الكاميرا وكأنها تحمل طفلًا، وضع علبة السجائر بجوارها ودخل إلى المطبخ، سمع صوت الكليك كلاك، ما الذي تصوره في الظلام؟ لم تكن ثمة إضاءة

في الشقة، لم يدفع الكهرباء منذ شهور، لم يحضر إلى هنا أصلًا منذ شهور، وعندما دعاها لمرافقته لم يضع حسابًا للظلام والغبار، كل ما فكر فيه رغبته فيها، وهي لم تتردد حتى، عرض عليها الأمر فوافقت. ربما ملت من السير في الشوارع، تعبت والمقاهي أغلقت أبوابها، أخبرها أن بإمكانهما اللحاق بالمترو قبل انتهاء مواعيده، جريا في الأنفاق ولحقا به، كان فارغًا وباردًا، والسماعات الداخلية لا تتوقف عن تكرار رسالتها بأن هذا هو القطار الأخير.

صوت المرأة في السماعات محايد جدًّا، تداخل صوتها مع صوت أزيز الضوء المتقطع من اللمبة شبه المحترقة، ومع ضجيج القطار. شعر بأنه في فيلم رعب، أو ربما فيلم من الأفلام التي لا يحدث فيها شيء، الأفلام التي كان يشاهدها مع سعد بعد انتهاء المحاضرات في عروض خاصة في وسط البلد ولا يفهم منها شيئًا لكن سعد يحبها.

نظر إلى وجه نانا، منحها الضوء المنعكس على جبينها هالة ما، لا لملاك ولا لشيطان، بينما اختفى نصفُ وجهها خلف خصلات شعرها. عيناها بلا تعبير، كفُّها تستقر في كفه باردة، لا صوت حتى لتنفسها، فكر أنها شبح، شبح عائد من الماضي ليختبره أو ينبهه أو ربما يثير ذعره، ثمَّة هاجس بأن المشاهد مكررة، على الرغم من أنهما لم يركبا المترو معًا من قبل طوال سنوات الدراسة. ركبا القطارات والميكروباصات وسيارات الأجرة أحيانًا، لكنهما لم يركبا المترو قط. الأجواء نفسها تغيَّرت، في الماضي، كانت ثمة بلادة في الجو، سكون وبطء وشعور عام باللزوجة. قبل ٢٠١١،

كانا يسيران بشكل طبيعي، وعندما يذهبان إلى بيته/ الاستديو أو إلى استديو سعد، لا يفكران أبدًا في الناس أو الألسنة والنظرات. الشوارع نفسها كانت صامتة أكثر، ربما أكثر نظافة أو أن الناس كانوا لا يعبأون، الحقيقة أنه لا يعلم، لكن وقتها لم يلحظ أن أحدًا ينظر إليهما، يصعدان وينزلان وكأنه شيء عادي. هذه المرة كان الوضع مربكًا والنظرات التي تلاحقهما منذ أن قررا الذهاب إلى شقة أرض اللواء تحرقهما، كأن الناس يراقبونهما ويعرفون ما الذي ينويان فعله.

المهم أنهما وصلا أخيرًا، منظر الشقة المغطاة بالتراب أزعجه، لكنه أصر ألا يعكر شيء ليلتهما، على الرغم من حساسية صدره ودخان السجائر الذي تنفثه نانا بلا توقف.

تذكَّر أنه خرج إليها حاملًا صينية عليها كوبا شاي، حمد الله عندما تمكن من إشعال البوتجاز، كانت الأنبوبة تحوي بعض الغاز، والصنبور ما يزال ينزل الماء. لم تكن الشقة مهجورة إلى هذا الحد، لم يأتِ منذ آخر معرض. وعندما سافر إلى روسيا وجاءته رسالتها شعر بانفراجة، لأول مرة ينتظر عودته إلى مصر ليراها، أراد أن يعرف ما الذي حدث في الثلاث سنوات الماضية، لماذا اختفت، وقاطعته بعد موت سعد وكأنه السبب، لماذا أغلقت حساباتها وانقطعت هكذا عن العالم.

لم تكن معه في لحظة موت سعد، تخيَّل أنه لمحها أمام مشرحة زينهم في اليوم التالي لكنها تلاشت بسرعة. قال لنفسه إنه طيفها الذي يظهر أمامه في بعض الأحيان. ربما بسبب علاقتهما التي استمرت

طويلًا حتى باتت أمرًا روتينيًّا وطبيعيًّا في حياته. لم يعتقد أنه سيأتي عليها يوم وتنتهي. كانا معًا منذ أن رآها على رصيف محطة شرق، تخرجا معًا من كليتيهما وظلَّا معًا لسنوات بعدها، ينقطع عنها لأيام وربما لشهور، لكنه يعود في كل مرة ويجدها لا تزال هنا، في مقهى استبينا بجوار الكلية، أو في الاستديو لدى سعد تساعده في تنظيم معرضه الجديد، أو في شرفة بيتها في طنطا تنتظره أن يمر. أو على ناصية شارعها ليأخذها أمامه على الدراجة ويتجولا في شوارع المدينة. في كل مرة يتصل بها ترد، وفي كل مرة تتصل هي به لا يفعل، لكنها لا تعاتبه، تنتظر دائمًا.. مثل تمثال في ميدان أو واجهة عرض تنتظر.

بعد موت سعد بدأت علاقتهما في الفتور، وكأنه هو من كان يجمعهما معًا على الرغم من أنه لم يتدخل قط بينهما، كان أصلًا يتعجب من علاقتهما طوال الوقت، وعلى الرغم من ذلك كان يعامل نانا بلطف، ويتركها تساعده في كل معرض، وينصاع لأوامرها وتحكماتها في ترتيب صالة العرض واختيار الألوان والإضاءة. كانت قريبة من مها زوجته أكثر، لكن حتى علاقتها بها انقطعت بعد موت سعد، اختفت نانا، اختفت حتى من السوشيال ميديا بعد التنحي. وبعد شهور، أراد أن يفاجئها، فذهب إلى بيتها ووقف للحظات أمام الباب ثابتًا، دق الجرس وانتظر لدقيقة، فتح له أبوها الباب، وقف بفانلة داخلية بيضاء ينظر له بدهشة، سأله إن كانت نانا بالبيت فقال - ودهشته تمنعه حتى من التساؤل - إنها نائمة، أعطاه السي دي الذي يحمله في يده بلا غطاء، وقفز درجات السلالم هابطًا، لم يزد في الكلام ولم يخبره بهويته.

عندما خرج من المطبخ ووضع صينية الشاي أمامها وذكرها بهذا اليوم، أخبرته أن أباها أيقظها وسألها عمن يكون، وأنها لم تفهم شيئًا، جرت إلى الشرفة لتعرف من هذا الشخص المجنون الذي حضر إلى بيتها ليترك لها سي دي، رأته من ظهره، عرفته من البيريه الذي لم يكن يخلعه من على رأسه، لكنها دخلت إلى البيت وقالت لأبيها إنها لم تر أحدًا تعرفه.

طلب منها أن تشغل السي دي أمامه، ارتجفت، فكرت في كل الاحتمالات لما يوجد على هذا السي دي، حتى إنها سألت نفسها لو كان قد سجل أحد لقاءاتهما بالفيديو، أو إن كانت أرسلت له أي صور أو رسائل مقلقة، كانت لحظات ثقيلة، ارتعشت يدها وهي تضع السي دي في اللاب توب، لكنها وجدت عليه آخر شيء يمكن أن تتوقعه، قصيدة بصوت أمل دنقل.

«ضد من.. ومتى القلب في الخفقان اطمأن..»

ضحكت بهيستيريا وهي تلقي البيت بصوت عالٍ مقلدة نبرة دنقل الرخيمة، ثم سألته عن السبب، لماذا حضر إلى بيتها ولماذا سي دي عليه قصيدة لأمل دنقل؟ قال ببساطة لأنه افتقدها، أراد أن يعبر لها عن أنه لم ينسها، لم ينس أنها تحب دنقل، وتحمل ديوانه في حقيبة ظهرها. نظرت في وجهه غير مصدقة، انقطع عنها شهورًا واختفى حتى شكت في وجوده من البداية، ليعود ويهديها قصيدة، ويذهب.

نظرت له ونظر لها، كانت جالسة على الكرسي تدخن في صمت بعد أن وضعت الكاميرا جانبًا، لم يسألها ماذا التقطت بها، أعطاها ظهره وأخرج اللاب توب من حقيبته، وقتها كان يعمل

على مشروع عمره، منذ موقعة الجمل وهو يفكر فيه، لا يزال يذكر كيف مشى في الشوارع بعد انتهاء المعركة لا يدري ماذا يفعل، رفعوا جثة سعد من أمامه، أخذوها إلى مشرحة زينهم وانتهى بالنسبة له وبالنسبة للعالم. هل انتهى فعلًا؟ لا تزال صورتهما معًا تذكره كل عام بلحظة موته، لكنهم منذ أن رفعوه، ككيس فارغ يرتدي ملابس بشرية، صار لا شيء. لا ينساه لكنه لا يتذكره، ثمَّة ضباب ما تكوَّن حول رأسه، وتركز على أذنيه، لم يسمع شيئًا، من يومها وهو لا يسمع إلا أصواتًا بعينها، طبقات خافتة من الصوت يسمعها بوضوح، الأصوات العالية لا تسترعي انتباهه، يمكنه أن يتجاهلها لأنها تبدو وكأنها قادمة من خلف طبقات كثيرة، أو كأنه يسمعها ورأسه غاطس داخل إناء ماء. لذلك بعد انتهاء المعركة وعلى الرغم من الضجيج من حوله، على الرغم من دوائر البشر الذين يحملون الجثث أو يعيدون وضع المتاريس على مداخل الشوارع وحول الميدان، فإنه لم يسمع شيئًا. نام في مكان ما، رصيف منزوٍ أو مدخل عمارة، لا يذكر، لم يستيقظ إلا في اليوم التالي والشمس تغرب، كان الهدوء مستمرًّا، صمت شديد وتموجات من ضوء لم يدرِ مصدرها، أراد أن يرى الصورة بشكل واضح فصعد العمارة العالية على ناصية شارع طلعت حرب، صعد السلالم الفارغة من أي أثر لسكان حتى وصل إلى السطح، وقف ليرى المعجزة، ندفات الضوء المتلاحمة المهتزة لبشر مثل يوم الحشر، رؤوس متجاورة مشتعلة، أمواج تتحرك على إيقاع هتافات تأتي من بعيد، دوائر تحيط بالكعكة الحجرية في دوائر أكبر وأكبر، بدا وكأنه ألقى حجرًا في بحيرة، والدوائر لا تزال تهتز وتتسع وتشتعل وتهدل

مثل الحمام، صوت أثار قشعريرة مستمرة داخله إلى اليوم. كان لا يزال ممسكًا بكاميرا سعد، رفعها والتقط صورًا كثيرة. اكتملت فكرته في عقله، ولم يجد شيئًا آخر يمكّنه من تجاوز الموت الذي لا يزال منطبعًا على كم قميصه إلا كل هذا الضوء.

نزل بعدها من مكانه، ومشى حتى وصل إلى مشرحة زينهم، ووقف هناك مع حشود البشر المجتمعين في انتظار جثامين أحبائهم. رأى عائلة سعد، زوجته وأمه وخاله، كانوا يبكون بينما انزوى هو في ركن غير بعيد، لم يتمكن من مواجهتهم، ولم يتمكن من أن يخبرهم بأنه كان إلى جواره، لكن الرصاصة لم تختره واختارت سعد. ولم يرد أن يعيد الكاميرا، ليس لصًّا، لكنه شعر بأنه لو تخلى عن الكاميرا لفقد نفسه وعقله وأسباب استمراره في العيش والسير والهتاف والغضب.

وضعت كفها على كتفه فعاد إلى العالم، قربت وجهها منه، لا تزال عيناها كما هي، منذ أن رآها تقف وحدها على رصيف محطة شرق تنتظر القطار، اعتقد أنها من الإسكندرية قبل أن يكتشف أنها جارته في نفس المدينة، يومها نظرت له بنفس النظرة على الرغم من أنها لا تعرفه، نظرة محبة، ليس حبًّا رومانسيًّا مثل الأفلام، لكنه حب معرفة، وكأنها تعرفه جيدًا أو تراه من الداخل، تقول إنها تملك جهاز إكس راي في عينيها يجعلها ترى ما بداخل البشر، وعندما نظرت إليه على رصيف محطة شرق رأته من الداخل، رأت أنغام موسيقى وندفات ضوء تتراقص حول أعضاء جسمه. وفي تلك الليلة عندما نظرت له نفس النظرة، نسي المشروع والميدان والصمت والضوء،

قبلها قبلة خفيفة فأحاطت عنقه بيديها. نهض من مكانه وحملها، كانت خفيفة جدًّا، رفعها على كتفه مثلما يرفع حقائبه ودخلا إلى غرفة النوم.

كانت ضئيلة جدًّا بين يديه، ضئيلة وصامتة ومستسلمة لقبلاته، أخبرها أنه لم يقبل امرأة كل هذه القبلات في ليلة واحدة، حتى هي لم يقبلها بهذا الشكل من قبل، بدا وكأنه يتعرف عليها من جديد، يحفظ كل جزء في جسمها، يعرف جيدًا طعم شفتيها وجلدها، يقول إن لها طعم زبدة الفول السوداني، وكانت تضحك من تشبيهاته، لكن في هذا اليوم لم يكن لها طعم، مثل دمية لكنها دمية جميلة، على الرغم من أنها لا تتكلم فإن حرارة ما انبعثت من داخلها إليه.

شفتاها ازرقتا من ضغط شفتيه، ويداه تمسدان كل جزء فيها، تعتصران ثدييها وتضغطان على بطنها وتلتفان حول فخذيها. تلف يديها حول عنقه وساقيها حول خصره فقط، لكنها لا تتحرك ولا تتكلم ولا تتأوه، لم ينتبه لذلك لحظتها، لكنه يتذكر الآن ويتساءل.

عندما تأوه هو نظرت له كأنها انتبهت، فتأوهت أيضًا، عاد لامتصاص شفتيها، كاد يبتلعهما ويبتلعها كلها داخله، أراد أن يسمع صوتها، ناداها فأجابته بتنهيدة، طلب منها أن تتحدث، أن تخبره بما تفكر فيه، فنظرت له فقط. نفس نظرتها المحبة، نظرتها وهما يجلسان في القطار أو يتناولان الغداء أو يسيران في الشارع، لم تكن نظرة امرأة مع رجل في فراش. لكنها بدأت في التحدث، وكأنها تبعد عن نفسها تهمة، تتحدث في أمور بعيدة وكأنهما يتمشيان في الشارع، عن الفن والكتابة وعن أول مرة يلتقيان فيها.

ذكرته بمرتهما الأولى، تحكي القصة وكأنها حدثت لشخصين غيرهما، كانا يجلسان معًا في أتيليه السطح لتساعده في تسليم لوحة متأخرة، تأخر الوقت وغادر الجميع وهبط الظلام، تصف له المكان والزمان وكأنه لم يكن معها. صوتها بدا مثيرًا جدًّا، والقصة على الرغم من أنها قصته بدت إيروتيكية للغاية، وصفت نظراتها له ونظراته لها، كيف نهض وترك لوحته ودفعها برفق إلى الحائط وقبلها قبلة طويلة، طويلة جدًّا إلى درجة أن الظلام ازداد عتامة، رفع فخذها إلى وسطه، كان مثارًا ومتوترًا بينما هي أكثر هدوءًا، أحاطت وجهه بكفيها وقبلته ببطء بينما ضغط هو جسمها أكثر إلى الحائط، حتى شعر بارتجافتها في حضنه.

حكيها هيَّجه، بدا وكأنه حدث منذ ساعات وليس سنين، صوتها وطريقتها أعادا له إحساسه بنسمات الهواء البارد، شم رائحة ألوان الزيت، وخشب الشاسيهات المُندى بماء فرد اللوحات، وذرات الغبار المعلق في الجو. تذكر أنفاسها ورائحة الفانيليا المنبعثة منها، واستعاد مذاق فمها، فتحرك بسرعة فوق جسمها، حرك فخذيها بذراعيه وغاص داخلها، في هذه اللحظة سمع حركة دمائها في الشرايين، سمع دقات قلبها المتسارعة، سمع صوت احتكاكه داخلها، سمع أنفاسها وطقطقة عظامها وحركة رموشها، سمع نبضاتها ونبضاته ثم ساد الصمت، ظل فوقها لدقائق قبل أن ينقلب على ظهره، نظرت له وأغمضت عينيها.

صوت الهتاف

.. مثل هدير خافت يتصاعد، اقتراب خيول برية جامحة، تسونامي يقترب من مدينة، مثل صوت رياح تهمهم من بعيد، أحدثتها رفرفة جناحي فراشة في نهاية العالم. يُسمع الصوت من الحشود وكأنه يصدر من داخلهم، أفواههم أحيانًا مغلقة، لكن الصوت يخرج من أعينهم، من أصابعهم، من البثور على جلدهم. ذبذبات خافتة تتصاعد، تأمل ترددداتها على أجهزة قياسك، تابع ارتفاع التردد وانخفاضه، تعرُّجه مثل دقات قلب، ثم انحناءه مثل راقصة باليه. الهتاف الذي يخرج من القلوب لا يشبه صوتًا، أو ربما هو صوت الخالق، أو هو الخالق يتجلى أمامك في ذبذبة، فتخر صعقًا..

سحب نفسه إلى تحت الدُّش، يتمنى لو تخلص من كل أثر للمرض كما يتخلص من الأوساخ والعرق أسفل الماء. تذكر وقفته المماثلة أسفل الدُّش في الحمَّام القذر لشقة أرض اللواء. عندما أسند رأسه على الحائط الجيري المتشقق، انتابه وقتها شعور مماثل، وكأن الصداع يمد فروعه من جبهته إلى كفيِّ يديه، صداع في كف يده! لم يدرك أن هذا ممكن. وقتها، سمع حركة مضطربة في الخارج فلف المنشفة حول خصره وخرج، وجدها تقف في الظلام بملابسها كاملة، تضع جهاز التسجيل الذي تركه مفتوحًا على الكومود بجوار الفراش الليلة الماضية على كف يدها المفتوحة. ظلت صامتة تنظر إليه، سألها لماذا ترتدي ملابسها فسألته عما تحمله في يدها، شوحت بجهاز التسجيل في وجهه وكأنه سكين، ارتبك ولم يعرف بم يجيب.

سألته إن كان سجل ليلتهما معًا فلم يرد، ألقت بالجهاز على السرير وطلبت منه أن يوصلها، اقترب منها، حاول وضع ذراعه حول كتفها فمنعته، قال إنه لا يقصد شيئًا وإنها يجب أن تفهمه أكثر من ذلك.

لم يتمكن من الشرح، منذ وفاة سعد وهو مهووس بالتسجيل، تسجيل كل شيء، تسجيل الصوت والصورة، يريد أن يملك سجلات لكل شخص يحبه، يتمكن من استعادتها عندما يموت، يريد أن تدخل أصوات حياته في فنه، يريد أن يصنع منها شيئًا خالدًا، مثل معرضه الأول الذي تمكن فيه من تثبيت صوت ذاكرته. جمع الأجهزة القديمة من باعة الروبابيكيا لسنة كاملة، ماكينات خياطة وثلاجات وغسالات وخلاطات، سار في حواري مصر القديمة ليسجل أصوات المؤذنين يوم الجمعة، الخطب في المساجد الصغيرة، نداءات الباعة على بضائعهم في الأسواق، غلق وفتح أبواب الميكروباص والتاكسيات، خطوات المارة في الشوارع المتربة، حك النعال في الأسفلت، صيحات النساء خلف الشبابيك، مناداتهن لأولادهن الذين يلعبون في الشارع، لعب الأولاد في الشارع.

عندما مزج هذه الأصوات كلها معًا تمكن من استعادة أوقات بعيدة، عندما كان طفلًا لا يشعر سوى بالحياة العادية تمر خلاله ومن حوله، وقتها لم يكن قادرًا على وصف الموت، لم يمنحه رائحة مزيل عرق أكس ولا شكل ابتسامة متجمدة ولا طعم العرق المختلط بالشعر. لا يسعده سوى رسم اللوحات الصغيرة التي تعلقها أمه على الحائط، ثم يلقيها أبوه في القمامة. استعاد لحظات كانت فيها الشوارع فارغة وصفراء، والهدوء مختلف عن هدوء ميدان التحرير بعد موقعة الجمل، هدوء طيب يتمنى استعادته، كما يتمنى استعادة صوت سعد، صوت الهمهمات التي تلي ضحكته المكتومة، وصوت رشفه للقهوة في الكوب البرتقالي. لا يعرف

كيف نسيه، كيف جرؤ على نسيان صوته بعد موته، على الرغم من أنه كان قادرًا على استرجاعه أي وقت وهو حي.

سألها: لماذا ننسى الراحلين بهذه السهولة؟ ننساهم على الرغم من أنه من المفترض أن يحدث العكس. لماذا وجدوا أصلًا إن كانوا سيتلاشون في النهاية؟ سننسى أولًا أصواتهم، ثم طريقتهم في المشي، ثم لمسة أيديهم عند المصافحة، ثم روائحهم، وفي النهاية ستتحول الوجوه إلى كتل معتمة، عجين بلا ملامح.

يتحدث وكأنه يلقي مونولوجًا في مسرحية لكنها لم تسمعه، فرَّت من أمامه، جرت على السلم فجري خلفها وهو يرتدي ملابسه، لحق بها في الشارع، سار بجوارها في شوارع أرض اللواء الفارغة في تلك الساعة. على الجانبين بقايا طعام وأقفاص مقلوبة وتراب كثير، لا يذكر أن الشوارع كانت تمتلئ بالتراب بهذا الشكل، لم تصبح كذلك إلا منذ عام أو أكثر، رائحة التراب تملأ أنفه، التراب يملأ عينيه، يغطي أذنيه وكأنه لا يسمع. منذ أن وقف على قمة العمارة المطلة على ميدان التحرير يوم موت سعد، وسمع الهتاف، وهو عاجز عن سماع أيِّ شيء آخر، إلا الأصوات التافهة الضئيلة.

كم من الوقت استغرقه لإعادة هذه اللحظة؟ لم يفعل شيئًا من يومها سوى العمل على ذلك، ادعى أن الفكرة من أجل الفن فقط، عندما قدم أوراق طلب المنحة لبدء مشروعه الفني الجديد قال إن الغرض إعادة خلق جديدة لميدان التحرير في الـ١٨ يومًا، كان العالم وقتها لا يزال متحمسًا لثورة صنعها أشخاص عاديون، يسيرون في الشوارع ويأكلون ويشربون وينامون كل يوم بلا جديد، ثم يقررون

فجأة أن يحتشدوا كرجل واحد في ميدان واحد، أن يتحولوا إلى كتلة ضوء، غير قابلة للاختراق، أن يصبح الصوت واحدًا والشكل واحدًا والتفكير واحدًا، على الرغم من كل ما حدث بعد ذلك.

قُبل مشروعه فورًا، لكنه لم يقل السبب الحقيقي خلف الفكرة، إنه يريد استعادة اللحظة من أجل سعد، ربما لو فعلها لقام من قبره وعاد إليه من جديد، ربما ابتسم وأخبره أنها فكرة مدهشة كما قال على كل أفكاره حتى البلهاء. كان سيتحمس ويساعده في توصيل ليدات الضوء بعضها ببعض فوق الخريطة الكبيرة لميدان التحرير، سيبتكر معه البرمجة اللازمة لإضاءتها بترددات الهتافات، وسيسير رواد المعرض حول الخريطة على سلالم مرتفعة ليروها من منظور علوي، ليروا الضوء يقوى ويخف، ويسمعوا هسيس الذبذبات لمزيج الصوت، ستغمرهم القشعريرة وسيتجسد لهم كل ما حدث، ستتجسد أطياف كل من كانوا هناك، سيُبعث الميدان من جديد، وسيقوم الموتى من القبور، وسيعود الضالون إلى رشدهم، وستتحقق الأحلام كلها، ولو لدقائق قليلة تستغرقها الجولة.

هو أيضًا تحمس لكل مشاريع سعد، منذ اليوم الأول لصداقتهما، عندما صارحه بفكرته عن معرض يستعيد به أشباح سفينة غارقة في البحر الأحمر، وعندما سافر معه إلى الغردقة شهورًا يتعلم فيها الغوص والتصوير تحت الماء، وعندما درس في ورشة خاصة لتسجيل الصوت أسفل الماء، وعندما غطس معه في تلك الليلة التي لن ينساها، وعندما عادا ليطوفا محافظات مصر، يبحثان عن الناجين من العبارة، ويسجلان شهاداتهم. ثم عندما سهر طوال

الليل مع نانا يبحثان عن أي تقارير صوتية عن الحادث، وعن تسجيلات الصندوق الأسود، وعن صوت مذيع نشرة الأخبار وهو يعلن وصول الجثامين إلى ميناء سفاجا.

تحمس لمشروع لا يخصه من أجل سعد الذي أراد استعادة طيف أبيه. علاقة سعد بأبيه كانت مثار حسد مصطفى، يحسده على أبيه الميت لأن أباه الحي يجلس في غرفته ولا يمنحه حتى نظرة، ميت موجود وحي غائب، أليسا هما أيضًا كذلك اليوم؟ سعد لا يزال موجودًا، حُفظت ملامحه داخل عقل كل شخص حي في هذه المدينة. بينما يعيش مصطفى وكأنه شبح، لا يفكر في شيء سوى الأصوات، لا يريد شيئًا سوى جمعها وتدقيقها ومزجها ومنحها سلطة ما، منحها حياة أخرى وكأنها ستكمل السير دونه، وكأنها ستتجاوزه، تتجاوز مصطفى الذي لا يزال واقفًا أمام مجمع التحرير منذ سنوات وتبدأ حياة جديدة.

ظل شهورًا يخيط الليدات على القماش، يركبها ويفكها ويعيد ترتيبها، لا يصمم خريطة مطابقة للواقع، بل طبقًا لتخيله هو عن المكان الذي قضى فيه ١٨ يومًا، وعرف فيه نفسه، وفقد فيه نفسه.

توقفت حياته ولم يعد منشغلًا سوى بهذا المشروع، نسي كل شيء، أمه وعمله وحياته، نسي حتى نفسه، صار أشبه بتمثال من الطين الأحمر، مثل التماثيل التي نحتها في الكلية، تمثال طري مبتل يمكن تشكيله بسهولة، ولم يعد يشعر بشيء، لم يكن يفكر حتى، لا يريد سوى أن يستعيد مشاعره في هذا اليوم، أو حتى أن يتقمصها من جديد.

لماذا اتجه أصلًا إلى ميدان التحرير في ذلك اليوم؟ لم يتحمس كثيرًا لدعوات الخروج على الفيسبوك، حتى بعدما هاتفه سعد بصوت مبحوح يصف له ما يحدث، الجري في شارعي قصر النيل وطلعت حرب، والاختباء في مداخل البيوت وربما داخلها، يضحك ويقول إنه أعاد تمثيل مشهد عمر الشريف في فيلم «في بيتنا رجل»، لا ينقصه سوى قنبلة ليفجر نفسه في النهاية. لكنه لم يتحمس. لم يتخيل أنه عندما يتوقف به المترو في محطة أنور السادات في اليوم التالي، سيتجه إلى السلالم ويخرج، سيخرج لأنه رأى رجل أمن يضرب امرأة، امرأة معها طفل، يجذبها من الحجاب ويسبها سائلًا عما تفعله هنا، بدا على وجه المرأة علامات عدم الفهم، لم تدرك أن فوق رأسها تدور معركة، وأنها وصلت في لحظة غير مناسبة. ولم يدرِ بنفسه إلا وهو يجذبها من بين يدي الأمين، ويدفعه ليسقط على الأرض. كيف تحول كل شيء أمام عينيه إلى اللون الأحمر، ولماذا طلب من المرأة أن تكمل طريقها إلى محطة أخرى، بينما هو لم يكمله، خرج من السلالم أمام شارع محمد محمود، والتحم بكتلة بشرية لا يعرف إلى أين تتجه.

انعزل التحرير بعد إلغاء محطة السادات، لا يتوقف فيها ولا يعترف بها، لم يخرج أحد بعده من فتحة السلالم، انتهى وجود الناس أسفل الأرض في هذه المنطقة، وكأنهم غادروا قبورهم وتركوها خالية، صعدوا جميعًا إلى السطح وبقوا عليه، كانوا ينتشرون في الشوارع المحيطة مثل سريان الدماء في جسد ميت، بسرعة ولهفة وبعض الهيستيريا، لا يتذكر كيف قابل سعد وسط الزحام والهرج والمرج، وكيف هربا ليلتها من الاعتقال بأعجوبة،

ثم كيف عاد وحده في اليوم التالي، ثم اليوم التالي، حتى اليوم الذي بات فيه أمام المتحف المصري ليحميه مع الآخرين من النهب. لم يترك الميدان بعدها، ينام ويقوم ويأكل فيه. ثم بعد أيام وقف أمام الجمل، جمل حقيقي يهاجمه ظل واقفًا أمامه ثابتًا حتى انتصر، انتصارًا زائفًا لأن سعد الواقف خلفه مات والابتسامة على وجهه.

في اليوم التالي صعد على سطح العمارة، في اليوم التالي شاهد البشر يتحولون إلى جسد واحد عملاق ملتهب، في اليوم التالي سمع لآخر مرة أعلى صوت سيظل ساكنًا أذنيه، في اليوم التالي انعزل عن العالم.

لم تنطق نانا بكلمة طوال الطريق، توقفا لينتظرا أول ميكروباص يحملها إلى محطة القطار، حاول أن يخبرها بأنه لم يستطع تمالك نفسه، عندما بدأت فجأة في الكلام وهي نائمة تحته، وحكت له عن فكرة الكتاب الذي تريد كتابته عن البيوت، وعن قصة الأتيليه ومرتهما الأولى معًا، لمعت عيناها، وتهدج صوتها. بدت فاتنة. تسجيله كان رغمًا عن إرادته، يده تحركت وحدها لتضغط على الزر، هل اعتقدت أنه مثل هؤلاء الرجال الذين يلتقطون الصور ويصورون لقاءاتهم الجنسية بالفيديو لابتزاز البنات؟ هل يمكن أن تظن فيه ذلك؟

ربما ود استخدام صوتها في مشروع ما، مثلًا عرض صوتي لبشر يختلفون عمَّن يقابلهم كل يوم، عبارات ربما غير مترابطة، لكنها كلها تحمل تلك اللمعة التي يفتقدها، سيركب أصواتهم على صور التقطها، لهم أو لأشياء أخرى وأناس آخرين، من سيعرف

أنها هي لو استخدم صوتها؟ من حتى سيهتم؟ وكيف ترفض أن يخلد صوتها داخل كيان ما بدلًا من أن يذوب ويتلاشى كل يوم في الفراغ إلى أن تموت؟

حتى لو لم يستخدمه، لماذا لا يبقى محتفظًا به في سجلاته كتعويذة؟ ربما أراد استعادته ذات يوم، عندما يختفي هو أو تختفي هي ويشعر بأنه يحتاجها، لماذا لا تفهم أنه لا يستطيع أن يظل معها، لكنه يريدها أن تظل معه بشكل ما؟ الانقطاع التام مثل الموت الذي يكرهه، أو ربما لا يكرهه لكنه لا يفهمه، ولا يريد أن يفهمه.

سألها إن كانت غاضبة فلم تجب، بعد لحظات هزت رأسها نافية، نظرت له بشفقة غريبة وقالت إنها لا تشعر بشيء، غير قادرة على أن تشعر بشيء، لم يفهم ولم تزد هي شيئًا، توقف الميكروباص أمامهما، ركبت إلى جوار السائق، عيناها معلقتان بعينيه، وعيناه معلقتان بعينيها، حتى ابتعدت.

صوت الأغاني

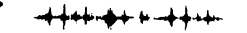

.. للأغاني كلها نفس الصوت مهما اختلف اللحن. تعرف ذلك أكثر من غيرك، لأن في كل مرة تسمع أغنية يهدأ تنفسك وتتضح رؤيتك، تُغسل كاملًا بماء من نوتات موسيقية، وتشعر وكأنك دلفت إلى حجرة زجاجية ضيقة تغمرك بأشعة طيفية لتمحو كل شيء ملون أو ملوث أو غريب فيك. يحملك صوت الأغاني إلى عالم آخر، وتحنُّ لأشياء بعيدة كنت تعتقد أنك نسيتها. تعود من جديد إلى هيئتك الأولى، رجل وحيد في حديقة يتأمل العالم بدهشة، وينتظر شيئًا سيخرج من داخله ثم يبتلعه. شيء شرير وطيب، حنون وقاسٍ، سيطرده من الجنة لكنه على الرغم من ذلك سيمنحه -بشكل ما- وطنًا جديدًا..

وقف أمام دولابه ليرتدي ملابسه عندما سمع صوت فيروز قادمًا من الصالة، «إيه في أمل»، تذكر أن نفس الأغنية دوت في سماعات أذنيه وهو يتمشى على نهر التايمز في صباح اليوم التالي لافتتاح عرضه في لندن، سافر بعد ليلته مع نانا بأيام وبدا وكأنه نسي كل شيء عنها، وقف خارج القاعة ينتظر الحضور لينهوا جولتهم حول الخريطة ويخرجوا، قلبه يخفق وكأنه لم يخفق منذ تلك الليلة، لم يستعد أنفاسه إلا عندما صافحه أول شخص، ورأى بنفسه العيون الدامعة، والوجوه المحمرة.

الحضور الكبير فاق تصوراته. شعر للحظات بالتردد، ود لو يقول إن هذا المشروع كله بسبب سعد، الصور التُقطت بكاميرا سعد، والذبذبات، الهتافات والأصوات والترددات للمبات الليد على الخريطة الكبيرة كلها بسبب سعد لكنه لم يقل شيئًا.

قابله للمرة الأولى في عامه الثاني من الكلية، كان سعد معيدًا لمادة «رسم وتصوير»، وفي بعض الأحيان يصطحب الدفعة ليرسموا على الطبيعة في مصر القديمة والمناطق الشعبية، لا يعرف ما الذي جذب سعد إليه، ربما لأنه الطالب الوحيد الذي ذهب معه إلى الجامع الأقمر

ليصليا الظهر، بعد انتهاء الصلاة، تقابلا وهما ينتعلان أحذيتهما، سأله سعد لو يرغب في شرب أحلى تمر هندي معه ووافق، تمشيا في الشوارع الضيقة، ووقفا أمام عربة معدنية لامعة من انعكاس الماء المتبقي عليها، تناولا من البائع كوبين من التمر، ومازحه سعد سائلًا إياه عن طريقة صنعه للتمر لأنه يود بدء مشروعه الخاص به، ضحك مصطفى، أعجبه تباسط المعيد مع البائع ومعه، كان على عكسه مرحًا ومتحدثًا، «يدخل القلب» كما تصف أمه الأشخاص الطيبين. انتهيا من الكوبين، ثم تمشيا في شارع المعز، أشار سعد بيديه إلى الجوامع والمشربيات والمآذن والسُّبل، وحكى له تاريخ كل مبنى، كان أشبه بموسوعة تاريخية. أحب طريقته في الكلام، واهتمامه الكبير بالأصوات، لفت نظره إلى صوت الأذان المنبعث من الجوامع، مزيج أصوات غريب، لأول مرة ينتبه إلى أنه كلما سمع صوت الشيخ الشعراوي عاد بذهنه إلى صباحات الجمعة في البيت القديم. أخبره سعد أنه عندما يسمع صوته يشم رائحة الصابون، لأن أمه كانت تحممه كل جمعة. أخبره أن الصوت معقد جدًّا، وأنه يتحكم في كل الحواس الأخرى.

صوت سعد الذي لمع في عقله وهو يتمشى على نهر التايمز يستمع إلى فيروز، جعله يستعيد طعم التمر الهندي المثلج في يوم حار، ويشم رائحة البخور المنبعثة من المقاهي ويرى الألوان المتداخلة أمام الحوائط الباهتة للمباني القديمة؛ ألوان ملابس معلقة للبيع، وخضروات مصفوفة على عربات خشبية، وأنتيكات مصنوعة باليد تباع للسائحين.

استعاد صوت نانا أيضًا، كلما سمع أغنية أرسلتها له يتذكر صوتها، كانت ترسل له كل يوم أغنية، لم تنقطع سوى بعد موت

سعد، فكر أن يرسل لها أغنية فيروز ثم تراجع، أحيانًا لا يفهم نفسه، هذه الفتاة التي رأى العالم كله من خلالها، هي في نفس الوقت عقدته وذنبه الدائم. لا يستطيع أن ينسى شكلها وهي تقف على رصيف المحطة، شعرها يتطاير وقرطاها الدائريان الكبيران يهتزان حول وجهها، كانت تضع الكحل بكثافة حول عينيها، بينما ظل بقية وجهها شاحبًا بلا مكياج، ظهرها منحنٍ قليلًا من حقيبة الظهر، تحمل الأرت باج الضخمة في يدها، وتبتسم، تبتسم له وهو يسير باتجاهها وكأنها تعرفه، لحظتها وقع في الحب والكره في نفس الوقت، أحبها وكرهها، انجذب إليها ونفر منها. تجاوزها، وراقبها تركب عربة قطار أخرى ثم سار بداخل العربات المزدحمة يبحث عنها على المقاعد الخشبية حتى وجدها. من يومها وهو ينتظرها كل يوم على باب كليتها ليسير معها من الزمالك إلى رمسيس. يركبان القطار ويوصلها قرب بيتها، ثم يقف أمام شرفتها قرب الفجر ليحدثها في التليفون.

ذات ليلة أرسل لها رسالة يخبرها فيها أن الكنيسة الكائنة إلى جوار بيتها تحترق، أغلق الهاتف وراقبها وهي تخرج رأسها من الشباك وتنظر، كانت تربط شعرها بإيشارب تخرج منه بكرة لفت عليها غرتها. ضحك بصوت عالٍ فانتبهت له، أشارت له بإصبعها إشارة بذيئة وأغلقت الشباك ثم عادت وفتحته وأرسلت له قبلة في الهواء.

صوتها

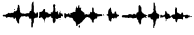

.. تتشبث بصوتها لتعود بالزمن، صوت الأحباء ملاذ ومأمن. في لحظات الهشاشة تسترجعه كتراتيل مقدسة. صوتها المكتوم وكأنها خنفاء يجعلك دائمًا متحفزًا لشيء ما، وكأنك على وشك إخراج لؤلؤة من محارة. صوتها يجعلك أكثر ثباتًا، وكأن وجودك يزداد ثقلًا على الأرض، مثل شبح يكتسي بالعظم واللحم والجلد ليعود إنسانًا. صوتها يشعرك بأنك أنت الحقيقي وليس المزيف..

تزوج علا بعدما علم أنه لن يتمكن من البقاء وحيدًا أكثر من ذلك، في لحظة ما، ضغط الصمت على أذنيه إلى درجة أنهما كادتا تنفجران. نهض من أمام الكمبيوتر وخرج إلى الشرفة، لم يسمع الصخب في الشارع أسفله، سباب الشباب وخناقات الجارات وأصوات السيارات والموتوسيكلات، ثمَّة عنكبوت تغزل خيوطها حول أذنيه، خيوط هشة لكنها عازلة، خيوط تصطاد الأصوات الخافتة فقط، صوت سريان المياه في المواسير، والفريون في التكييفات، وصوت هفهفة طائرة ورقية في السماء، أو خرفشة قطة في القمامة. صوت تكات الأزرار في الهواتف وطقطقة أصابع اليدين وحك الأحذية في الأسفلت وأصوات مضغ الطعام، كادت تودي به إلى الجنون، دخل إلى غرفته وارتدى ملابسه وعاد إلى طنطا. وعندما دخل على أمه فجرًا أخبرها أنه سيتزوج علا.

جارته وحبه الأول، فتاة هادئة يعرفها منذ الطفولة، تعيش في نفس حارته الضيقة، نانا أيضًا تعيش في نفس المنطقة لكن يفصل بينهما شريط سكة حديد وسور متهدم، شريط سكة حديد متوازي القضيبين، يبدوان وكأنهما يمتدان إلى ما لا نهاية، بلا مستقبل،

مثل علاقتهما. لكن علا قريبة، تقف دائمًا في الشرفة لانتظاره عندما يأتي في نهاية الأسبوع لزيارة أمه، تضع الطرحة حول رأسها بإهمال لتنسدل منها خصلات شعرها الأسود الناعم، وتنظر له نظرات البنات اللاتي يتصنعن عدم الاهتمام. نظرة رآها في عيون أمريكيات وإنجليزيات واسكتلنديات وألمانيات، يحفظها جيدًا، لكنه يتبعها خارج مصر بمغازلة ودعوة على شراب ثم ليلة عابرة، في مصر ستقوده إلى الزواج وإنجاب طفلين وعيش حياة لا يشعر أنها حياته، لكنه سيكمل فيها، سيكمل فيها وهو ثابت مكانه.

حتى إجراءات الزواج لم تكن صعبة، أنهت أمه الموضوع في أيام، وخلال شهور غيَّر حالته على الفيسبوك إلى متزوج، جاءته تهنئات بكل اللغات، لكن التهنئة الوحيدة، التعليق الوحيد، الجملة الوحيدة، الانفعال الوحيد الذي انتظره لم يأتِ قط.

كل هذه الذكريات مع هشاشة جسمه بعد المرض أثارا اضطرابه، ارتدى ملابسه بصعوبة، وفكر أنه سيزور أمه ولن يعود إلا يوم لقاء نانا، سيراها ويخبرها بكل شيء، سيخبرها بحقيقة ما حدث في لقائهما الأخير، سيخبرها أنه كان وقتها فاقدًا لنفسه، ربما لا يزال كذلك إلى اليوم، أنه لم يفهم شيئًا منذ موت سعد، ثم مرض أمه المفاجئ الذي منعه من المشاركة في معظم الأحداث التالية، سيخبرها عن كل المعارض التي أقامها، وسيخبرها عن المعرض الأخير الذي أُقيم دون حضوره بسبب إصابته بالكورونا، والذي استخدم فيه صوتها، كان عرضًا حزينًا، لخيبات الناس، عرضًا لسنين مرت يشعر فيها أنه لا يعيش، أن الجميع من حوله

أموات، يسيرون في المكان، أو يجرون في المكان. الجري هو اللفظ المناسب، نجري في المكان دون أن نتقدم خطوة، لذلك سمى سعد عرضه «٣٠ يوم جري في المكان»، وارتدى بذلة الفضاء السخيفة ليجري في فقاعة شفافة كل يوم لمدة ساعة، ثم قبض عليه الأمن وظل أسبوعين مختفيًا قبل أن يظهر ويخطب مها.

عرض مصطفى الأخير «الانتباه إلى الصوت» كان نواته مقاطع الفيديو لسعد وهو يجري داخل الكرة، تُعرض على شاشة كبيرة بيضاء في صالة واسعة، وبجوارها شاشات أخرى، شاشة تعرض مشاهد من الميدان في الـ١٨ يومًا، وشاشة تعرض نفس اللقطة للميدان بعد ذلك على مدار سنوات، حتى نهاية عام ٢٠٢٠، بعدما تغيَّر كل شيء. صوَّر زحام الميدان الفوضوي، وصوَّر أيضًا فراغه وقت حظر التجول في بداية انتشار الكورونا، وركب على الصور أصوات الناس والموجودات والحياة.

لأعوام، كان يذهب إلى ميدان التحرير يومي الاثنين والجمعة ليصوره لمدة دقيقتين، من عدة زوايا، لم يدع شيئًا يمنعه، لا زواجه ولا مرض أمه ولا مشاكله في الجامعة ولا رسالة الماجستير، وعندما يسافر، يعهد بالأمر لتلميذ من تلاميذه في الكلية. سجل كل شيء، صوَّر الجدران في شارع محمد محمود، يتبدل ما عليها كل يوم، من رسومات الجرافيتي إلى صور مرسومة لشهداء إلى طبعات المطالبة بالمحاكمات، من عبارات السباب الفاحش إلى أسماء المختفين قسريًّا، من رسومات كاريكاتورية إلى خلفيات لإعلانات

مبوبة، ثم إلى مجرد أبيض مفتعل، أبيض يمحو كل شيء، يمحو التاريخ والذكريات والمشاعر.

صوَّر الأسلاك التي ظلت تحيط بمداخل ومخارج الشارع، صوَّر الحجارة الكبيرة والأسفلت المكسر، والمقاهي المغلقة ثم المفتوحة، والمحلات المهجورة ثم المجددة. صوَّر الكعكة الحجرية وهي تتحول من دائرة خضراء إلى شيء أكبر، معبد كامل يتوهج بالضوء، ومسلة تقف في المنتصف، مسلة من المفترض أنها تسجل ما حدث ويحدث وسيحدث، لكنه رآها مجرد بناء كبير، حائط صد، حولها تماثيل الكباش بوجوهها المهددة، وأمامها يقف رجال الأمن طوال اليوم، تحت الشمس والمطر، في الحر والبرد، في العطلات والأعياد، الكل ثابت في مكانه، الكل يجري في المكان.

سيصارح نانا بمشاعره المتذبذبة تجاهها حتى لو لم يكن يفهمها، وسيطلب منها ألا تختفي هذه المرة، أن تظل إلى جواره، سيصحبها إلى الاستديو الجديد في مدينة نصر، وسيعيدان كل ما حدث وكأنه لم يحدث منذ سنوات، سيعود معها بالزمن إلى الخلف ويحاول أن يستعيد معها حياته الملونة والصاخبة. ربما يستعيد وقتها أيضًا سمعه، وابتسامته وحركته، ربما يستعيد الإحساس بأنه ينتظر شيئًا، يتطلع إلى شيء. نانا تشبه نظارته القديمة قبل أن يجري عملية الليزك، يرتديها فتصبح الصورة واضحة والصوت أيضًا، كان يستغرب في طفولته من ضعف سمعه عندما يخلع النظارة، اكتشف

أن كل شيء متصل عندما تعرَّف على نانا. وبعدما اختفت، وبعدما أجرى العملية لتصحيح نظره، استغنى عن نظارته، لكن الرؤية لم تعد طبيعية، الصناعي لن يشبه الطبيعي أبدًا، هذا هو الفرق بين حياته الآن وحياته مع نانا، نفس الفرق بين وردة بلاستيكية بلا رائحة ووردة تتفتح أمامه في أصيص زرع.

صوتك

.. صوتك الذي يسمعه الجميع ليس حقيقيًا، صوتك مستعار يختلف عما يتردد داخل فراغ جسمك، تريد أن يسمع العالم صوتك الحقيقي، تعبئه في رسائل صوتية، تسجيلات ومقاطع فيديو ومكالمات وهتاف. تسكبه في آذان أحبائك، ربما يحفظه أحدهم داخله، ثم يبعثه ذات يوم ليثبت مرورك على الحياة. تتخيل صوتك مثل هدير داخل حائط، مثل سريان الماء في ماسورة، مثل نمو جذر داخل الأرض أو هواء يمر عبر تجاويف شجرة. صوتك هو تعريفك إلى العالم.. أو هو العالم بأكمله..

أخبر علا أنه سيسافر إلى طنطا لزيارة أمه، خافت أن يرهق نفسه، هو أصلًا ينهج عندما يذهب إلى الحمَّام لكنه أصر، لن يمشي من العباسية إلى رمسيس كما اعتاد أن يفعل، تذكر أيام سيره من شبرا إلى الميدان في مظاهرة. كانوا يخرجون من الميدان إلى الاتحادية أو يركضون على طول شوارع محمد محمود والقصر العيني، مجرد التذكر جعله يأخذ أنفاسه بصعوبة، يبدو أنه كبر فعلًا.

أخذ سيارة أجرة إلى المحطة، ثم حجز تذكرة في الدرجة المكيفة، ونام طوال الطريق. وعندما وصل إلى محطة طنطا، توقف لحظة، تأمل السماء التي كادت تظلم، والأضواء الصفراء الشاحبة، والساعة التي تفوِّت الدقائق، وتأمل الأرصفة المتجاورة والقضبان المغطاة بأكياس الحلويات والشيبسي والأكواب الورقية، والأكشاك التي باتت اليوم تحوي ماكينة صنع قهوة تركية وأفرنجية. وتذكر أيامًا بعيدة جلس فيها على رصيف المحطة بالساعات مع نانا، غير راغبين في العودة إلى منزليهما، ثم سيرهما بمحاذاة القضبان، وصولًا إلى جسر السكة الحديد حيث يفترقان، تعبر هي الشريط إلى بيتها ويدخل هو إلى الحارات الضيقة المتشعبة وصولًا إلى بيته.

سار في نفس الطرق، مشى على نفس الأسفلت، مر بكل المحلات التي يعرفها، كل شيء تغير لكنه كما هو، تغيرت ألوان الحوائط واللافتات وترتيب كراسي المقاهي، تحولت مكتبة الخردوات إلى محل اتصالات، والجزارة الكبيرة إلى سوبر ماركت، وتغيَّر الناس؛ يسيرون بوجوه إما مخبأة خلف الكمامات أو بوجوه بلا ملامح، عيون مغلقة وأنف مطموس وشفتين مشقوقتين. لا يعرف متى حدث كل هذا، ومتى تحولت الوجوه من مشاريع حكايات متخيلة لحيوات كثيرة، إلى وجه واحد متماثل، صوت واحد وقصة واحدة.

فكر في المرور على أبيه قبل زيارة أمه، لم يعرف لماذا يفكر منذ جاءته رسالة المسحة السلبية في كلمات نانا التي قالتها ذات يوم عنه، أراد أن يرى بنفسه، أن يرى في عينَيِّ أبيه أنه نادم على جلبه للحياة، أو أنه نادم على الحياة كلها.

وقف أمام الباب لحظة مترددًا ثم ضغط الجرس، فتح له أبوه بجلباب مبتل الكمين والبطن، نظر إلى وجهه ثم تركه وعاد إلى المطبخ، قال «حمد الله على السلامة» بغمغمة خافتة.

دخل وراءه، ظل واقفًا على باب المطبخ يراقبه وهو يكمل غسيل الصحون، بدا له ضئيلًا جدًّا، رجل في السبعين بوجه مكرمش وذقن بيضاء نصف نابتة وشعر أشعث يقف ليغسل الأطباق في مطبخ ضيق.

- إزيك يا بابا.

- زي ما أنا..

لم يسأله عن حاله، لكنه تطوع وأخبره بأنه صار أفضل، أنه أجرى المسحة ولم يعد معديًا، في حال كان قلقًا من العدوى. ابتسم أبوه

نصف ابتسامة بجانب فمه، بالتأكيد يسخر منه، شعر بذبذبة السخرية القديمة تخرج منه باتجاهه فاشتعل الغضب في رأسه. كاد يصيح به، يخبره بأنه أقسى أب في العالم، أنه بكى على والد صديقه الميت وهو يسمع شهادات الناجين من السفينة مع سعد منذ سنوات عندما تخيله يقاوم المياه بيديه ساعات قبل الغرق، ولكنه لن يبكي عليه إن مات الآن أمامه وهو يغسل الأطباق، بجلباب مبتل وخفٍّ ممزق.

بدا وكأن أباه يقرأ أفكاره، أغلق الصنبور وجفف يديه في الجلباب والتفت إليه، سأله:

- مالك؟

- مالي؟

مشى أبوه باتجاهه، توقف أمامه ونظر في عينيه، كان مرهقًا جدًّا وشعر أن نظرات أبيه تحرقه، تزعجه، وتُعيد الدوار إلى رأسه. أشاح بوجهه، سمع صوت أبيه قادمًا وكأنه من كهف بعيد:

- أنت بتكرهني. مش كده؟

نظر إليه في دهشة، لم يعرف بم يرد، انعقد لسانه، لن يقول شيئًا، لن يبلغه غرضه ليقول لكل الناس إن ابنه العاق يكرهه، بعدما صنعه وجعله الفنان الكبير الذي يلف العالم ليعرض أعماله. سيمشي ويتركه، سيعود إلى أمه ويحضنها ويخبرها أنه حمار، وأن حياته تبدو وكأنها لا شيء، وكأنه لم يفعل شيئًا طوال عمره، لأن فتاة حمقاء أرسلت له هذا الصباح أغنية، وطلبت لقاءه، فأعادته إلى الخلف عشر سنوات.

وقف مكانه يتابع أباه وهو يجلس خلف مكتبه المتهالك، يخفي نصف وجهه خلف كومة كتب، ويرتدي نظارته ويشعل سيجارة.

- أنا عارف إنك بتكرهني.

قالها بعادية وبمسحة سخرية، وكأنه يعلم مشاعر ابنه طوال عمره، لو كان يعرف فعلًا فهذه مصيبة أخرى تضاف إلى رصيد مصائبه، هز رأسه مبتسمًا بعدم تصديق، ندم أنه جاء لزيارته أصلًا، استدار ليغادر ثم غيَّر رأيه، عاد وجلس على المقعد أمام المكتب، وتذكر كلام نانا، كانت على حق، هذا رجل لا يملك حياة حقيقية، لا يملك شيئًا سوى عزلته. سرت في ظهره قشعريرة، في لحظة تجلى له وجهه في وجه أبيه، لاحظ لأول مرة الشبه الكبير بينهما، حتى ذقنه تتحول بسرعة إلى اللون الأبيض مثله، على الرغم من أنه لا يزال على مشارف الأربعين.

كان أبوه مستمرًّا في حديثه، بذل جهدًا كبيرًا ليجبر أذنيه على التقاط ذبذبات صوته، وجه نظره نحوه، وشعر بأنه يراه لأول مرة.

- أنا مش هاجي دلوقت وأغيرلك رأيك.. أنا اديتك أنت واخواتك الحياة اللي انتوا عايزينها.. دلوقت باعيش الحياة اللي أنا عايزها..

ثم أخفض عينيه إلى أوراقه، أمسك القلم وكأنه سيكتب شيئًا، ارتعشت أصابعه، قال دون أن ينظر إليه:

- الإنسان لازم يكون أناني في لحظة عشان يقدر يعيش..

رنت جملة أبيه واضحة في ذهنه كأنه استعاد السمع فجأة، انتصبت أذناه مثل كلب على وشك الهجوم، نظر إليه بعينين متسعتين ثم انكمش.. خاف، لأنه رأى نفسه مكانه بعد سنوات، لأنه بعد أيام سيُلقي بكل شيء في القمامة كما كان أبوه يُلقي برسوماته،

عندما يذهب ليقابل نانا ويتذكر لحظة وقف فيها متجمدًا بجوار سعد، وبعد ذلك ستنهار حياته إلى أن يقف ليغسل الصحون وحيدًا بجلباب مبتل. كل ما فعله لإنقاذ نفسه من الوحدة والأصوات الخافتة سينهار لأنه مثل أبيه لا يسمع الصوت الصحيح أبدًا، يسمع أشباح الأصوات، وينساق وراء الانعكاسات، ويترك الحقائق مقابل الخيالات الكامنة في ذبذبات مستنقع مظلم بعيد.

يعتقد أبوه أنه ضحى بحياته لأنه عاش مع أمه وأنجبهم، يعتقد أن الحياة المثلى له في الوحدة، ربما يكون على حق لكنه لا يستطيع أن يرى بؤسه، هو لم يصل إلى شيء، لا تراجع إلى الخلف ولا تقدم إلى الأمام، مثل الذين ساروا على خيط رفيع وتوقفوا في منتصفه. لأنه لم يمنحه هو وشقيقيه شيئًا، لا حب ولا ذكريات، وعندما تركهم لم يعش الحياة التي تمناها.

ما الحياة أصلًا؟ مجرد مزحة.. تطلُّع إلى هدف بعيد مضيء ومُغرٍ، وعندما نصل إليه نكتشف أنه محض سراب. تذكر اليوم الذي أخذته فيه نانا معها للتردد على كل محلات العطور بحثًا عن عطر بعينه تتذكره منذ الطفولة، نسيت اسمه لكنها وصفت شكل الزجاجة لكل البائعين حتى عرفه أحدهم، تناول من على الرف زجاجة سوداء صغيرة وقديمة وأخبرها أن إصداره توقف، لكنه لا يزال يملك هذه العبوة. عندما فتحتها وشمتها، لم تعجبها، قالت من المستحيل أن تكون هذه هي الرائحة التي تتذكرها، يومها ابتسم البائع وأخبرها أن الروائح مثل كل شيءٍ خدّاعة، العقل يخدع صاحبه بذكرى رائحة، يصنعها بنفسه تمسكًا بماضٍ لن يعود أبدًا.

عاد أبوه لكتابته وكأنه لم يقل شيئًا، نسي ابنه ونسي الزمان والمكان، لم يره وهو ينظر إليه بعينين متسعتين، مرت لحظات طويلة كأنها ساعات وهو ينظر إليه. يراه على حقيقته، مجرد رجل عجوز ساذج يجلس خلف مكتب ليخط أوهامًا. رجل ضيَّع حياته ولم يجدها كما يعتقد.

لأول مرة يبتسم في حضرة أبيه، الوحش الذي عاش في خياله طويلًا تضاءل، غمغم:

- أنا مبكرهكش يا بابا.. إنت صعبان عليا..

لا يعرف إن كان سمعه أم لا، نهض بسرعة وسار باتجاه الباب دون أن يلتفت خلفه، نزل على سلالم بيت أبيه وهو يلهث، لكنه خارجه، وهو في طريقه إلى بيت أمه، تأمل السماء أعلاه واستعاد انتظام أنفاسه. كانت مضيئة بنجوم كثيرة، ثمَّة نسمات لطيفة على الرغم من برد نهاية يناير، سمع أصوات لعب الأطفال في الشارع، وأحاديث النساء الجالسات على مداخل البيوت وابتسم، الشارع كما هو والحياة كما هي، وهو أيضًا كما هو لكنه يسمع بشكل مختلف. سينام الليلة في سريره القديم، وسيتذكر كل تفاصيل حياته القديمة، وسيستيقظ في الصباح وقد محا كل شيء. سيذهب لملاقاة نانا بعد أيام، لكنه لن يتخلى عن عائلته، سيقف معها أمام مجمع التحرير لكنه لن يتجمد بسبب طيف سعد الثابت هناك منذ عشر سنوات، لن ينشر صورتهما هذا العام، سينشر صورته مع نانا، وسيقول إنهما حيَّان، وإنهما حقيقيان، لكن لكل شخص حياته، والمحبة لا تنتهي، لكنها تتحول. المحبة لا تستطيع الجري

في المكان مثله، تتغير وتتقدم وتجمع كل التفاصيل الصغيرة، كل الذكريات والضحك والبكاء والأغاني والرسائل واللمسات والقبلات والألوان والأصوات والروائح والنكهات، تكبر ككرة ثلج إلى أن تصل لآخر الطريق، ثم تتناثر في الهواء مختلطة بذراته، لا تفنى، تصبح أخف وأجمل.

سيحضن نانا ويخبرها أنها لا تزال جميلة، سيسمعها ويسجل لقاءهما بموافقتها هذه المرة، وسيلتقط لها الكثير من الصور، وسيحكي لها عن ابنته التي ترسمه كل يوم رسمة مختلفة، تعلقها أمها على الثلاجة ويرسم هو بجوارها قلبًا صغيرًا بألوان مختلفة، لا يلقيها أبدًا في القمامة، يحتفظ بها في ملف خاص سيعطيه لها عندما تكبر. وسيحكي لها عن ابنه، لا يفعل شيئًا سوى مشاهدة الأغاني على التابلت، لكنه يرد عليه عندما يقول له «أحبك»، يرد «أحبك أكثررر»، ويكرر حرف الراء مثل صوت محرك حتى يتوقف من الضحك واللعاب السائل على ذقنه. سيحكي لها عن علا وشاي الصباح الذي تحضره لهما في الشرفة كل يوم. وستسمعه، مثلما كانت تسمعه كل يوم في القطار، وستمسك يده وتقبل وجنتيه وتعانقه، ثم سيذهبان كلٌ في طريقه، سيسيران إلى الأمام ولو خطوات قليلة، سيتوقفان عن الجري في المكان.

الحلاق والملك!

مسرحية من فصلين

(تأليف: يحيى الصاوي)

الفصل الأول

المشهد الأول

رائحةُ الدماء

الدماءُ: أصلُ العالمِ
رائحتُها رائحةُ الدنيا
دخانٌ وترابٌ.. صدأٌ وحزنٌ
الدماءُ داخلَكَ متاهاتٌ مفخخةٌ
خارجَكَ.. بقعةٌ باهتةٌ على الأسفلتِ
داخلَها.. أنت جنينٌ يكبرُ
خارجَها.. مجردُ دميةٍ فارغةٍ..
الدماءُ التي تتركُكَ
لن تعودَ أبدًا

(غرفة أنيقة مضيئة، ألوانها زاهية، بها مكتب صغير وأمامه مقعدان، وثمَّة وسادات متناثرة، يوجد شيزلونج بجانب الحائط، ومكتبة صغيرة بها كتب ونباتات صناعية. يُفتح الباب، ويدخل يحيى، شاب في منتصف الثلاثينيات، شعر خفيف ونظارة طبية، يرتدي جاكيت أزرق وجينز ووشاحًا ملونًا، يصافح الطبيب بحميمية ويجلس على المقعد أمام المكتب)

الطبيب: أهلًا بشاعرنا الكبير.. الذي فوَّت جلسة الشهر الماضي..

يحيى: مساء الفل.. آسف جدًّا يا دكتور.. سافرت فجأة، أمسية شعرية في الأردن ولم أتمكن من الاتصال للاعتذار.. حقك عليَّ.

الطبيب: أسامحك بشرط واحد.. تعدني بجلب سوفينير من السفرية القادمة.

يحيى: السوفينير حاضر من هذه السفرية.

(يفتح حقيبته ويخرج منها علبة مغلقة، يتناولها الطبيب وينظر داخلها، يُخرج منها إصبع حشيش صغير ملفوف)

الطبيب: مستحيل، كيف تمكنت من تمريره في المطار؟

يحيى: عيب يا دكتور، نحن نستطيع.

(يضحكان)

الطبيب: ها.. أخبرني، كيف كانت الرحلة؟

يحيى: جيدة.. أو أعني، ليس تمامًا، عادي.. لم أفعل شيئًا سوى البقاء في الفندق وتدخين الحشيش، بعد الأمسية لم أتمكن حتى من البقاء في نفس الفندق، أخذت حقيبتي وعدت.

الطبيب: لم تستمتع بأي شيء؟ الأكلات الجديدة؟ المناظر الطبيعية.. البنات؟

(يضحكان)

يحيى: أي أكل وأي مناظر؟ لم يعد شيء يدهشني، الحياة مثل صورة ثابتة، لم أكن أعرف أن فقدان الشمِّ يمكن أن يحوِّل الحياة إلى مجرد وعاء بلاستيكي، أسير فيه وأتخبط داخله، لا أعرف حتى كيف أتمكن من الشرح.

الطبيب: (يدوِّن شيئًا في مفكرته) هناك أي تحسن في الشم؟

يحيى: أبدًا، جربت كل شيء، ومارست كل التمارين، وجربت كل العطور والزيوت، لا أستعيد الشم

سوى في اللحظات القليلة أثناء تدخين سيجارة، وحتى في هذه اللحظات، أشم روائح أخرى، روائح قديمة، وتتلبسني مشاهد مرعبة، في المرة الأخيرة شممت رائحة دماء، أدخن سيجارة حشيش فتطاردني رائحة دماء.. يبدو أنني ملعون بشكلٍ ما.

الطبيب: من تعتقد أنه لعنك؟

يحيى: لا أعرف، لكن كل شيء بدأ من لحظة موت سعد، تخيل.. رجل لا أعرفه يموت أمامي فأفقد أنا حياتي.

الطبيب: لكنك أخبرتني أنك تعرفه.

يحيى: بشكلٍ ما، صديق أصدقائي، لم أعرف اسمه سوى في الصباح، عندما نشرت نانا صورته على الفيسبوك تسأل إن كان أحد قد رآه. قلت ربما يكون كل هذا محض حلم، أن أرى رجلًا يموت ثم يتضح أنني أعرفه، يتحول من غريب إلى شخص حقيقي، صديق صديقتك، رجل يحمل اسمًا، وله زوجة وأطفال وأم وأب، تحول الرجل الذي مات ليلة أمس إلى سعد البيومي.

الطبيب: هل شعرت بمسؤولية ما تجاه موته؟

يحيى: ربما، لأنني كنت الوحيد الذي أعرف أين هو في تلك اللحظة، كان راقدًا في ثلاجة المشرحة، ينتظر من يتعرف عليه، من يبكي على جثمانه،

من يقبله بين عينيه ويودعه التراب.. قلت لنانا اتصلي بياسمين، سألتني لماذا يجب أن تتصل بها؟ سكت، ولم تعاود السؤال، فهمت دون أن أجيب. ياسمين لم تغادر المشرحة لأيام، لن تعرف مكانه إلا إذا كان راقدًا أمامها على طاولة معدنية. عرفت نانا أن سعد مات وانتهى كل شيء.

الطبيب: لماذا اتصلت بنانا؟ كانت ستعرف وحدها.

يحيى: بصراحة.. تخيلته راقدًا وحده في مشرحة باردة، رجل حيٌّ تحوَّل في لحظة إلى خبر علينا إيصاله إلى أحبائه، تخيل أن تخبر شخصًا بأن صديقه مات أمامك، لم أخبرها أن الرصاصة أزَّت بجوار أذني مثل ذبابة عملاقة وأكملت طريقها، كانت تعرف طريقها جيدًا، عين رجل آخر يقف مبتسمًا أمامي، لم تفصلني عنه سوى أمتار، لم يفصلني عن الموت سوى حركة، سقط فسقطتُ، نهضتُ ولم ينهض.

الطبيب: لكن موته ليس ذنبك، أنت خرجت من السجن في نفس اليوم، كلاكما دفع الثمن.

يحيى: نعم، لكني خرجت وعشت أما هو فمات وانتهى، تفرغ الحياة من جسد أمامك فلا يعود أي شيء إلى ما كان عليه، رجل كان يمكن أن يكون صديقك ذات يوم، تحوَّل في لحظة إلى شبح.

الطبيب: كل شخص يموت في ميعاده.. الأمر أقوى منك ومنه.

يحيى: كان يمكن أن يكون أنا، كان يمكن أن تكون صورتي مكان صورته، اسمي مكان اسمه، كان يمكن أن أختفي من العالم، كنت سأجد من يحزن عليَّ، اليوم لو مت من سيحزن عليَّ؟ لا أحد. أنا والفراغ والنباتات والقطط والسجائر والمقاعد والهواء.

الطبيب: موته أشعرك بشكل ما بالوحدة؟

يحيى: لا أعرف.. لم أفكر فيها بهذا الشكل.

الطبيب: لماذا تشم رائحة دمائه؟

يحيى: ربما لأنني قضيت الليل أحيط دماءه بقوالب طوب، دماؤه على الأسفلت جرت مثل نهر، رفضت أن يطمسها أحد، أن تمسها الأحذية مثل ماء عطن. قلت: سأتركها محاطة بالطوب مثل ضريح مكشوف إلى أن تتشربها فراغات الأرض، سيندمج جزء منه في ذرات العالم، ليظل باقيًا بشكلٍ ما.

الطبيب: لكنك لم تفقد الشم وقتها، أنت تعرف أنك فقدت الشم مع إصابتك بالكورونا.

يحيى: كل المتعافين استعادوا الشم إلا أنا.. ثم إن نوبات فقدان الشم أصابتني قبل الكورونا.. على فترات أقصر من ذلك، مثل نوبات تداهمني فجأة وتذهب فجأة، لكنها تحدث.

الـطـبـيـب: الوضع مختلف معك.. هذا عرض نفسي نعمل على حله أنا وأنت.. لا لعنات في الأمر.

(صمت)

الـطـبـيـب: دعنا نلعب لعبة.. أنت تعرف أنني متسامح مع تدخين الحشيش.. دخن، وكلما استعدت رائحة سجلها.. ما رأيك؟

يـحـيـى: اتفقنا.

(يكتب الطبيب في ورقة..)

الـطـبـيـب: سنستمر على نفس الأدويـة.. بروزاك في الصباح وسيروكسات في المساء.. مع تمرين تسجيل الرائحة.

يـحـيـى: تمام.

الـطـبـيـب: يحيى.. ممنوع الكحوليات.. ممنوع الكوك.. حشيش فقط لأنني طبيب متسامح.. كما أنني أقبل الهدايا من هذا النوع.

(يشير إلى إصبع الحشيش)

(يضحكان.. يتصافحان.. يتبادلان بعض المزاح الهامس.. يغادر يحيى المكتب ويغلق الباب)

ظلام..

المشهد الثاني

رائحةُ الجِلْدِ

رأسُكَ المدفونُ بينَ نَهديها يؤلمُك
ورائحتُها تصيبُك برعشةٍ
جلدُها.. مثلُ ورقةِ سجائرِ
لو جذبتُه، يتقشرُ إلى بركانٍ ثائرٍ
يحرقُك.. يذيبُك..
وأنتَ خائفٌ..
قلْ: أنا خائفٌ..
ودُسَّ رأسَك في صدرها من جديد
خذ كفايتَك من الرائحةِ حتى تنفدَ
إن نفدَتْ رائحتُها.. انتهَتْ
واختفَتْ.. من الواقعِ ومن الذاكرة

(نفس الغرفة، يحيى يجلس على نفس المقعد، المكتب خالٍ، لا يوجد تغيير سوى في ترتيب الوسائد على الأرض. يدخل الطبيب مسرعًا يصافح يحيى ويجلس خلف مكتبه)

الطبيب: آسف جدًّا على التأخير.. الزحام شديد.

يحيى: نعم، الشوارع مغلقة بسبب إزاحة الستار عن الكباش في الميدان..

الطبيب: شاهدت مقاطع فيديو، شكل الميدان جميل جدًّا..

يحيى: جدًّا.

الطبيب: فعلًا؟ أعجبك؟

يحيى: بالتأكيد، لماذا تستغرب؟

الطبيب: أحيانًا أفكر أن تغيُّر شكل الميدان ربما يصيب بعض الأشخاص بالاضطراب، شكل اعتدنا عليه سنوات، محفوظ في الصور والأفلام، ثم إنه مرتبط معك بذكريات كثيرة.. بعض الأصدقاء أخبروني أنهم سعداء بالتغيير لكنهم في نفس الوقت مرتبكون بشأن تغيُّر الذكرى.

يـحـيـى: لا أفكر بهذا الشكل.. أعتقد أن التغيير جميل، نحن كنا نحلم بتغيير أجمل لبلدنا، لماذا نحزن عندما يحدث؟

الـطـبـيـب: تقصد الشكل الجمالي؟

يـحـيـى: نعم، أنا سعيد بشكل الميدان.. وأعتقد أنه يعبِّر أكثر عنا.

الـطـبـيـب: (يتراجع بظهره في المقعد إلى الخلف) هل أنت نادم؟

يـحـيـى: على ماذا؟ الثورة؟

(الطبيب ينظر إليه ولا يرد)

يـحـيـى: أبدًا.. كان لا بد أن تحدث، لكننا لن نعيش في ثورة إلى الأبد، هذه أحلام السذج.

الـطـبـيـب: السذج مثل نانا مثلًا؟

يـحـيـى: لا.. نانا ليست ساذجة.. هي فقط غاضبة.. هل أخبرتك أنها أرسلت لي رسالة على الإيميل؟ لأنها حظرتني على الفيسبوك بعد زواجها، لم أسألها قط عن السبب، ربما اشترط زوجها عليها ذلك.

الـطـبـيـب: غريب.. من حديثك لا أعتقد أنها من النوع الذي يقبل شروط الزوج.

يـحـيـى: بالفعل هى ليست كذلك، لكنها أخبرتني أنها غير سعيدة.

الـطـبـيـب: وبماذا نصحتها؟

يـــحـــيـــى: قلت لها ارجعي.. اتركيه وعودي إلى مصر، الوضع أفضل بكثير، على الأقل ثمَّة تغيرات حقيقية تحدث كل يوم. عندما تزوجت بهذا الشكل كان تبريرها أنها تود الهرب، تشعر أن الهواء ملوث، الهواء لم يعد ملوثًا.

أخبرتها أنني أعرف ما تفكر فيه، ستقول يحيى تحوَّل، يشارك في المؤتمرات الفخمة في الفنادق الفارهة ويلقي الشعر أمام المسؤولين ليدعوه إلى أمسيات في البلاد العربية، ويكتب الأغاني لمطربين تافهين. ويحضر المهرجانات مع الممثلين اللامعين. كل هذا صحيح، لكني لم أتحوَّل، أنا فقط فهمت الفرق بين المشي إلى الأمام والمشي في نفس المكان.

الـطـبـيـب: هل تفتقدها أحيانًا؟

يـــحـــيـــى: (يبتسم) ربما كصديقة، لكن ليس عاطفيًّا، على الأقل كانت واضحة، علاقة جسدية عملية دون توترات أو حزن أو شعور بالذنب، وأنا كنت ساذجًا، رغبت في الحب والزواج والأولاد ولم أحظَ بشيء.

الـطـبـيـب: أنت تعرف أن نانا كاذبة، هي ليست عملية، كانت فقط تتجاوز بك حبًّا آخر.

يـــحـــيـــى: نعم.. لكنها قالتها بوضوح. أما ياسمين فخدعتني بشكل ما، منحتني أملًا زائفًا ثم اختفت.

الطبيب: ياسمين كانت مريضة.

يحيى: أعرف.. لكني غير قادر على التعاطف معها، حتى بعد موتها.. ربما لأنها بشكل ما ماتت داخلي منذ زمن.

الطبيب: هل تريد رأيي؟ أعتقد أن نانا تذكرك بأبيك، وياسمين بأمك.

يحيى: غريب.. لم أفكر بهذا الشكل قط.

الطبيب: فكر فيها، أبوك كان واضحًا، تركيكما لكنه قال بوضوح إنه يريد استكمال حياته بعيدًا، يرسل لك مصروفك، ويتصل بك أحيانًا، أما أمك فبقيت بجوارك حتى ماتت. لكنها عذبتك، لم تقوَ على استكمال حياتها بشكل طبيعي، ويبدو أنها عكست عليك سخطها من أبيك.

يحيى: ربما.. ربما.. لكن أبي كان قاسيًا، نانا ليست قاسية.

الطبيب: ولا ياسمين ولا أمك.

يحيى: أحيانًا أشعر أنني المخطئ، أنا السبب في رحيل أبي، وفي موت أمي ذات ليلة وحيدة وأنا سهران مع أصدقاء لم يعودوا أصدقاء. وفي رحيل نانا وموت ياسمين. لا يمكن أن يقرر الجميع تركي بهذا الشكل ثم يكون العيب منهم وليس مني، ربما لا يحبني أحد بشكل كافٍ، ربما لا أستحق هذا الحب.

الطبيب: هذا غير صحيح، أنت فقط حساس، الشاعر يشعر بالأشياء بشكل مختلف.

يـــحـــيـــى: حتى الشعر هجرني، هذه الأغاني التي أكتبها وأبيعها ليست شعرًا، المسرحيات الساذجة التي أكتبها لتُضحك المتفرجين الساذجين ليست فنًّا.. الحقيقة أنني لست فخورًا بشيء.

الـطـبـيـب: ربما عليك أن تفعل، أحيانًا يجب أن ترضخ للحاضر لكي تستطيع تغيير المستقبل.. لكنك لم تخبرني، أي رائحة هبت عليك هذه المرة؟

(يضحكان.. يخرج يحيى ورقة من جيبه يبدو وكأنه يقرأ منها)

يـــحـــيـــى: رائحة نانا، ربما بسبب رسالتها، كانت تضع عطرًا له رائحة الورد والفانيليا، لم أسألها أبدًا عن اسمه، لكنه كلما هب عليَّ أفتقدها وأبتسم.. هل تعرف أنها أول من أخبرني بأنني لا أملك رائحة.

الـطـبـيـب: كيف؟

يـــحـــيـــى: كنا نسير على رصيف ضيق في شارع محمد محمود، نحاول تجاوز الأسلاك الشائكة التي سدت مخارجه ومداخله لأيام طوال. تأملت الشارع وكأنني أراه لأول مرة، آخر مرة سقطت هنا بعد أن اخترق بلي الخراطيش جسمي ورأسي، سالت دمائي ومعها تسربت الرائحة، عندما انتزعوها من جسمي لم أشعر بشيء، وكأنهم ينزعونها من شخص آخر، لا أذكر سوى السماء الزرقاء تظهر من السقف الممزق لخيمة المستشفى الميداني،

وفجأة لم أتمكن من شم أي رائحة، لا عرق، لا دماء، لا غضب، لا حزن. استمر هذا دقائق ثم استعدت الشم. أخبرت نانا بذلك، فقالت الحقيقة أن جسمك نفسه بلا رائحة، كانت تنظر لي نظرتها الباردة المغيَّمة، وكأنها تنظر إليَّ من عالم آخر.
أخبرتها أن كلماتها قاسية، رجل بلا رائحة مثل رجل بلا ذاكرة. كنت أستعيد ذكرياتي دائمًا بالروائح، رائحة الشاي في صباحات الجمعة، رائحة الغسيل المنشور في الشرفة وجلسات التلصص على بنات الجيران، رائحة البحر في أول سفرية للإسكندرية مع أصدقائي. قاطعتني.. قالت: يبدو أنك لم تعد قادرًا حتى على تذكر نفسك.

الطبيب: لمَ القسوة لو كانت علاقتكما عملية فقط؟

يحيى: طبعها.. هي عبقرية في ابتكار التعبيرات القاسية، تركب الجمل وكأنها هي من تكتب الشعر، ربما لهذا تركتها، تستغلني وأستغلها ثم تحاصرني بتأففها من كل شيء، نحن في نظر نانا مجموعة من الكاذبين، تصرخ لو تحدث أحد عن سعد، تلقي في وجوهنا أكواب الماء وتنفث دخان سجائرها في الهواء، ثم تعود معي إلى البيت، وكأن لا شيء حدث، تنام معي وكأنها مضطرة إلى ذلك، وكأننا زوجان عجوزان، ثم تقول أصدقاؤك أفاقون يا يحيى، وأنت أيضًا أفاق وضيق الأفق. مكابرون وحمقى.

الـطـبـيـب: يبدو لي أنها تعاني من اكتئاب حاد.

يـحـيـى: ربما. تحملتها كثيرًا، ربما بسبب كل المواقف بيننا. كانت معي يوم مسيرة محمد محمود، مسيرة عادية هاجموها بالخراطيش، حضنتها حتى لا يصيبها شيء فاخترق بلي الخراطيش ظهري ورأسي، نزفت، قلت ستموت الآن يا يحيى وينتهي كل شيء، لكنني عشت، نزعوا البلي وتركوني أعود إلى البيت، لم يبقَ لي سوى بعض الندوب السطحية، خفت شيئًا فشيئًا حتى تلاشت. لم أحصل حتى على أثر يدل على أن شيئًا قد حدث، أنني ركضت في الشوارع، واعتُقلت، وابتلعت الغاز ونمت في البرد تحت المطر وأكلت الخبز المقدد وبكيت وصرخت حتى تشقق حلقي، وحملت المصابين والميتين، ورصصت قطع الحجارة حول أنهار الدماء الصغيرة على الأسفلت حتى لا يطأها أحد.

الـطـبـيـب: تركتها بسبب هذه الجملة أم بسبب ياسمين؟

يـحـيـى: لا.. تركتها عندما استيقظت ذات صباح وقد انمحت من ذاكرتي رائحتها. أخبرتها أنني أريد علاقة مستقرة، حبًّا حقيقيًّا، أريد شخصًا يشاركني الحياة وليس الموت. تفهمت الأمر بشكل أدهشني، عانقتني، قبلتها على وجنتيها، بدت في هذه اللحظة شخصًا آخر، هشًّا وخائفًا. صارحتها

بمشاعري نحو ياسمين فلم تعترض، كانت تعرف، بالتأكيد كانت تعرف، اختفت أيامًا ثم عادت وكأننا لم نكن شيئًا، تجيد نانا التأقلم مع كل شيء، بضغطة زر تحول حبيبًا إلى صديق، وصديقًا إلى عدو، تذكرني بتماثيل الشمع وخشيت عليها أن تذوب ذات يوم.

الطبيب: لكن علاقتكما انقطعت؟

يحيى: هي من قطعها.. كانت تتحدث أحيانًا مع ياسمين على الماسنجر، أحيانًا ترسل لي سلامها. علاقة وانتهت.

الطبيب: علاقة مؤذية وانتهت.

(يبدو على يحيى التردد وكأنه يريد أن يقول شيئًا لكنه قلق.. ثم يعزم أمره، يرفع رأسه إلى الطبيب)

يحيى: طلبت منها أن نلتقي عندما تعود إلى مصر.

الطبيب: لا مانع، لكن لقاء أصدقاء وليس شيئًا آخر.

يحيى: لا يوجد أي شيء آخر.

الطبيب: هل تتناول الدواء بانتظام؟

يحيى: نعم..

الطبيب: دعنا نكمل نفس التمرين.

(يكتب روشتة جديدة، يناولها ليحيى الذي ينهض ويصافحه)

الطبيب: أراك الأسبوع القادم.

يـــحـــيـــى: لكن حاول ألا تتأخر هذه المرة بعد إذن جلالة الملكة حتشبسوت.

(ينهض يحيي، يصافح الطبيب، يتبادلان شيئًا على الهاتف، ثم يغادر)

- ظلام -

المشهد الثالث

رائحةُ العَرَقِ

عَرَقُكَ.. مطرٌ من دموعٍ
عرقُكَ.. خوفُكَ الخفيُّ
بلا رائحةٍ.. مثلُكَ بلا رائحةٍ
الخوفُ خوفٌ.. لأن لا رائحةَ لَهُ
والعرقُ السائلُ مثلُ ماءِ صنبورٍ
يشبه الفجرَ الذي لا يأتي..
يشبه الضِّحْكَاتِ التعيسةَ والسِّبابَ الفاحشَ
من زنزانةٍ مجاورةٍ
يُشبه لحظةً عَرَفتَ فيها
أن العالمَ كلَّهُ
لحظةٌ مكررةٌ..

(في العيادة، يقف يحيى أمام المكتبة يتأمل الكتب، يخرج كتابًا ويتصفحه بينما يتحدث الطبيب في الهاتف، ينهي المكالمة ويعتدل في مقعده، فيجلس يحيى على المقعد أمام المكتب)

الطبيب: عذرًا على المقاطعة.

يحيى: لا أبدًا. خذ راحتك..

الطبيب: أنت الوحيد الذي آخذ راحتي معه يا يحيى، حتى إنني أوشكت أن أطلب منك الذهاب إلى طبيب آخر، لأنك صرت صديقًا، لا يجب أن يعالج طبيب نفسي صديقه.

يحيى: لن أذهب إلى طبيب آخر، افعلها لو أردت الحكم عليَّ باكتئاب أبدي.. ذنبي في رقبتك.

(يضحكان)

الطبيب: قصيدتك الأخيرة حزينة جدًّا.

يحيى: لم أتعمد ذلك صدقني، الشعر لم يزرني من وقت طويل، وفجأة أجد نفسي هناك، في الزنزانة الضيقة،

وسط البشر الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني، الذين تحولوا فيما بعد إلى أصدقائي، هل تعلم أننا نتقابل على فترات؟ مثل إعادة شمل دفعة الكلية.

الطبيب: هذا جيد، أن تتمكن من لقاء أشخاص شاركوك لحظات صعبة، والضحك أيضًا على هذه اللحظات.. لكن لماذا تذكرت؟ هاجمتك رائحة؟

يحيى: نعم، للأسف، رائحة عرق وصديد وعفن، أنا لا أكره رائحة العرق بالمناسبة، لكن في هذه الزنزانة لم يكن عرقًا كما نعرفه، العرق يختلف بالمشاعر، تخيَّل، عرق الخوف يختلف عن عرق التوتر عن عرق الجنس، عن عرق الرياضة.

الطبيب: (يدوِّن شيئًا في مفكرته) هذا صحيح.

يحيى: في هذا اليوم كنت خائفًا، ومتعبًا، والأهم غير مدرك لأي شيء، أنت تعرف الحكاية، نزول الشارع ليلة ٢٥، والركض والكرُّ والفرُّ، الحقيقة أن الموضوع كان أشبه بلعبة في البداية، لم أتوقع شيئًا، أنا فقط مشاغب، لكني مشاغب مسالم.

الطبيب: أفهمك تمامًا، أنا كنت هناك، ثم عدت إلى البيت فور اشتداد الحركة، لم يُقبض عليَّ.

يحيى: أما أنا فحملوني فجأة إلى سيارة الشرطة، لم أشعر حتى بالأيدي التي تهبط على كتفيَّ وظهري، كنت

مشغولًا في تكسير الرصيف إلى حجارة صغيرة نواجه بها الخراطيش، منهمكًا جدًّا إلى درجة أنني لم أرهم يقتربون.

الطبيب: خفت فعلًا؟

يحيى: طبعًا، وهربت من السيارة، عندما نزل العساكر لالتقاط شباب آخرين، جريت وجرى بجواري شاب صغير، كان في الثامنة عشرة وقتها، جرى بجواري ثم سقط، توقفت لأساعده فلحقوا بنا، حملونا مرة أخرى إلى السيارة، هذه المرة قيدونا بكلبش واحد أحدنا إلى الآخر، ظللنا هكذا «مرتبطين» إلى أن عُرضنا على النيابة.

الطبيب: كان هذا أقوى ارتباط في حياتك طبعًا.

يحيى: نعم وأكثرها التزامًا.

(يضحكان)

الطبيب: ما هو أسوأ شيء في تلك الأيام؟ السجن أم الضرب أم الرائحة؟

يحيى: أعتقد أنه الاختفاء، قلت لن يدري بك أحد يا يحيى، ليس لي أحد، لن ينقذني أحد، سأعيش بقيَّة الحياة في هذه الزنزانة، سأتلاشى دون موت. تخيَّل.. يوم واحد في مكان مغلق يجعلك تنسى الحياة، تعتقد أنك ستظل مكانك، ثابتًا وكأنك مجرد حجر يرفعونه، يضعونه، يحركونه على رقعة.

الـطـبـيـب: غريب جدًّا، كنت أعتقد أن المساجين يحملون دائمًا أملًا بالحرية يجعلهم قادرين على الاستمرار في الحياة.

يـحـيـى: أبدًا، شعرت أنني لا شيء، واحتل الفراغ رأسي، لولا إبراهيم المقيد في يدي لما فهمت شيئًا، لا أميِّز النهار من الليل، فقدت الشعور بالزمن. كلامي مضحك، صح؟ بضعة أيام تحولني؛ سبعة أيام مثل أي سبعة أيام، أسبوع مثل أي أسبوع، تافه ومكرر يمكن ألا نحس بمروره أصلًا، لكنه تحول إلى زمن غير معرَّف، مجرد زمن، بلا كم ولا كيف ولا وصف. في العتمة، في الظلام، في الرائحة النتنة، في هذا الجُب، يتحول الزمن إلى سائل، يتحول إلى شيء محسوس ولزج يحيط بجسمك، يغلفك، يذوِّبك، يأكلك. اقتربت من التلاشي، ولم آكل سوى لقيمات، لم أشرب سوى رشفات، حتى خرجت في اليوم الثامن للعرض على النيابة.

الـطـبـيـب: لماذا سأضحك عليك؟ تجربة السجن مرعبة.. تجربة النبيِّ يوسف في الجب هي ما صنعته، لا أحد يلتفت كثيرًا إلى هذا التفصيل، قضى يوسف في الجب زمنًا غير معلوم حتى أخرجوه. كل نبيٍّ يمر بجب، كل نبي يُمرن على الجُرح، وأنت نبيُّ نفسك، تجربة السجن هي ما صنعتك يا يحيى.

يـحـيـى: لكني جبُنت، هل هناك نبيٌّ جبان؟ أنا جبُنت، عندما وقفت أمام وكيل النيابة وسألني عن سبب تواجدي في الميدان قلت كنت ذاهبًا إلى مول طلعت حرب، أخرجت له إيصال صيانة الكمبيوتر الذي تركته فعلًا في محل تصليحات في المول، على الرغم من أنه لم يبالِ بوجود دليل. كنا سنخرج في كل الأحوال، البلد كانت تشتعل بالخارج وأنا أبحث عن مخرج تافه، لم أكن أعلم.

الـطـبـيـب: لكنك خرجت إليها، خرجت وعدت إلى الميدان.

يـحـيـى: خرجت وعدت إلى البيت، استحممت، وغيرت ملابسي وحلقت ذقني، ونزلت. تباطأت لحظات، وتوقفت لحظات، لحظات ربما كانت ستجعلني في تلك اللحظة مساء ٢ فبراير محل سعد. كانت ستدفعني أمام رصاصته، كل شيء محسوب، والزمن متلاعب وقاسٍ.

الـطـبـيـب: من جديد تقسو على نفسك.

يـحـيـى: أبدًا، فقط أتأمل كل ما حدث، وأخاف من كل ما سيحدث.

الـطـبـيـب: مشكلتك هشاشتك، لكني أعود وأكـرر، أنت شاعر، ستظل شاعرًا، ستظل هشًّا، لو اكتسبت صلابة ستخسر نفسك. كل ما أرجوه أن تحمي

هشاشتك، أن تحيط نفسك بوسادة مبطنة، أن تغلف نفسك بدرع واقٍ، درع من الفهم والتسامح، سامح نفسك، لست سببًا في شيء.

يحيى: عندما خرجت كان إبراهيم برفقتي، لم يتحدث حتى، عاملوه وكأنه جزء مني، أخرجوه معي وبأقوالي، مضى عليها وخرج، عندما فكوا القيد الذي يربطنا، نظر إليَّ بذهول، بدا وكأنه يراني لأول مرة في الضوء، قال أنت يحيى الصاوي؟ ضحكت لأنه لم يعد نادمًا على شيء من كل هذه التجربة سوى أنه لم يطالبني بإلقاء الشعر في الزنزانة.

(يضحكان)

الطبيب: الشعر هو ما يُعرِّفك.

يحيى: وهو ما يقتلني كل يوم.

الطبيب: لكن قصيدتك عن الثورة تحولت إلى رمز لها.

يحيى: تخيَّل صاحب قصيدة الثورة هو نفسه من يكتب الأغاني والمسرحيات التافهة.

الطبيب: أغانيك ليست تافهة، وكل مرحلة لها جمالها.

(يصمتان للحظات)

الطبيب: هل تتناول دواءك بانتظام؟ عيناك مجهدتان، هل نومك مضطرب؟

يحيى: قليلًا..

الـطـبـيـب: سأكتب لك منومًا، لمدة ثلاث ليالٍ فقط يا يحيى، نصف قرص، لو تناولت قرصًا ستهاجمك الكوابيس.

يـحـيـى: الكوابيس مُلهمة جدًّا يا دكتور.

الـطـبـيـب: تعشق كل نقيض.

يـحـيـى: (يبتسم) ميكانيزم دفاع.

(الطبيب يبتسم وينظر له.. نظرة طويلة دون أن يقول شيئًا، يناوله الروشتة، يأخذها ويغادر، بلا كلام وبلا صوت. يظل الطبيب جالسًا مكانه، يعقد كفي يديه أسفل ذقنه ويتنهد)

- ظلام -

الفصل الثاني

المشهد الأول

رائحةُ القلبِ

كيفَ تَرْسُمُ قلبًا؟

علامتا استفهامٍ متقابلتان؟

شكلٌ هلاميٌّ يشبه أخطبوطًا ميتًا؟

ما رائحةُ القلبِ؟

حديقةٌ من زهورٍ؟

أم مطهرٌ قويٌّ في غرفةٍ فارغةٍ؟

ما القلبُ؟

دقاتٌ فرحةٌ عند رؤيتِك؟

أم خفقانٌ مؤلمٌ يشبهُه غيابَك؟

(يجلس يحيى ممسكًا بسيجارة على دكة خشبية فوقها وسائدُ ملونة، أمامه منضدة عليها لاب وتوب وبجواره قط بلدي نائم، في ديكور لتراس مُحاط بسياج يكمل سور التراس، الخلفية مرسومة على شكل سماء زرقاء، أمامها أصص زرع، يمكننا أن نتبين شجرتَي يوسفي وليمون، أصص زرع لورود ونعناع وريحان، وشجرة بأوراق خضراء مميزة. في هذا المشهد لا نرى الطبيب، نسمع صوته فقط خارجًا من اللاب توب)

الطبيب: (صوت الطبيب مبحوحًا) مساء الخير يا يحيى.

يحيى: مساء الفل، سلامتك يا دكتور.. أفضل اليوم؟

صوت الطبيب: نعم كثيرًا، مُت وحييت، دور صعب.

يحيى: أول مرة؟

صوت الطبيب: ثاني مرة، لكن دلتا متحور قاسٍ، يهاجم الرئة فورًا، لولا اللقاح لكنت ميتًا.

يحيى: بعيد الشر.. الحمد لله أنك بخير.

صوت الطبيب: تخيَّل أن يكون نَفَسك عدوك، تتنفس مع الأكسجين كائنًا يهاجم رئتيك، منفذك للعيش والحياة، تخيَّل أن يتحول ما بداخل جسمك إلى شر.

يـــحـــيـــى: هذه ثيمة من ثيمات الرعب، في روايات الرعب يتحول جزء من الإنسان إلى عدو، أو يسكنه شيطان، أو كائن فضائي، أو حتى هاجس وصوت، الإنسان هو أول الرعب وآخره، أحيانًا أخاف من نفسي، عندما أتأملني جيدًا من الداخل، يبدو لي وكأنني أيضًا غير نقي، وكأن شيئًا يسكنني، مثل الفيروس.. مثل الوحش.. مثل الشيطان..

صوت الطبيب: هذه رؤية رومانسية يا يحيى على الرغم من الرعب، الرعب نفسه رومانسي أحيانًا.

يـــحـــيـــى: نعم.. الرعب رومانسي، مثل اليوم الذي دخلت فيه إلى البيت، ووجدت ياسمين تجلس على نفس هذه الدكة، في نفس هذا التراس، وأمامها قطي الميت.

صوت الطبيب: قتلته؟

يـــحـــيـــى: سمَّته، ثم جلست تراقبه يحتضر، في هذا اليوم قررت أنها لا بد أن ترحل.

صوت الطبيب: أنت تعرف أن كل هذه التصرفات ليست طبيعتها، ياسمين كانت مريضة جدًّا، حالة نادرة أحيانًا أتمنى لو كنت رأيتها.

يـــحـــيـــى: أعـرف، لكن المشهد كان أقـوى مني، كانت تجلس بجوار جثة القط ساكنة، تمسد على جسمه المتخشب وتنظر إلى عينيه المفتوحتين. قتلته بسم سريع، كانت تريد أن ترى الموت، تريد أن تقابله وتسأله لماذا لم يأتِ لاصطحابها بعد. عندما سألتها وبمَ أخبرك، قالت إنها عالقة، ثمَّة أمور لم تنتهِ منها. قالتها ونظرت في عينيَّ، كانت تقصدني، لم ترد تركي، لذلك تركتها.

صوت الطبيب: أتخيل المشهد.. وأقدر قسوته.

يـــحـــيـــى: لم يكن القط الأول، فعلتها ثلاث مرات. المشكلة أنني أخاف الموت، أعاني من فوبيا شديدة، الموت هو اختفاء المادة، وأنا رعبي هو الاختفاء. أخافه وأحاول تجاهله، لذلك عندما أخبرتني ياسمين أنها ميتة لم أغضب، لم أنهرها ولم أندهش أو أرفض، سألتها فقط لماذا لم تختفِ بعد؟ قالت سأفعل.
في اليوم التالي قتلت القط وجلست بجوار جثته ساعات حتى حملته من أمامها، لففته بالجرائد ووضعته في كيس أسود وغادرت، حفرت له أسفل البيت حفرة ودفنته، وعندما عدت إليها طلبت منها أن تعد حقائبها، لم تقاوم، أعدتها إلى بيت أبيها، وعدت وحيدًا كما كنت.

صوت الطبيب: اليوم تتذكر رائحة ياسمين؟

يـــحـــيـــى: نعم.. رائحتها كانت مزيجًا من الغضب والموت والخوف، امـرأة قتلت كل القطط في انتظارها للموت. لم أخف منها، خفت من نفسي، أن أقتلها في النهاية لأحقق لها ما تمنته، غضبت من كوني عائقًا أمام حلمها بالاختفاء، وغضبت أكثر أنني بالنسبة لها مجرد عمل غير منتهٍ، مثل قصيدة ناقصة، ستزهدها في النهاية، وتتركها ملقاة في قعر درج، لن تعود إليها أبدًا. القصيدة مثل القبلة لا يمكن أن تُقاطع، ياسمين أيضًا كانت قبلة ناقصة، أنهكها الموت حتى استسلمت له[نانا لم تستسلم لكنها ارتضت بالنقص، أن تكون قصة بلا نهاية، أن تكون رواية متخيلة مكتوبة داخلها فقط، وأنا أردت أن أكتمل]

صوت الطبيب: قصتكما معقدة يا يحيى، أنت تحمل أهوالًا داخلك وهي أيضًا، البنت رأت الموت حتى ألفته، أعتقد أنها كانت تخافه أيضًا لذلك قررت أن تتمناه. أحيانًا الخوف من شيء يتحول إلى هوس وحب، [أحيانًا نلقي بأنفسنا داخل فم الوحش لأننا نكره مشهد أنيابه وهي تتقدم نحونا.]

يـــحـــيـــى: كل التبريرات أعرفها، أعذرها أحيانًا، حزنت على موتها، عندما أخرجها أبوها من المصحة هاتفته وتوسلت له أن يعيدها لكنه رفض، عرفت أنها لن تتحمل، ستموت من المرض أو الإهمال، اعتادت

الهرب كل بضعة أيام والتجول في الشوارع دون كمامة، حتى عادت ذات صباح وقد احتلها الوحش، الفيروس قتلها في أيام، لم تملك حتى ذرة مقاومة.

صوت الطبيب: قصة حزينة جـدًّا، لكنها ماتت وانتهت، أنت لا زلت حيًّا.

يـــحـــيـــى: (يداعب القط) هل تعرف أن فقدان الشم يجعلك تشعر وكأنك ميت؟ [الرائحة تمنح كل شيء حجمه، بعده الأعمق والأكثر صدقًا، تخيل بحرًا بدون رائحة، مجرد مسطح هولوجرامي يمكن رؤيته على شاشة وسماع صوته عبر مسجل.]

صوت الطبيب: أفهمك تمامًا وأشعر بما تقوله الآن.

يـــحـــيـــى: لكني أفتقدها.. ربما لو ظللت إلى جوارها لما ماتت، ربما لو لم أكن جبانًا، لو لم أخف، لو لم أهرب، لو لم ألقها إلى والدين لم يفهماها قط، لو لم أنشر صورًا مع فتاة أخرى، فتاة هامشية وصورة لم تعنِ لي شيئًا، لكنها بالتأكيد حطمتها.

صوت الطبيب: كل الكلام لا يفيد، أعتقد أنك مدين لنفسك بالمقاومة، على الأقل حتى لا تعيد ما حدث معها. احمِ نفسك، لو كنت جبانًا، تخلص من جبنك، واجَه الأمر، أنت تهرب داخل نفسك.. هل تتعاطى أي شيء آخر غير الحشيش؟

(يحيى لا يرد)

صوت الطبيب: اسمع، أنا لست وصيًّا عليك، لكن ما تفعله ليس جيدًا، أتمنى لو ساعدتني، لو ساعدت نفسك. لا أريدك أن تدخل المصحة مرة أخرى، لم ترتح هناك ولن تفعل.

يحيى: لن أدخل المصحة ثانية.. وأنا قادر على التوقف في أي وقت.

صوت الطبيب: هل تعرف ما أشعر به؟ إنك تتظاهر يا يحيى، تتظاهر أنك بخير، تتظاهر أنك تمام، أنك سعيد ولا مشكلة معك في أي شيء، تتظاهر أنك تمشي إلى الأمام، على الرغم من أنك لا زلت تمشي في نفس المكان، مثل نانا وياسمين والجميع، تمشي في نفس المكان.

يحيى: لا أعرف ماذا يجب أن أقول، على الأقل أنا أحاول.

صوت الطبيب: أعرف أنك تحاول، لكن أحيانًا علينا الاعتراف بالحقيقة.. هل قابلت نانا؟

يحيى: اتفقنا على اللقاء الليلة، سأقيم حفلًا لبعض الأصدقاء هنا..

صوت الطبيب: حفل في الكورونا يا يحيى؟

يحيى: لا يوجد كورونا في مصر.

(يضحكان)

(يدير اللاب توب ليريه المكان، يوجه الكاميرا نحو الشجرة ذات الأوراق الغريبة)

يـــحـــيـــى: هل عرفت هذه الشجرة؟

صوت الطبيب: (يضحك) يخرب بيتك يا يحيى، سيقبض عليك وعليَّ وعلى أصدقائك.

(يضحكان)

يـــحـــيـــى: أحضرتها معي من سانت كاترين، هل تذكر فيلم The French Kiss؟ عندما حمل البطل الشجيرة طوال رحلته لزراعة مزرعة عنب؟ أنا فعلتها من أجل مزرعة حشيش.

صوت الطبيب: لم تخف؟

يـــحـــيـــى: نسيت الخوف مع اختفاء رائحة ياسمين،[مُحزن أن تتحول رائحة الحب إلى خوف وغضب وحزن، مُحزن أن يتحول البيت الذي تمنيت أن تبدأ فيه حياة، الذي اخترته بتراس واسع مشمس للأطفال، إلى بيت مظلم، وتراس تعيش فيه شجرة قنب، وبعض القطط ورجل بلا رائحة.]

صوت الطبيب: أنت تقسو على نفسك.

يـــحـــيـــى: ربما أستحق هذه القسوة.

صوت الطبيب: لكنك لست قاسيًا، تُربي القطط وتزرع النباتات.

يـــحـــيـــى: لأنها كائنات جميلة، أجمل بكثير من البشر.

صوت الطبيب: ربما أنت على حق، ربما عليك أن تتعامل مع نفسك بصفتك شجرة، أو قطًّا، أو كائنًا فضائيًّا.

(يضحكان)

يـــحـــيـــى: (بعد لحظات) أنا أشعر بالذنب.

صوت الطبيب: أنا سعيد لأنك قلتها بصوت عالٍ. نعم أنت تشعر بالذنب، ونعم أذنبت فعلًا في بعض الأشياء، لكن كل شيء قابل لإعادة الضبط. أحب الاعتراف أحيانًا لأنه يُطهرنا.

يـــحـــيـــى: أعترف لنفسي كل يوم، ولا أنام.

صوت الطبيب: الاعتراف السري بالأفكار يختلف عن الصياح بصوت عـالٍ، قف في تراسك أمـام شجرتك وأخبرها بكل شيء، اشتم نفسك حتى، أخرج كل الأوساخ بداخلك، ثم لف لنفسك سيجارة وتذكر رائحة أخرى.

يـــحـــيـــى: ماذا لو أزهرت الشجرة زهورًا تتحدث وتفشي الأسرار، مثل قصة حلاق الملك؟

صوت الطبيب: لا أعرفها.

يـــحـــيـــى: (يعتدل في جلسته) يُحكى أن ملكًا كان يقتل كل حلاق يحلق شعره ولو لمرة، وذات يوم استدعى آخر حلاق في المدينة، فتى فقير ومسكين خاف أن يقتله الملك، لاحظ الملك ارتعاشته فأخبره أنه لن يقتله، أولًا لأنه لن يجد غيره، وثانيًا لأنه سيخبره بسره مقابل ألا يفشي به أبدًا وإلا قتل عائلته كلها. اكتشف الفتى الحلاق أن للملك أذنين طويلتين

جدًّا، لا يحب أن يعرف بهما أحد، أقسم الحلاق ألا يفشي السر، لكنه ما إن خرج من القصر حتى شعر أنه غير قادر على تحمل الكتمان، فذهب إلى الصحراء وحفر حفرة، وصاح بها: الملك يملك أذنين طويلتين.. الملك يملك أذنين طويلتين..

(يضحكان)

يحيى: (يكمل) هل تعرف ما الذي حدث؟ نبتت شجرة من هذه الحفرة، بزهور كبيرة تصيح: الملك يملك أذنين طويلتين.. الملك يملك أذنين طويلتين..

صوت الطبيب: وانتهى الحلاق.

يحيى: تمامًا.

(يضحكان)

صوت الطبيب: تعرف.. أعتقد أن لقاءك بنانا قد يساعدك، كنت مترددًا حيال الأمر لكني الآن أعتقد أنه الأفضل لك ولها، أحيانًا عليك أن تواجه ماضيك، وأن تعترف أمامه بكل شيء. استقبل أصدقاءك وأقم حفلك، لكن خذ الحذر.

يحيى: (يضع كف يده بجوار رأسه وكأنه يلقي سلامًا) عُلم وينفذ.

صوت الطبيب: سأكتب لك دواء جديدًا، سأرسل صورة الروشتة على على الواتساب لتتمكن من صرفه، كل مساء

مع السيروكسات، أرجوك لا تتوقف عن الدواء، أرجـوك لا داعـي للكحوليات، أرجـوك التزم بالتعليمات.

يـحـيـى: سأحاول.

صوت الطبيب: ستتصل بك مساعدتي لتحديد الموعد المقبل.. لكن قبل أن نغلق اللقاء، خذني في جولة في هذا التراس.

يـحـيـى: يلَّا بينا.

(يحيى يحمل اللاب توب ويوجه الكاميرا إلى الزرع، يتحرك في التراس)

- ظلام -

المشهد الثاني

رائحةُ الدُّمُوعِ

دُمُوعُك.. مثلُ بحرٍ تكسَّرَ ماردُه
على صخرِ شاطئ عائليٍّ
صخرٍ.. وضعوه ليقتلَ الموجَ
ويسمحَ للصغارِ بالسباحةِ واللهوِ
وللأمهاتِ بإلقاء بقايا الطعامِ والأكياسِ الفارغةِ
بحرٌ مروَّضٌ تحتَ شمسٍ معتمةٍ
له رائحةُ قيدٍ صدئ
دُمُوعُك بحرٌ صدئٌ
سيهجرُه الجميعُ في الشتاءِ
تاركينَ خلفَهم المقاعدَ المحطمةَ
والأغانيَ الصاخبةَ
والصورَ الممزقةَ
والأوعية البلاستيكيةَ الملونةَ
الممتلئةَ بماءِ عينيكَ

(بيت يحيى المُظلم إلا من ضوءٍ خافت، يجلس يحيى بشكل جانبي على مقعد فوتيه أحمر ويفرد ساقَيه على المائدة الخشبية أمامه، عليها كُتب مُبعثرة وأكواب شاي فارغة وصحن مسطح عليه بقايا تبغ وورق بفرة. توجد كنبة تحتل صدارة المسرح بحيث تواجه الجمهور. خلفية المسرح حائط الصالة، مُعلق عليها لوحات فنية إلى جوارها يظهر باب الشقة. في الجانب مطبخ أمريكي صغير مفتوح، أمام البار مقعدان مُرتفعان وخلفه رفوف عليها زجاجات كثيرة. في الجانب المقابل كمبيوتر قديم على مائدة، يتصل بسمَّاعات ينبعث منها صوت بليغ حمدي يُغني «بودّعك»)

(يدق جرس الباب، ينهض يحيى بتثاقُل، يمشي إلى الباب ويفتحه، نرى الطبيب واقفًا على الباب)

الطبيب: إزيك يا يحيى؟

يحيى: (يبدو عليه الاندهاش) أهلًا يا دكتور.. اتفضل.

(يفسح له مجالًا للدخول، يغلق الباب ويجلسان، يحيى على نفس المقعد والطبيب على الكنبة المواجهة للجمهور)

الطبيب: ما دمت نسيتنا، تتجاهل اتصالاتنا ولا تظهر في مواعيد جلساتك، قلت ما بدهاش، أحضر أنا وأفهم ما الذي حدث.

يحيى: أنا آسف يا دكتور.. بجد.. غصب عني.. لم أتمكن من الحضور، لا أغادر البيت تقريبًا.

الطبيب: طيب يا سيدي على الأقل رد على هاتفك، على رسائل الواتس آب، أشعر وكأني حبيبة سابقة تطاردك.

(يضحكان)

يحيى: فعلًا أعتذر، حقك عليَّ.. لا أعرف.. يبدو أنها نوبة اكتئاب شرسة.

الطبيب: لا داعي للاعتذار يا يحيى، ولا داعي لدكتور.. أنا الآن في زيارة لصديق، لسنا في جلسة.

يحيى: ماشي يا عمرو.. منور الدنيا.

عمرو: يعني على الأقل كنت تحكي لي ماذا حدث.. الحفل.. وزيارة نانا.

يحيى: لم يحدث شيء، تخيل، حضرت تغطي وجهها بالكمامة، ورحلت دون أن ترفعها، بدا لي وكأني رأيت نصف نانا، أنا أصلًا نسيت ملامحها، عرفتها من عينيها وشكل شعرها وطولها، زاد وزنها وصارت أهدأ، لم تعد تتقافز وتسب وتصيح، أقلعت حتى عن التدخين، كانت عادية وصامتة مثل أي امرأة يمكن أن تقابلها في أي مكان.

عـــمـــرو: هل أحبطك هذا؟

يـــحـــيـــى: ليس تمامًا، سعدت برؤيتها طبعًا، حضنتها، ضممتها إليَّ بقوة وهي استكانت لحظات، ثم دفعتني بارتباك، ووقفنا نتحدث، كانت تنظر إلى كل ما حولها بدهشة، إليَّ وإلى أصحابي وإلى البيت والقطط والتراس والشجر.

عـــمـــرو: دهشة أم صدمة؟

يـــحـــيـــى: لا أعرف، دهشة ربما.. وكأنك ترتد إلى عالم بعيد ظننته انتهى، فرجتها على الشجرة إياها، فبكت، بكت فعلًا.. تخيَّل!

عـــمـــرو: وأنت؟

يـــحـــيـــى: أنا؟

عـــمـــرو: لم تبكِ؟

(يحيى يصمت قليلًا.. يرتعش جانب فمه، ينحني على المائدة ويفرغ تبغًا على طبق مسطح، يبدأ بمزجه مع حشيش مفروك، يلف سيجارة)

يـــحـــيـــى: ربما بكيت.. لا أتذكر.

عـــمـــرو: ثم؟

يـــحـــيـــى: لا شيء، رحلت، أعتقد أنها ارتبكت عندما بدأ الشد.. عرضت عليها صديقة أن تشد سطرًا فارتجفت وركضت إلى الباب.. كأنها نانا أخرى..

قبل أن تذهب قلت لها: لم يتبقَّ سوانا، لكن بعد رحيلها فكرت، يبدو أنه لم يتبقَّ سواي.

عـــمـــرو: (بعد لحظات صمت) وعدتني أن تتوقف عن الكوكايين.

يـــحـــيـــى: يا عمرو.. في الحفلات لا يمكن أن تقول لا.

عـــمـــرو: (يرفع كفيه أمام وجهه) لن أناقشك، أكرر هذه ليست جلسة.

يـــحـــيـــى: عملت طيب.

(يصمتان.. ينتهي يحيى من لف السيجارة ويشعلها)

عـــمـــرو: هل تذكر قصة الحلاق والملك؟

يـــحـــيـــى: (يبتسم) طبعًا.

عـــمـــرو: فكرت فيها كثيرًا، أعتقد أننا الحلاق يا يحيى.

يـــحـــيـــى: (متهكمًا) الحلاق في رواية أحدهم.

(يضحكان)

عـــمـــرو: لا بجد.. نحن.. أنا وأنت ونانا وسعد ومصطفى وياسمين.. نحن الحلاق.. نحن حفرنا الحفرة وأفشينا السر، لاحظ أن الحكاية لا تذكر مصير الحلاق ولا الملك ولا الشجرة..

يـــحـــيـــى: تقصد أن الحلاق عاش؟

عـــمـــرو: أو مات أو سجن أو جن أو هاجر أو أدمن.. أو يزورني في العيادة لتلقي العلاج.

يحيى: (ضاحكًا) والملك؟

عمرو: على الأرجح لا يزال ملكًا، لكن الجميع يعلم الآن أن أذنيه طويلتان، لأن الشجرة لا تتوقف عن الصياح، كلما قطعوها نبتت من جديد، وصاحت بالسر. في البداية غضب الملك، وقبض على كل الساخرين، وهدد كل المتهكمين، حتى الأطفال حبسهم، أعلن حظر التجول ووزع صورًا تظهره بأذنين طبيعيتين معدلتين بالفوتوشوب في كل مكان، يمكنك أن تراها على الحوائط والكباري والأعمدة والجرائد وحتى في السماء.

يحيى: ثم..

عمرو: ثم انتهت القصة، توقف الملك عن الإنكار، وظهر ذات يوم في خطاب له دون أن يخفي أذنيه، ضحك الناس وانتشرت صور الميمز عليه وقابل هو كل ذلك بصمت، بهتت الصور وتمزقت، أمطرت السماء عليها، وبال القطط والرجال، ثم توقف الناس عن السخرية، وملوا من نشر الميمز المكررة، لكنهم لم يعودوا خائفين، كلما خافوا، كلما ارتبكوا، كلما شعروا بالظلم، استمعوا لصيحات الشجرة قادمة من بعيد، وضحكوا.

يحيى: (ينفث دخان السيجارة) أحب نسختك من القصة..

عمرو: أنا أيضًا فنان يا بني..

يـــحـــيـــى: أنت فنان فعلًا.. ومجنون قليلًا يا دكتور.. سامحني يعني..

عـــمـــرو: لن أعارضك.. الحقيقة أنني مثلك تمامًا، ماشي بالدوا.

(يضحكان)

يـــحـــيـــى: قصدك يعني عيان.. في ميت؟

عـــمـــرو: (ضاحكًا) بالضبط.. عيان في ميت.

يـــحـــيـــى: (يناوله سيجارة الحشيش) صباح الفل يا عمرو.

عـــمـــرو: مساء الفل يا يحيى.

(يدخنان في صمت للحظات.. أغنية وردة «بنلف» تتصاعد تدريجيًا من السماعات، ثم يرن جرس الباب، وينهض يحيى ليفتح، أشخاص آخرون ينضمون إليهما.. يقف عمرو مرحبًا، يبدأ يحيى في تعريفه عليهم.. صوت حديث وضحك ومصافحات)

إظلام تدريجي

- ستار -

كمثَلِ تِمثالٍ في شُرفةٍ

رواية

(اسم مؤقت)

نانا عبد الوهاب

درافت ١

(حَلمتِ بأنك تكتبين رواية..)

تتذكرين الحلم وأنت تغادرين الهوستيل، وتقفين أمام المصعد العتيق وتفتحين بوابته الحديدية بصعوبة، تسمعين صوت الصفارة التي تحذر السكان من ترك الباب مفتوحًا، تؤذي سمعك لكنك ستفتقدينها لو لم تزعجك في كل مرة، صوت الصفير عالٍ وقاسٍ على أذنيك لكن عندما حدث وتوقف ذات يوم بلا سبب، شعرتِ بخوفٍ ما، خوف من أن الحياة تتغير وأن التفاصيل التي تعتادينها وتطمئنك ستتخلى عنك.

تمشين في شارع صبري أبو علم، والفكرة تسيطر أكثر على تفكيرك، ماذا لو كتبت رواية فعلًا؟ ربما عن فتاة تحاول اللحاق بموعد متأخر. لم تحفظي شوارع وسط البلد بعد كل هذه السنين، لكنك تعرفين كل تفصيلة في هذا الشارع. تحبين المشي فيه والسكن فيه، لأن الهوستيل يقع في بناية قديمة مُعلق على بوابتها لافتة مكتوب عليها «هنا عاش فؤاد حداد»، ولأن السلالم عريضة والأبواب واسعة والغرف سقفها عالٍ، ولأنك تحبين الجلوس

في شرفة الهوستيل ومراقبة الشرفات من حولك، شرفات مهجورة ممتلئة بكراكيب بالية، مقاعد قديمة وحقائب فارغة، وشرفات ملونة مزدحمة بأصائص الزرع، وشرفات مغلقة لا شيء على جدرانها سوى صناديق التكييف.

لكنك تحبين شرفة بعينها في البناية المقابلة، يقف فيها تمثال لفتاة بشعر قصير، ترتدي تنورة طويلة واسعة وقميصًا مغلقًا وتنظر إلى الأسفل.

ستكتبين رواية عن هذا التمثال المغطى بالتراب لكنك قادرة على رؤية تفاصيله، تمثال حزين لبنت حزينة. هي بالتأكيد لا تشعر بشيء، لا تشعر بلسعة الشمس في الصيف ولا زخات المطر في الشتاء، لا تشعر بنظرات العابرين ولا بالهواء المحمل بالتراب، لكنها على الرغم من كل ذلك حزينة.

لن تعرفي أبدًا لماذا شعرت بها، على الرغم من أنك توقفت عن الشعور بأي شيء، ثمَّة اتصال ما بينكما، ربما لأنها دائمًا ما تنظر إليكِ عندما تمرين من أسفل الشرفة بعدما تغادرين الهوستيل. رأسها المحني يبدو وكأنه يلتف ببطء ليتابعك منذ خروجك من البوابة إلى أن تختفي في نهاية الشارع. بدا لكِ أنها تعرفك وأنك تعرفينها، وفكرتِ أنها ربما كانت أنتِ في حياة سابقة، أو أنها بالفعل أنتِ، قطعة منكِ انفصلت وتحولت إلى تمثال يحمل حزنك، وتركتك فارغةً بلا شعور.

ستحكين عن التمثال الذي يشبه هيئتك في تلك اللحظة التي وقفتِ فيها على رصيف محطة شرق بعدما فاتك القطار المكيَّف،

تنتظرين قطارًا يحمل العابرين بلا حجز مسبق، يومها رأيت مصطفى لأول مرة، تذكرين شكلكِ بالضبط كأنكِ ترين نفسك من الخارج، على الرغم من أنكِ لا تتذكرين الموقف، لا تذكرين متى قابلتِه لأول مرة ولا كيف، تشعرين أنه موجود في حياتك منذ ولدتِ، وكأنه جزء منكِ، مثل أبيكِ وأمكِ وإخوتكِ، ومثل غرفتكِ ودولابكِ وكرسيكِ الخشبي الأخضر في الشرفة. هو من أخبركِ أنكما التقيتما لأول مرة على رصيف المحطة، قص عليكِ هذه القصة عشرات المرات حتى صدقتِه، لم تصدقيه فقط لكنكِ تخيلتِ كل التفاصيل لدرجة أنها تحولت إلى ذكرى حقيقية، تعرفين أن كل هذا حدث لكنكِ فشلت دومًا في استدعائه، فصنعتِه، رسمتِه كما ترسمين على أفرخ الورق الكانسون في أوقات فراغكِ، رسمتِ نفسك تقفين على الرصيف وحيدة، تخيلت هيئة مختلفة لكِ، تشبه شخصيات الأنيمي الياباني، نحيلة وطويلة بشعر ناعم قصير تتطاير خصلاته حول وجهكِ بحركة متكررة، وعينين واسعتين دائريتين، ترتدين جيبة طويلة وقميصًا وتحملين حقيبة «الأرت باج» وتتظاهرين أنكِ تنتظرين القطار بينما كنتِ - فيما يبدو - تنتظرين قدركِ.

عندما رأيتِه لأول مرة عرفتِه، عرفتِ أنه فنان، مأخوذ بفنه، حتى إنه توقف عن الشعور بالعالم كما تشعرين أنتِ به. أول مرة مثلًا تتحدثان فيها وأنتما جالسان إلى جوار بعضكما على الكراسي الخشبية في القطار، والهواء يضرب وجهيكما من الشبابيك المتكسرة، عرفتِ أن لمعة عينيه تخفي الكثير، تخفي رعبًا ما، خوفًا وعذابًا وربما رغبة بشيء مجهول. كان يدرس في كلية التربية الفنية وأنت في الفنون الجميلة. وعلى عكسك، لم يكن طموحه متعلقًا

بوظيفة ثابتة أو العمل بالتدريس، بل كان أكبر من ذلك. أفكاره أكبر من الكلية والقطار ومحطة مصر وطنطا والقاهرة، حتى عندما سكن الميدان لمدة ١٨ يومًا وظن أن هذا هو المكان الذي يليق بأحلامه، كان مخطئًا. تجاوز الميدان والشوارع والقبور ومشرحة زينهم ومحمد محمود والاتحادية، تجاوز كل الأماكن إلى شيء آخر لا وجود له، أثيري أو متحد بجزيئات الهواء.

لكن في هذه اللحظات في القطار، كان مجرد شاب بعينين لامعتين، وكنتِ مجرد فتاة بلا أحلام، سوى ربما رغبة ساذجة في الحب. كان خيارًا آمنًا، فنانًا مثلكِ، أكبر منكِ، من نفس مدينتكِ ومنطقتكِ، وسيم ورائحته حلوة، وربما ينهي وحدتك اليومية في السفر من وإلى القاهرة كل يوم، رحلة سيزيف المستمرة التي تكرهينها، ستخف بوجوده. ستصبح أجمل معه.

تحبين الحديث عنه وكأنه قدركِ، وكأنه حب عمركِ، لكنك فبركتِ كل ذلك في خيالكِ من أجل أن تكتبي رواية. هو كان أذكى منكِ ولم يفعل. بالنسبة له كنتِ فتاة جميلة تقف على رصيف القطار، ثم رفيقة سفر ودراسة ومنفذ لإخراج شحناته العاطفية. كان يمكن أن يكون هذا اللقاء لقاءً عابرًا لكنكِ تمنيتِ لو تقابلتما من جديد. في اليوم التالي، خرجتِ من باب الكلية وأنتِ تتلفتين حولك، ووجدتِه واقفًا ينتظرك. يحمل الأرت باج ويعلق حقيبة أخرى جانبية على كتفه. اتجهتِ إليه ومشيتما معًا في شارع إسماعيل محمد. تحبين هذا الشارع لأنه محفوف بالأشجار من الجانبين، ولأنه هادئ وظليل، ولأنه فيه أمسك يدكِ لأول مرة،

أمسكها بشكل عادي دون تردد. أنتِ أيضًا لم تشعري بالخجل، تشبثتِ به وارتحتِ، لم تفعليها من قبل مع أحد، وفكرتِ أنه ربما يكون هذا هو الحب، أن تتركي كفَّ يدكِ في كف يد رجل التقيتِه منذ ساعات، فتشعري بأنك اكتملتِ، كنتِ كقطعة شاردة من بازل أعيدت أخيرًا إلى مكانها.

الشخصيات

- **سعد البيومي**: فنان سمعي بصري ومدرس بكلية التربية الفنية، متزوج ولديه طفلة، تعتمد أعماله الفنية على مزج الحركة بالصوت. استشهد في ثورة يناير يوم موقعة الجمل.
- **مصطفى عبد العزيز**: فنان سمعي بصري، تلتقط أذناه الأصوات الخافتة وأحيانًا يتجاهل أو لا يستطيع الاستماع إلى الأصوات العالية. لأنه يعاني من الميسوفونيا أو الميزوفونيا (Misophonia) أو متلازمة حساسية الصوت الانتقائية.
- **ياسمين السيد**: طبيبة شرعية تخرجت في كلية طب الأزهر، من عائلة متوسطة، تربت تربية دينية متحفظة، امتلكت مدونة شهيرة في أوائل الألفية ومنها تعرفت على أصدقاء جدد لتبدأ شخصيتها في التغيُّر.
- **يحيى الصاوي**: شاعر نثر، وواحد من أشهر المدونين المصريين في أوائل الألفية، انخرط في العمل السياسي لفترة بعد ثورة يناير ثم اعتزله وامتهن كتابة الأغاني والمسرحيات الكوميدية وبعض الأفلام التجارية.

- **نانا**: اسمها الحقيقي نهال عبد الوهاب لكن الجميع ينادونها بنانا، خريجة كلية الفنون الجميلة، تعمل من المنزل محررة في موقع نسائي، وتكتب مقالات نقدية في عدة مواقع ثقافية، وتحلم بكتابة رواية.

(تحلمين بأنكِ تسيرين في شارع واسع، يشبه الشوارع المؤدية إلى الحقول في نهاية مدينتكِ، مرصوفة لكنها في نفس الوقت غير ممهدة، تسيرين على أمل الوصول إلى موقف سيارات القاهرة، تجرين وأنتِ خائفة، لا تجدين شيئًا، على الرغم من أنكِ تعتقدين أنكِ تلمحينها من بعيد، الشمس تحرق رأسكِ وعينيكِ، تقتربين.. تقتربين.. لا تصلين)

تسيرين بخطوات واسعة على أمل الوصول بسرعة، على الرغم من سرحانكِ في التخطيط للرواية إلا أنكِ لا تحبين التأخر عن مواعيدكِ، وميعادكِ معه فاتت عليه سبع سنوات. آخر مرة التقيتما فيها أخذكِ من يدكِ دون كلام، ومشى معكِ من ميدان التحرير إلى كوبري قصر النيل ثم الأوبرا، ركبتما آخر مترو من هناك لأنه يكره محطات مترو وسط البلد. كان فارغًا من الناس، إضاءته معتمة قليلًا. فكرتِ أن إضاءة المترو البيضاء تتغير طبقًا لحالتك النفسية، في هذا اليوم شعرتِ أن الإضاءة داكنة، ثمَّة ظلام في الضوء الأبيض نفسه، ينبعث منه مثل الكائنات الغامضة في أفلام الرعب، أحاط

الظلام وجه مصطفى لكنكِ كنتِ قادرة على تمييز ملامحه، ملامحه جامدة جدًّا، مثل تمثال في شرفة.

وصلتما إلى أرض اللواء ومشيتما وسط الصبية الملتفين في حلقات حول شيء ما، ربما سيجارة حشيش أو علبة «كُلَّة» أو صور من مجلة أجنبية، تنظرين حولكِ بخوف، وينظرون إليكما - ينظرون إليكِ تحديدًا - نظرات التعرية التي تكرهينها، تتخيلينهم يخلعون ملابسكِ قطعة قطعة في عقولهم، تشعرين أنكِ عُريتِ فعلًا. خِفتِ من نظراتهم، مستهزئة وحاقدة، ثمة لمسة غضب تظهر أيضًا تجاه مصطفى، هم يكرهون أنه ينجس منطقتهم لكنهم يغبطونه على ذلك في نفس الوقت، يتمنون لو دعاهم للصعود، لو دعاهم عليكِ.

صعدتِ معه السلم المظلم الرطب، وجلستِ في الشقة الوسخة المتربة على الرغم من حساسية صدركِ، رضيتِ أن تنامي معه على سرير متهالك، ثم غطَّ هو في نوم عميق وتركك تتأملين السقف والبُرص الساكن عليه فوق رأسك. تمنيتِ أن تحكي له عن يحيى، وما حدث بينكما في فترة اختفائه، لكنه لم يمنحكِ الفرصة، كان يغيِّر الموضوع كلما جئتِ على ذكر يحيى، وبدا لكِ أنه بالتأكيد يعرف، بالتأكيد كان يتابعكِ على السوشيال ميديا مثلما تتابعينه لكنه لن يعترف أبدًا بذلك.

ثم في النهاية تكتشفين أنه سجل كل شيء، سجل صوتكِ، وحكاياتكِ وأمنياتكِ في كتابة كتاب عن البيوت. سجل صوتكِ وأنتِ تلتقطين صورًا لخياله المنعكس على الحائط وهو يعد الشاي، وصوتكِ وأنتِ نائمة معه. استغلكِ مثل كل مرة يراكِ

فيها، لأنه جبان، لأنه لم يكن هناك أمام المشرحة ينتظر سعد، أنتِ من كان ينتظر، أنتِ دخلتِ المشرحة ورأيتِه ميتًا بعين مفتوحة ثم خرجتِ وهاتفتِ مها وأخبرتِها أن زوجها وأبا ابنتها يرقد في مشرحة زينهم يحدق في الفراغ. أنتِ ظللتِ واقفة تنتظرين أمه وزوجته، لم تغادري المكان إلا لحظة خروج الجثمان في نعش. وقتها لمحتِ مصطفى قادمًا من بعيد، متأخرًا كعادته. هربتِ قبل أن يراكِ على الرغم من أن عينيه لمحتاكِ، لكنه بالتأكيد أقنع نفسه أن هذه الفتاة المختبئة خلف إيشارب أسود وشال ملون جفّ عليه الخل ليست أنتِ.

هاتفتكِ مها صباح يوم ٣ فبراير بعد عودة الشبكات للعمل، سألتكِ عن سعد، كنتِ وقتها في شقة أصدقائك، تنامون على الأرض كأنها تخشيبة ضيقة، لكنها بالنسبة لكم كانت أرحب من العالم، منها تخرجون في أي وقت لتغيير العالم. الأرض بلاط بارد يؤلم ظهركِ، لكنك كنتِ سعيدة، تقفين في الشرفة الواسعة تتأملين شارع شريف الفارغ، وتفكرين أن الهواء نقي وكأنه مر عبر مصفاة، ربما نقى الغاز المسيِّل للدموع الهواء من دنس أكبر منه، دنس صامت وثقيل لم يلحظه أحد إلا عندما انفجرت أول قنبلة غاز، وأُطلقت أول رصاصة، وسقط أول رجل.

قلتِ لمها إنكِ لا تعرفين شيئًا عن سعد، جربتِ مهاتفة مصطفى فلم يرد، نشرتِ صورة تجمعهما على الفيسبوك، ودعوتِ الجميع للبحث عنهما. جاءتكِ الرسالة من يحيى بعد دقائق: «اتصلي بياسمين»،

ثم اختفى ولم يرد على كل تساؤلاتكِ. ياسمين أيضًا لم ترد من أول مرة، ردت بعد أربع مرات ظلت فيها أذنك ملتصقة بالتليفون الساخن، صحتِ فيها فحاولت تهدئتكِ على الرغم من صوتها المرتجف. قالت إن الوضع سيئ، وإن عليكِ الحضور فورًا إلى مشرحة زينهم.

تتذكرين كل هذا وتشعرين بالغضب على الرغم من أنكِ تركتِ مشاعرك مجمدة في مشرحة زينهم، عندما لمستِ يد سعد ووجدتِها باردة جدًّا، مثل كيس البسلة الذي تخرجينه من الفريزر ويجمد يدكِ ويؤلمكِ قبل أن تضعيه أسفل صنبور الماء الدافئ. لم تتمكني من استعادة دفء يدكِ هذه المرة، الثلج امتد إلى قلبكِ وسيطر عليكِ. لا تستعيدين إحساسك بالأشياء إلا في الأحلام. تحولتِ في الواقع إلى تمثال، يشبه تمثالًا ترينه كلما ذهبتِ إلى القاهرة من أجل مشاوير تافهة، تمثال في شرفة يقف محنيًا إلى أسفل، مررتِ عليه اليوم وأنتِ في طريقك للقاء مصطفى أمام مجمع التحرير، مكان ما مات سعد برصاصة في عينه. ووقف هو على سطح العمارة المقابلة ينظر إلى الناس، ويسجل هتافاتهم ليستعملها في معارضه الفنية، لأنه طوال عمره يسرق الحواس، ويسرق السنين ويسرق حتى كلماتكِ هذه، سيحكيها بصوته في روايتكِ وسيظهر بمظهر البطل، ربما لذلك لن تمنحيه صوتًا، سيكون فصله بالراوي العليم، لأنه على الرغم من أنه البطل، لا يستحق أن يكون «أنا».

كيف ستتناولين الرواية؟

ثمة عدة زوايا..

زاوية أولى..

خمس قصص لخمس شخصيات، كل فصل مستقل، يحكي حكاية، كلها تدور حول العشر سنوات الأخيرة، والحدث: الثورة وما بعدها، والتغيرات النفسية، ربما لا علاقة تربط الشخصيات ببعضها سوى اشتراكهم في الثورة، يمكن أيضًا أن يكون كل فصل براوٍ مختلف.. (إعادة تفكير)

الزاوية الثانية..

ما الرابط بين كل شخصية والفن؟ يمكن أن يستخدم مصطفى أعماله الفنية، أو يحكي عن معارضه بطريقة تستعرض الحكاية، نانا ستتحدث عن البيوت، علاقتها بعدم الانتماء سواء للجسد أو البيت، ياسمين تتحدث عن جسم الإنسان، التشريح والموت ومخاوفها داخل المشرحة، يحيى يستعرض حياته التي تبدو عادية وبدايته مع الشعر، سعد يصف لوحاته، ظروفه العائلية ومشروع تخرجه. (نصف فكرة)

الزاوية الثالثة..

الفصول تتشابك، ليست فصولًا مستقلة، بل فصول قصيرة للحكاية من مختلف الوجهات، إنما بتوحيد الراوي العليم. رواية تسرد الأحداث بترتيبها الزمني دون فصول أو اختلافات في وجهات النظر.. (كلاسيكية جدًّا؟)

الزاوية الرابعة..

لو كان سعد يحكي الحكاية بالألوان، هل يجب على بقية الشخصيات فعل المثل؟ أقصد هل يمكن أن ترتبط الألوان بهم أيضًا أم ليس لها علاقة؟ يمكن أن تتحول الرواية إلى ٧ فصول، كل فصل لون، كل لون يحكي حكاية الخمس شخصيات، أم من الأفضل أن ترتبط كل شخصية بعناصر أخرى؟ (إعادة تفكير)

(تحلمين بأنكِ تصعدين سلالم بيت قديم، واسعة جدًّا وفي كل طابق عشرات البيوت، تصعدين إلى طابق محدد، تدخلين من باب مفتوح إلى شقة دائرية، تلفين حول حوائطها، تدخلين من فتحات بلا أبواب، تصلين إلى غرفة صغيرة ينتظرك فيها شخص لا تعرفينه، يجذبكِ إليه، لا تدافعين عن نفسك، يضاجعكِ في إضاءة صفراء خافتة، الغريب أنكِ تستمتعين.. تفيقين على شعور بالاشتياق لهذا الرجل الذي لا تذكرين ملامحه، ولهذه الغرفة الصغيرة الصفراء، ولهذا البيت الذي يبدو وكأنه بيتكِ).

تتذكرين ذلك اليوم، استيقظتِ من النوم قبله وخرجتِ إلى الصالة تدخنين سيجارة، عندما عدتِ إلى الغرفة لم يكن فيها، رأيتِ مكانه على السرير جهاز تسجيل صغيرًا غريب الشكل. كانت أفكاركِ لا تزال ضبابية، اعتقدتِ أنه حقق أمنيته أخيرًا وتحول إلى مُسجل ولم تفكري سوى في إمكانية خروجكِ من هذه المنطقة وحدكِ، ثم أفقتِ وفهمتِ.

كان الضوء الأحمر مضاءً، فعرفتِ أن الجهاز لا يزال يعمل، يسجل في هذه اللحظة صوت أنفاسكِ المتلاحقة ودقات قلبك

المتسارعة. التقطتِ ملابسكِ وارتديتِها في لحظات، وعندما عاد من الحمَّام وجدكِ واقفة في الظلام، بشعر منكوش وحقيبتكِ على ظهركِ، تضعين الجهاز على كفِّ يدكِ المفرودة وكأنه قنبلة، تنظرين إليه دون كلام.

وقف أمامكِ وجسمه لا يزال مبتلًّا بالماء، رمش بعينيه كما اعتاد أن يفعل عندما تضبطينه وهو يخونكِ، وهو يتجاهلكِ، وهو يكذب عليكِ، وهو يتظاهر بأنه لا يعرفكِ أحيانًا أمام الناس، ثم قال سأشرح لكِ.

عرفتِ ما سيقوله قبل أن ينطقه، إنه تأثر بطريقتكِ في حكي ما حدث خلال اليوم، إنه يتأثر دائمًا بصوتكِ وهو يحكي له شيئًا حتى ولو كان تافهًا، صوتك يعيده بالزمن إلى الخلف وهو لا يتمنى سوى ذلك، وإنه يخاف النسيان، يريد تجميد كل لحظات حياته، يريد توثيقها بشكل أو بآخر، لأنه منذ موت سعد لم يعد قادرًا على استرجاع اللحظة.

فعل كما توقعتِ، وقال كل ما سمعتهِ في ذهنك قبل أن ينطقه، يُدخِل سعد في أي شيء، يمتص حتى ذكراه و«يميعها» لأغراضه، نظر إليكِ وقال إنه نسي صوت سعد بعد موته، على الرغم من أنه كان يستطيع استرجاعه أي وقت وهو حي. يتحدث وكأنه يتهمكِ، وكأنكِ السبب، قال إنه غاضب، وإنه حزين، وإن عليكِ أن تفهميه.

يومها خفتِ منه ولم تردي، شعرتِ لأول مرة بالخلل الكبير داخله، لكنكِ عرفتِ أن كل هذا الكلام لا شيء، هو نفسه لا شيء، عبارة عن مسجل ضخم، يريد تسجيل كل شيء لاستخدامه، يحوِّل المشاعر إلى عناصر، يدمر اللحظة ويجمدها، الخلود في بعض

الأحيان موت، لأنه ينزع الروح ويُشيِّئ الإنسان. الصور موت، والتسجيل موت، كل شيء معبأ في زجاجات موت.

كنتِ في مكانكِ في الغرفة المظلمة المقرفة قادرة على تخيل شكل معرضه القادم، صالة واسعة بإضاءة زرقاء، وصور متحركة على الحائط لغرف مغلقة، وبيوت مزدحمة قديمة وجديدة، مقاعد بالية وسرائر وثيرة، ومن مكبرات الصوت، سيذيع مزيجه الجديد من أصوات البشر، من أصوات أحاديثهم الليلية والسرية، أصوات تنفسهم وشخيرهم وربما مشاجراتهم، أصوات تأوهاتهم وربما كلامهم البذيء ومزاحهم الفاضح.

هو لا يضيع وقته، لذلك لم تضيعي وقتكِ معه، ألقيت الجهاز على السرير واندفعتِ نحو الباب، جرى خلفكِ وهو يحاول ارتداء ملابسه، لحق بكِ وأنتِ على ناصية الشارع، كان فارغًا إلا من بقايا صبية أمس، زجاجات أدوية مهشمة وأوراق مكرمشة ونعل حذاء منزوع وقمامة كثيرة. برد الفجر لم يؤثر فيكِ، لم تشعري حتى بضغطة يده على كتفكِ وهو يحاول إيقافكِ، أكملتِ المشي فسار بجوارك، قال إنه سيوصلكِ إلى الشارع الرئيسي.

وقفتما هناك صامتين، ثم قال إنه سيحذف التسجيل، لم تردي، ولم تهتمي، شعرتِ أنكِ لا تزالين عارية في الشارع، صورة الصالة الزرقاء التي يصدح فيها صوت تأوهاتك لا تزال تحتل عقلكِ.

من الغريب أنكِ للحظاتٍ استعذبتِ الأمر، أن يسمع الجميع صوتكِ وأنتِ معه، نشوة مباغتة تلبستكِ وأنتِ تقفين بجواره تنتظرين الميكروباص، منذ لحظات كنتِ تفكرين أنكِ ستقفزين داخله

وستفتحين هاتفك وستحظرينه من كل المنصات، وفي اللحظة التالية شعرتِ بنبضات أسفل بطنكِ لما تخيلتِ صوتكِ في التسجيل والعالم كله يسمعه! خجلتِ أن تعترفي بأنكِ تشعرين دومًا بذلك في لحظات أحزانك، تحبين الشعور بتضحياتك، تستعذبين كونك شهيدة. كدتِ تدمعين تأثرًا على حالكِ، لكنكِ أمسكتِ نفسكِ، واستعدتِ عقلكِ، أدرتِ عينيكِ في فراغ الشارع حولك، وضربت جبهتك بيدك، أردتِ أن تصدمي نفسك لتفيقي.

يبدو أنكِ تربية يده فعلًا يا نانا، أصابكِ بعدوى الجنون ولم تفارقكِ من يومها. قلتِ لنفسكِ لن يتعرف عليكِ أحد على كل حال، كيف سيربطون بينك وبين صوتكِ؟ ارتحتِ قليلًا ونظرتِ إليه لكنه لم ينظر إليكِ، وقف صامتًا بدون أي تعبير على وجهه، شعرتِ أنه يتمنى لو يصل الميكروباص بسرعة ويحملكِ ويذهب، لم تفتحي كلامًا ولم تطلبي ثانيةً أن يحذف التسجيل، أنتِ صَمَتِ وهو صَمَتْ. وانتهيتما مثل كل مرة، يقف في شارع يتابعكِ وأنت تبتعدين عنه، في عربة، في تاكسي، في قطار، في ميكروباص، في صورة على الفيسبوك بجوار شخص آخر.

هذه المرة لم تحزني، فكرتِ أنك ستظلين موجودة في عقله للأبد، صوتكِ سيصحبه إلى كل معرض يقيمه في البلاد التي سيسافر إليها وينشر منها صوره على إنستجرام. وسترسلين إليه مثل كل مرة ولو بعد سنين، وسيرد عليكِ. سترسلين له أغنية وسيرسل لكِ صورًا، ربما صورة لتذكرة المترو التي لم تُستخدم من الليلة السابقة، اعتقدتِ أنكِ أضعتِ تذكرتك، فمنحك تذكرته وقفز من فوق البوابة، لتجدا

التذكرة الضائعة بعد ذلك ويحتفظ هو بها مثلما يحتفظ بتذاكر القطار للأيام التي تمثل له ذكرى مهمة، أو سيصور لكِ كف يده أو عينيه أو المنظر الذي تطل عليه غرفته الفندقية.

كان يستغلكِ وأنتِ تفكرين في إمكانيات لقائكما التالي! اليوم تشعرين أنكِ غبية، غبية إلى درجة أنكِ إلى اليوم تفكرين فيه، وتريدين كتابة رواية عنه.

تذكرين بالذات يوم وجدتهِ ينتظرك على ناصية شارعك ممسكًا بمقود دراجة رياضية وحقيبة باك باك على ظهره. ركب الدراجة وأمرك ببساطة أن «تركبي». ركبتِ أمامه وطاف بكِ شوارع طنطا أمام الجميع، جميع المارة كانوا ينظرون إليكما، فتاة تركب العجلة أمام شاب، يلتصق ظهرها بصدره وكأنها في حضنه، لكنكِ لم تبالي، وقفتما عند شجرة البونسيانا الكبيرة المنحنية أمام حديقة المنتزه في شارع البحر، أخرج هاتفه من الحقيبة، منحه لأول عابر دون أن يخاف من أن يسرقه ويهرب، وطلب منه أن يلتقط صورتكما.

أين اختفت هذه الصورة؟ تذكرينها جيدًا على الرغم من أنك لم تريها قط. لكنكِ اليوم تتذكرين كل شيء، تتذكرين ما حدث وكأنكِ تراقبينه من الخارج. تقفان على الرصيف أمام الكاميرا، فتاة نحيلة شاحبة لا تشعر بشيء، بجوار شاب بلحية خفيفة يمسك بمقود الدراجة، يبتسم ابتسامة زائفة ولا يسمع ضجيج الشارع من حوله.

الزاوية الخامسة:

لو افترضنا أن يبدأ مصطفى الرواية من نقطة موت سعد أمامه، ثم تتشعب إلى علاقته بنانا وبقية الشخصيات، ونانا تتحدث عن حياتها بعد عام ٢٠١٤، بعد هجرها للجميع، ثم تحكي ياسمين عن قصة تعافيها بعد الطلاق. هل يمكن أن تخضع للعلاج النفسي مثلًا؟ قرأت عن متلازمة اسمها (متلازمة كوتارد) ربما يمكن استخدامها مع ياسمين بعد إجراء بحث لازم.. (يجب التواصل مع طبيب نفسي والقراءة عن المرض).

من المناسب لشخصية يحيى أن يلجأ إلى المخدرات هربًا من كل ما حدث، لا أعرف إن كان يحيى قد شهد موت سعد أم لا، ربما يجب أن تكون تحولاته نابعة من مأساة شخصية، أو حتى رغبته في بطولة لم ينلها. يجب أن تبرز شخصية يحيى وكأنها مختلفة نوعًا.

سعد الوحيد الذي يحكي عن الحياة قبل الثورة، كانت متجمدة لكنها أيضًا قاسية، هو يبصر بشكل أو بآخر لأنه وصل إلى مبتغاه ومات دفاعًا عنه، ربما يكون سعد هو الوحيد المتحرك إلى الأمام، أو أن موته يجعله غير ثابت، بينما الآخرون متجمدون على الرغم من تغيُّر الحياة حولهم؟ (هل تبدأ الرواية بسعد أم تنتهي به؟)

(تحلمين بأنكِ تصطدمين بكل شيء، تسيرين في شارع فتظهر أمامكِ شجرة، عمود إنارة، حائط. تتخبطين، تعودين أدراجكِ، تسيرين يسارًا ويمينًا، يصطدم رأسكِ بألواح زجاجية خفيَّة، تستيقظين بصداع هزمك قبل أن تقاوميه)

ستكتبين رواية لتستعيدي ذاكرتكِ، فذاكرتكِ بقع مظلمة، وسط المدينة خريطتكِ الوحيدة. كلما نسيتِ شيئًا، أو اقتربتِ من نسيان نفسكِ، ترسمين شوارعها في خيالكِ، ترسمين ميدان التحرير بخطوط سوداء على خلفية بيضاء، مجرد ميدان بدائرة في منتصفه وبنايات تحيط به، ثم ترسمين خطوطًا متوازية لشوارع متفرعة، وتتخيلين كل الخطوات التي مسست بها الأرض. تتذكرين شكل المقاهي على الجانبين في شارع محمد محمود، وتتذكرين كل اللحظات التي عشتِها فيه، تتذكرين بالذات يوم ١١ فبراير، عندما انفجر البكاء والضحك والصياح والصرخات من حولكِ، كل من كانوا معكِ تركوكِ وركضوا، هللوا، تعانقوا، سجدوا على الأرض، ألقوا بأنفسهم على الرصيف، وبقيتِ وحدكِ واقفة في صمت، لم تحتفلي

بأي انتصار، ولم تنظفي الشارع وتكنسيه وتلونيه. بقيتِ في مكانكِ، ظللتِ في الميدان حتى شهر مارس مع القلة التي بقيت، ويوم حدث ما حدث، خرجتِ من الحجز إلى موقف الميكروباصات، عدتِ إلى طنطا، عدتِ إلى بيتك ولم تغادريه. نسيتِ كل شيء.

أو تمنيتِ لو تنسين. تنسين جلوسك على الأرض في الحجز تنتظرين دوركِ في الكشف عليكِ، وأنتِ تقفين وتخلعين ملابسكِ، وأنت تنظرين بطرف عينكِ إلى الواقفين بالخارج يتلصصون عليكِ من الشباك، وأنتِ تنامين على ظهركِ وتفتحين ساقيكِ، وأنت توقعين على أنكِ عذراء ثم تعيدين ملابسكِ على جسمكِ كأنها مسرحية ترتدين فيها ملابس مستعارة.

ماذا حدث لكِ لحظتها؟ لم تحزني حتى، لم تتحمسي لدعوات رفع القضايا والحديث على السوشيال ميديا والبرامج بما حدث لكِ مع فتيات أخريات، لأنكِ يوم المشرحة لم تعودي أنتِ، كل ما بعد ذلك مجرد غثاء، دفع بالقصور الذاتي، أنتِ حتى لم تخبري أحدًا أنكِ كنتِ هناك، لا مصطفى ولا يحيى ولا ياسمين، لم تخبريهم أنكِ حُملت مثل الماشية إلى عربة ترحيلات، وأنكِ رأيتِ الهايكستب الذي يحكي عنه يحيى في كل مكان، وأنكِ حُجزتِ في غرفة ضيقة بها شباك عرض، وأن السجانة لمست كل جزء في جسمكِ والطبيب نظر إلى ما بين ساقيكِ وأنكِ لا شيء، حتى جسدكِ لا تملكينه.

قاطعتِ الجميع بعدها، اختفيتِ وانعزلتِ في البيت، على الرغم من كل محاولات أبيكِ لإخراجكِ من حالتكِ، عدتِ طفلة أمامه يصحبكِ ويمسك يدكِ ويسير بكِ في الشوارع، يسألكِ عما حدث

فلا تجيبين. تبكين ويبكي معكِ، تنامين فلا ينام. كنتِ تتحولين إلى شبح قاتل، يقتل أحباءه، ويقتل حتى الجمادات حوله.

لم تري مصطفى حتى في اليوم الذي جاء فيه ليترك لأبيك «سي دي» أمل دنقل، لم تهاتفيه بعدها ولم تهتمي بشيء، سمعتِ السي دي عشرات المرات وبكيتِ، لكنكِ لم تهاتفيه، تمنيتِ لو حكيتِ له ما حدث، لو أخبرتِه بأنك نسيت كل شيء ولكنكِ لم تستطيعي أن تنسي لحظة ما مد الطبيب أصابعه بين ساقيكِ، لم تتمكني من تجاوز رغبتك في التلاشي، أن تختفي داخل الأرض، أنكِ فهمتِ لماذا ندفن الموتى تحت التراب، أو خلف حائط جيري لغرف صغيرة مغلقة، لأن التلاشي في الحقيقة هو الراحة النهائية، لا يكتمل الموت سوى به.

كل شيء بدا في ذاكرتك مبقعًا بالأسود، متسخًا، ذاكرة متسخة ونجسة. كل ما فعلتِه في حياتكِ ينجسكِ. كيف ستكتبين وأنتِ نجسة؟ تشعرين أنكِ شخص سيئ لأنكِ تخرجين من علاقة إلى علاقة، ولأنكِ دخلتِ في علاقات وأنتِ مع مصطفى، لأنه لم يحتوكِ. لأنه كان يراكِ كدمية جنس. منذ كنتِ فتاة ساذجة في الكلية يحافظ على الشعرة التي تبقيكِ شريفة حتى لا يتسبب لنفسه في المشاكل، لكنه يبيح أي شيء آخر. شعرة تفحصها طبيب غريب وسجانة ليسجلا أمام اسمكِ كلمة خاوية بلا معنى. كلمة سَمَحت لك بالعودة إلى البيت ومواجهة العالم، كلمة جعلتكِ تصممين على التخلص منها حتى لا تُعرَّفي بعد ذلك بأي شيء. كلمة سحبت إحساسكِ بنفسكِ وجسمكِ، وحولتكِ إلى جماد مصمت.

عرفتِ يحيى ليساعدكِ على نزع الصفة، واحدًا من المدونين القدامى مثلكِ ومثل ياسمين، معرفة هز الرأس بينكما أو الجلوس معًا على مقهى وسط أصدقاء مشتركين أو بعض الكلمات المتبادلة على الفيسبوك تحولت إلى صداقة عميقة. كان من بين من ظلوا في الميدان بعد التنحي، يشاركك مرارة ذكرى لم تحكها لأحد، يعرف الهايكستب ويعرف الشعور بالانكشاف والإهانة، لا يتوقف عن سرد ما حدث له منذ حملوه في عربة الترحيلات إلى الهايكستب. وأنتِ تسمعين وتصمتين، تودين لو صرختِ به، أنه على الرغم من كل شيء لم ينزعوا سرواله، ولم يصنفوه بصفة بلا معنى، لم يطلقوا سراحه لأنه «محترم». أطلقوا سراحه لأنه أنكر كل شيء، أنكر نزوله إلى الميدان، التزم بالصمت وحافظ على تعقله، أما أنتِ ففقدتِ عقلكِ على السرير المعدني، وخرجتِ لتفقدي نفسكِ مع رجل لا تحبينه.

بحثتِ أولًا عن مصطفى ولم تجديه، اختفى منذ موت سعد، ثم رأيتِ صوره في بلد أجنبي. يبدو طبيعيًّا، لا حزن في عينيه ولا ابتسامة ميتة على شفتيه. وبقيتِ أنتِ في البيت لا تفعلين شيئًا، تجلسين في مكانكِ على كرسي الصالون المذهب. تنامين وتقومين وتبحثين عن أي إشارة تدل على حالته أو ماذا يفعل في تلك اللحظات. لا تشاهدين سوى حلقات مسلسل «فريندز» بشكل متواصل. شاهدتِ بعض الحلقات مرتين. لأن الألم الذي لا يمكن التصرف فيه، أو التعامل معه، يلزمه على الأقل غطاء كاذب، مثل ضحكات مستعارة لجمهور غير مرئي.

وعندما مللتِ كل شيء، عندما تحولت جدران البيت في طنطا إلى سجن، حملتِ حقيبتكِ وعدتِ إلى القاهرة، التحقتِ بالعمل كبائعة في معرض أثاث، أخبروكِ أن مسمَّاك الوظيفي مهندسة مبيعات، تحولتِ من فنانة إلى فتاة تقف لتشرف على نظافة القطع ثم التحدث عنها بحماس مع العملاء. ترتدين زيًّا موحدًا، بدلة رمادية وقميصًا أسود، يحضر مديركِ كل صباح للكشف عليكِ، على نظافة الحذاء وهندمة البدلة التي سلموكِ إياها، على نظافة الأرضيات ووقوفك ثابتة في الانتظار، عدتِ مرة أخرى طفلة مسكينة في طابور الصباح، تشمين رائحة ساندوتشات المربى التي كنتِ تتناولينها على الإفطار وتقلب معدتك، وتشعرين بالقيد يلف عنقكِ، قيد خفي يخنقكِ كما يخنقكِ نفاد الأكسجين في عربات المترو، وظلمة الأنفاق وزحام الشارع، والأسوار على مدخل محمد محمود، والأسلاك التي تحيط بمنافذه وتجرحكِ كلما حاولتِ المرور عبر فرجة ضيقة صنعها البعض.

تنهين عملكِ وتهرعين إلى وسط البلد، تجلسين على قهوة منزوية في حارة ضيقة مع ياسمين ويحيى، تدخنين وتتأملين جميع من حولكِ، منتشين بنصر ما، أو مثقلين بقلق غامض من انهزامات متتالية. فقدتِ حماسك لمتابعة أي شيء، لم يعد يهمكِ الميدان ولا الشوارع ولا الأسلاك ولا عربات الشرطة ولا الدبابات ولا حظر التجول ولا التتابعات الكثيرة الكثيييرة.. المرهقة.

لا تجلسين مع يحيى وحدكما أبدًا إلا في المرات القليلة التي زرتِه فيها في بيته، خارجه يحيطكما البشر، أصدقاء وغرباء وأعداء

وفنانون ومدعون. يقرأ يحيى قصائده وتقرأ ياسمين نصوصها وتكتفين أنتِ بالصمت. على الرغم من أن الكلمات لعبتكِ، وعلى الرغم من أن مدونتكِ كان يزورها المئات قبل ظهور الفيسبوك وأفول نجم المدونين وصعود نجوم آخرين. لم تهتمي كثيرًا، مرحلة وانتهت. انتهت أيام الحماسة لكتابة نص جديد أو حتى نشر صورة مع تعليق ذكي وساخر وانتظار تعليقات المدونين الآخرين عليه. كنتِ تسعدين لو تنازل مدون نجم وكتب لكِ تعليقه، اليوم تحول هؤلاء النجوم أمام عينيكِ إلى أشباه بشر محطمين يجلسون حولكِ في مقاهي وسط البلد دون أن يعرفهم أحد. مثلكِ، مجرد تماثيل.. تماثيل تجلس على مقاعد خشبية وتشرب الشاي وتدخن الشيشة.

تشعرين أحيانًا أنكِ تغوصين في مستنقع، أو أنكِ محاطة دائمًا برائحة ما عفنة. كانوا مساكين مثلكِ، لم تكرهيهم لكنكِ فقدتِ الشعور بأيِّ شيء يعبرون عنه. تحولوا إلى أشباح. خططهم للمقاومة، المسيرات الطويلة واللافتات المطبوعة، وصور الشهداء باتت مجرد استعراضات زائفة. وصورة سعد التي تحولت إلى شعار، صورته التي تحفظين كل نقطة فيها، شكل شعره ونظارته والمسام في ذقنه، صارت جزءًا من ملكيتهم، استولوا عليها منكِ، استخدموها مرارًا وتكرارًا، حتى تحولت إلى شيء غريب، وكأنها لشخص آخر لم تعرفيه.

أحيانًا تثورين، مثل تلك المرة التي ألقيتِ فيها بكوب الماء على ياسمين، واتهمتِها بالجبن، على الرغم من أنكِ تعرفين أنها بلا حول

ولا قوة، كل التقارير التي كُتبت كانت ستكتب بياسمين أو بغيرها. ومرة ثانية صرختِ فيها لأنها كتبت نصًّا عن سعد، وكأنه من ملكيتك الخاصة! المسكينة لم ترد عليكِ قط، لكن يحيى كان يدافع عنها.

أخبرتِ يحيى بذلك بعد مرة من المرات القليلة التي جمعتكما في السرير، أخبرته أنكِ لا تحبين أصدقاءه ولا طريقتهم ولا أحاديثهم ولا سفرياتهم المفاجئة إلى قرية تونس أو العين السخنة ليقيموا حفلات صاخبة ويسكروا، ولا صورهم الزائفة التي يتظاهرون فيها بالتمرد. كنتِ في حالة سيئة من الملل والتأفف، حالة ربما منحتك الشجاعة لقول كل هذا. لأنكِ في كل مرة تتمنين لو انتهى بسرعة وتركك لكنكِ لا تقولين شيئًا. عندما ولجكِ أول مرة لم تشعري بشيء، لا ألم ولا لذة ولا ارتعاشة ولا اختلاف، لم تنزفي حتى قطرات دماء على الرغم من الوثيقة الرسمية التي تؤكد عذريتك. أنتِ كما أنتِ، أنت نفس البنت التي تسير دائمًا وحيدة في شوارع مدينتها الصغيرة، ترتدي النظارات الطبية وتعقد شعرها، أنتِ نفس البنت التي تجلس بالساعات في محطة القطار تنتظر شيئًا لا تعرفه، نفس البنت التي تقابل الإساءات بالمزاح، نفس البنت التي تقع في الحب بسرعة، وتجف مشاعرها بسرعة. تبكي بسرعة وتضحك بسرعة، نفس البنت التي وقفت أمام رجل ميت في مشرحة، ورجل ميت في زنزانة، ورجل ميت على رصيف محطة. ثم تحولت بعد كل هؤلاء الموتى في حياتها إلى تمثال يقف في شرفة.

بعدها بيومين تركتكِ. قابلتكِ على باب مقهى بينوس وأخبركِ أنه يحب ياسمين، وأنه يشعر معها بأنه يملك ما يقوله. الاثنان أديبان،

يتبادلان النصوص والشعر على رسائل الفيسبوك، يتصل بها ليسمعها قصيدة جديدة، وتَسمعه. أما أنتِ فتسخرين من قصائده وتخبرينه أنها متكلفة وساذجة. لا تردين حتى على اتصالاته. معكِ يكتفي بالصمت وتكتفين بالصمت. وعندما تحدثتِ أخبرته بشبه ذلك، أنكِ لا تشعرين بشيء معه ومع أصدقائه. معكِ يشعر بأنكِ تستغلينه من أجل الجنس، يشعر أنه في هذه العلاقة ليس رجلًا، ولا أنتِ امرأة. أو ربما امرأة ميتة، وهو يريد امرأة حية يكمل حياته معها، لأنه أيضًا مل من الموت، هو أيضًا رأى الموت وحمل الموت وعاش مع الموت ومات أحيانًا، واليوم بعد كل هذا الوقت يريد أن يكمل حياته مع ياسمين.

ياسمين؟ فكرتِ للحظات في اسمها قبل أن تقنعي عقلك بما سمعه، بدا وكأنه فقد معناه للحظات، لم يعد ناعمًا على لسانك ولا يذكرك برائحة حلوة ولا ذكريات سعيدة وحزينة. ياسمين صديقتك الوحيدة في القاهرة، لا زلتِ تذكرين المرة الأولى التي تبادلتما فيها أرقام الهواتف بعد أن علقت لكِ تعليقًا رقيقًا على مدونتك، حدثتِها وقلبك يدق، أخبرتكِ أنها في كلية الطب وأخبرتِها أنكِ في كلية الفنون الجميلة، اتفقتما على اللقاء في اليوم التالي بعد المحاضرات، وتقابلتما على مقهى زهرة البستان. ترتدي الحجاب الإسباني مع قرطين ضخمين، وترتدين نظارة شمسية رخيصة اشتريتِها ذات يوم من شارع المديرية في طنطا، جلستما ودخنتما وتشاركتما ساندوتشًا واحدًا، وضحكتما وصرتما صديقتين، واليوم يخبرك يحيى أنها ليست مثلكِ، أنها تشعر به بينما أنتِ لا تشعرين.

لكنكِ تمالكتِ نفسكِ، وتفهمتِ في لحظة ما حدث، اتضحت الصورة، ورأيتِ وجه يحيى الحقيقي، لا يشبهك ولا يشبه طيف مصطفى الذي تبحثين عنه في كل رجل. لذلك لم تناقشيه. عانقتِه فربت على رأسكِ، قبلكِ على وجنتيكِ وذهب، لم يختفِ مثل الجميع، لكنه تحول من شخص يشبه حبيبًا إلى حبيب صديقتك، ثم خطيبها. تصافحينه وكأنه لم يلمسكِ من قبل، تقابلينهما بانتظام، وتذهبين معهما للفرجة على الأثاث واختيار الفستان والبدلة، شاركتِ حتى في تأثيث منزلهما، وأهديتِهما لوحة يعلقانها على حائط غرفة النوم، رسمة لم يفهماها لكنهما أبديا انبهارهما بألوانها، خيال ثابت رمادي يقف وسط فضاء أحمر مموه. كنتِ تتركين جزءًا من نفسكِ معهما.

في يوم زفافهما صفحتِ عنهما، كانت الأعوام قد مرت بسرعة، لم تشعري بها، كل شيء بدا بعيدًا لكنه في نفس الوقت قريب، ليلتها قررتِ أن تصفحي أيضًا عن مصطفى، وفي لحظة الصفح ظهر، أعاد حسابه على إنستجرام فأرسلتِ له أغنية «أنا مستحيل أنساك في يوم»، وعندما رد، وعندما اتفقتما على اللقاء بعد عودته من السفر، تمنيتِ لو يُقبلك مثل القصص الخيالية فيسحب برودة جسمك، لو ينفخ فيكِ الروح من جديد، ويحولكِ من وعاء فارغ إلى إنسان مرة أخرى. لو يعيد لكِ قدرتكِ على اللمس والإحساس بالموجودات. لكنه لم يفعل، عاد ليأخذكِ من وسط البلد إلى أرض اللواء، ويقبلكِ في شقة وسخة، ويسجل

صوتكِ وتنفسكِ وحكاياتكِ ثم يتركِ تركبين الميكروباص وتختفين دون أن يسأل عنكِ، سافر وأقام معرضه وقابل معجبيه وظهر في الجرائد والمواقع والتقط صورًا أمام النهر والسماء والتماثيل والأشجار، وأنتِ قابعة في غرفتك المظلمة لا تشعرين حتى بمرور الزمن.

هوامش..

أكتب على الفيسبوك كل شهر، متى ينتهي هذا الشهر؟ أشعر أنني في انتظار شيء ما لا يحدث أبدًا، الانتظار يفقدني الشعور بالحاضر، أحيانًا أشعر أنني غير حقيقية، لا أعني وجودي المادي في الحياة، ولا حتى ما أكتبه على الفيسبوك، أعني شعوري نفسه تجاه نفسي، أشعر أنني بشكل أو بآخر مؤقتة، أريد الانتهاء من كل شيء بسرعة، أنتظر شيئًا ما أن يحدث، لكني لا أملك شيئًا ما يحدث. سؤال كيف أخبارك يربكني لأنه لا أخبار، لا أخبار على الرغم من كل شيء، لا أخبار على الرغم من أيّ تغيُّر، على الرغم من تحديث الحالات على الفيسبوك، على الرغم من الصور والمقالات ومراجعات الكتب. لا أخبار تعنيني بالفعل، لا ردود سوى الحمد لله، ثم اعتصار ذهني في محاولة التفكير في شيء: أقرأ، أكتب، أنام، أسمع موسيقى، أشاهد أفلامًا.. أحداث عادية أو ربما جيدة، لكن لا أخبار.

أنشر صورة على الفيسبوك أبتسم فيها بسعادة حازت إعجاب المئات على الرغم من أنها صورة كاذبة لأنها منذ وقت طويل جدًّا، ولأنني غير ما أظهر في الصور، ولأني لا أبتسم عادةً، ولا أسرح

شعري عادةً، ولا أرتدي ملابس جيدة. الآن أنا لا أبتسم، ولا أضع ماكياجًا، شعري ملموم بتوكة قديمة وأرتدي جاكيت فوق بيجاما، أشعر بالبرد والقبح والحزن والمرارة، لكن الفيسبوك يزيِّف الحقائق ويزيِّف الحياة ويزيِّف تاريخ هذا الجيل.

(تحلمين أنكِ تضخمتِ، تعملقتِ، تحولت ساقاكِ إلى كتلتين أسمنتيتين. تحاولين جذبهما، ترفعينهما إلى الأعلى وتهوين بهما إلى أرض الشارع. تثقلانكِ، تجذبانكِ إلى الأسفل، ساقاكِ تلتهمانكِ، ستختفين داخلهما وتتحولين إلى مجرد ساقين أسمنتيتين ثابتتين في المكان).

تتذكرين لحظة وافقتِ على العريس الجالس في الصالون مع أمه، خرجتِ وقدمتِ العصير وأنتِ تلبسين الحجاب على فستان محتشم، تسيرين مثل الإنسان الآلي، لم تنظري حتى في المرآة بعد وضع ماكياجكِ، جلستِ قليلًا ونظرتِ في وجه الشاب الحليق المبتسم، مركزًا نظره على بقعة ما في السجادة، ثم دخلتِ غرفتك وقلتِ لأبيك إنك موافقة، يمكنهم أن يقرأوا الفاتحة وأن يطلقوا الزغاريد وأن يحتفلوا جميعًا، أما أنتِ فستجلسين على أرض الشرفة الضيقة في غرفتكِ، تنظرين إلى السماء وتتمنين لو تطيرين بعيدًا عن هنا.

كنتِ ستطيرين فعلًا مع عريسكِ، وافقتِ عليه فقط لأنه يعيش في الخارج، ستسافرين إلى بلد جديد بعيد، وستحسدكِ صديقاتكِ على الفرصة الرائعة، ستركبين الطائرة لأول مرة، حلمتِ بها كثيرًا،

حلمتِ بها وأنتِ تجلسين في الحجز، وأنتِ نائمة بجوار يحيى، وأنتِ تقفين في انتظار الميكروباص بجانب مصطفى، وأنتِ تنامين على ظهرك في غرفة الصالون المظلمة، وأنتِ تستيقظين كل صباح لمدة عامين، لتكرري نفس أحداث اليوم السابق، وتشاهدي نفس حلقات المسلسل، وتكتبي نفس الأشياء على الفيسبوك، وتتذكري مصطفى. تتأملين صوره، عينيه وشفتيه وشعره الذي يخف شيئًا فشيئًا، والرسائل القديمة بينكما، جملتكِ الأخيرة له بالموافقة على اللقاء، قبلاته الكثيرة، شفتاه، رائحته، ظلام غرفته. ثم الفراغ، الصمت، التجمد، التوقف، كأنه كان هنا وانتهى، كيف يختفي شخص وهو على قيد الحياة، لم تتمكني من الفهم، مثلما لم تتمكني من إنهاء العلاقة. تخافين من قتل شخص وهو على قيد الحياة، التوقف عن الحديث يعني الموت، وكان هذا أكثر ما يعذبكِ، أن يبقى شخص ما على قيد الحياة لكنكِ غير قادرة على الوصول إليه، لمسه، سماع صوته، النظر في عينيه.

لكنه فجأة تذكركِ، اهتزت الموجودات فجأة برنين هاتفكِ، ظهر اسمه وكأنه يُبعث من الموت، لم يتذكركِ إلا في الصباح التالي لقراءة فاتحتكِ، يختار لحظاته كما يفعل منذ عرفتِه، يختار اللحظة الأخيرة ليظهر ويمد لكِ يده، وكنتِ تمنحينه يدكِ كل مرة، لكن هذه المرة، على الرغم من كل شيء، على الرغم من لهفتكِ، ودقات قلبكِ التي ارتفعت عند رؤية اسمه، وعلى الرغم من نغمته التي لم تغيريها قط، نغمة الأغنية التي باتت تربطكما، وتلعنكما بلعنة عدم القدرة على النسيان، شعرتِ أنه انتهى. صوته لم يعد صوته، وكلامه لم يعد كلامه، أهانكِ أنه

نطق اسمكِ ببساطة وكأنه لم يتوقف سنتين عن نطقه، يتحدث وكأنكما قضيتما الليل كله في الحديث. عرض عليكِ الزواج، هكذا ببساطة يعرض عليكِ الزواج كأنكِ فتاة حمقاء وساذجة، ستهلل لعودة حبيبها وتنسى كل ما حدث، لا يعرف أنكِ تحولتِ إلى فراشة حبيسة شرنقة أسمنتية، غير قادرة على التحرر ولا البقاء بلا ذاكرة مثل أيِّ يرقة.

أخبرته أنكِ خُطبتِ وأغلقتِ الخط، لم تتساءلي حتى عن سبب عودته وطلبه المفاجئ، لا شيء فارق لأنك قررتِ أنه لن يلمسكِ مرة أخرى، اعتقدتِ أن لمسته ستعيد لكِ إحساسكِ لكنه فشل، كل ما منحكِ إياه هو اليقين بأنك انتهيتِ، وأن حبًّا كبيرًا مثل حبه لم يعد صالحًا.

أحيانًا تتساءلين عن سعد، ماذا لو كان هو الوحيد القادر على إعادة إحساسكِ، عندما قابلتِه لأول مرة مع مصطفى لم تشعري بشيء. شاب لطيف ومبتسم، متحفظ قليلًا، لا يناسب شخصيتكِ المتحررة، مصطفى بدا أقرب وأخف. سعد كان في نظركِ صديق البطل، تشتكين حبيبكِ إليه وتساعدينه في تنظيم معارضه لتبقي وقتًا أطول مع مصطفى، وتؤمنين فعلًا بفنه وموهبته لكنكِ لا تفكرين فيه ولا تستعيدين صوته وصورته مساء قبل النوم ولا تتذكرينه بالأيام. واليوم يتحول هو إلى كل شيء، تظل صورته ماثلة أمام عينيكِ، تخصصين وقتًا لمشاهدة مقاطع الفيديو التي نشرها تلاميذه بعد موته، وهو يشرح فكرة معارضه، أو يلقي المحاضرات، أو يضحك وهو يهوي بالشاسيهات على المقاعد

الخشبية ليشرح فكرة ما عن الصوت. تحول فجأة إلى بطل روايتكِ وراويها. كل اللقطات الصغيرة له باتت مهمة، مثل فيديو التقطتِه له ذات يوم على سبيل المزاح وهو يمسك كوبًا برتقاليًّا ويشرب القهوة، لا يفعل شيئًا، ينظر إلى الكاميرا ويبتسم لحظة ثم يشرد، ينسى الكاميرا وينسى جميع من حوله، الصخب في الخلفية لا يزعجكِ، يمنح الفيديو شيئًا أعمق، الصوت هو كل شيء كما يقول مصطفى، لأنه يحول وجه سعد وهو يشرب القهوة؛ يحول عينيه الشاردتين وأصابعه النحيلة الملتفة حول الكوب، إلى أشياء أكبر في عينيكِ، يحوله إلى طيف يلاحقكِ، ويمتص مشاعركِ، ويدفعكِ للتساؤل حول حقيقة الحياة والاختيارات والأقدار.

وافقتِ على هذا الرجل لأنه يعيش بالخارج، بلد عربي حار لكنه لا يزال «بالخارج»، ستركبين الطائرة وتغادرين الشرنقة التي تحيط بكِ، وتحيط ببيتكِ وتحيط بمصر. ثمَّة غلالة رمادية تحيط بالمدينة، لا تعرفين السبب إلى اليوم، وهمًا أو حالة طقسية، أو أن الهواء مشبع بالمرض والحسرة. لا يهم.. المهم أن تغادريها إلى مكان بعيد جدًّا، وكان هو فرصتكِ لذلك.

حاول أبوكِ إقناعكِ بالتفكير، قال إنكِ لا تعرفينه، بدا أمامكِ منهزمًا وهشًّا، لكنكِ صممت على رأيكِ، ساعَدَتْ فرحة أمكِ على إقناعه، اكتفى بالنظر إليكِ طوال الوقت، كلما حولتِ عينيكِ إليه رأيتِه ينظر إليكِ، بدا لكِ أنه يعلم كل شيء، ويعلم أيضًا أن الأمر أكبر منه، وأكبر منكِ وأكبر من العالم.

عاد عريسكِ في إجازة قصيرة ليتمم كل الإجراءات، صفقة رابحة، فتاة جميلة وبسيطة لن تكلفه الكثير، سيحملها ويغادر عائدًا إلى وطنه الجديد بعد نبذه لهذا الوطن، حتى إنه لن يكلف نفسه عناء المجاملات والزيارات واختيار الأثاث والأجهزة وطلاء الحوائط والإشراف على الصنايعية وهم يعملون على «كرانيش السقف»، لن يدخل في معارك وأنتِ أيضًا لن تفعلي، لن تشتري حتى جهازًا مثل العرائس، ستبيعين الطقم الذهبي الذي سيهديكِ إياه يوم قراءة الفاتحة وتشترين لاب توب، وبعض الفساتين وقمصان النوم.

تتزوجين من أجل أن تشتري لاب توب وتركبي الطائرة، من أجل أن يصبح لكِ بيتٌ حتى لو لم يكن هذا قد حدث تمامًا، لأنه بيت لم تؤسسيه بنفسك، لم تفرشيه على ذوقك، لا تعرفينه، مثل قفص وضعوكِ فيه. ستعيشين في شقة عارية، حوائطها بلا لوحات، طرقة صغيرة تقود إلى غرفتين ومطبخ وحمَّام، الحمَّام بلا بانيو حتى. كنتِ تحلمين ببانيو رخامي تملئينه بالماء الفاتر وتضعين به كرات الفقاعات المعطرة التي ادخرتها ليوم تصبحين فيه حرة، قادرة على الاستلقاء عارية في البانيو في بيتك، لأن بيت أهلك وإن كان به بانيو، إلا أنكِ لم تملكي ترف البقاء بالساعات فيه.

ستلقين بكرات الفقاقيع في القمامة، وستكتفين بالشاور جيل واللوفة الناشفة، كل صباح وأنتِ تقفين أسفل الدش على البلاط البارد، ستندمين على زواجكِ كله، ستفكرين أنكِ نادمة على زواج كامل لأن البيت ليس به بانيو فتبكين أكثر.

ستسلمين جسمكِ إلى رجل غريب لن يصبح قريبًا أبدًا، ستتظاهرين هذه المرة بما قررتِ التخلص منه من قبل، ستخدعينه بعذرية زائفة، وستتركينه ينام فوقكِ ويقتحم جسمكِ ويراكِ عارية مثلما رآكِ الجميع، ستستيقظين كل يوم بعدما يغادر البيت، وستقفين في شباك يطل على سماء غريبة صفراء، وشارع خالٍ وبيوت مصمتة، وستنشقين إلى نصفين، ستنقسمين إلى اثنتين، واحدة مثل هولوجرام يجسدك، هولوجرام نشيط ومبتسم لامرأة تعيش حياة ليست حياتكِ، ترتدي ملابس ليست ملابسكِ، تأكل طعامًا لا تحبينه، تسمع أغاني تكرهينها، وتشاهد أفلامًا ليست على ذوقكِ. وواحدة ستختفي داخل فراغ جسمكِ، ستتقوقع في بقعة ما بين البطن والصدر، أو وراء الكبد أو الرئة، ستلتف على نفسها ولن تفعل شيئًا سوى الانتظار. انتظار أي شيء، أو انتظار اللا شيء.

هوامش ٢

المشي في شوارع المدينة يشبه المشي داخل كرة شفافة، مشي في نفس المكان، بالذات لو مشيت في منطقة وسط البلد، ولاحظت حركة الدوران المستمر حول الكعكة الحجرية، أو حول تمثال طلعت حرب. وعلى الرغم من ابتعاد الذكرى إلا أنها لا تزال كامنة بشكل ما.

وعلى الرغم من لحظات الفرح التي شهدها الميدان بعد ذلك، على الرغم من التجديدات والمسلة التي احتلت مكانها في منتصف الكعكة الحجرية وعلى جانبيها تماثيل الكباش، والأضواء التي تشع من البنايات المطلة عليه، إلا أن الطاقة الباقية لا تزال تصيبني بالانقباض، تعطل حواسي بشكل أو بآخر.

هناك أيام أفقد فيها القدرة على البصر أو السمع أو الإحساس أو التذوق أو الشم، ربما لأنني أرغب في التخلي عن الذكرى فأتخلى في نفس الوقت عن نفسي. نحن الجيل الأكثر تواصلًا، وعلى الرغم من ذلك الجيل الأكثر إحساسًا بالوحدة. لماذا يقبع كل منا داخل كرة شفافة؟ لماذا نحيط أنفسنا بهذه الحواجز؟ يبدو أن الأمر يتعلق بالثقة، لم نعد نثق في أيِّ شيء، ولا حتى الفرح الهش وسط الأحباء لأنه في النهاية ينتهي مثل أيِّ شيء آخر.

(تحلمين أنكِ تسيرين حافية على الأسفلت الساخن، لا تحلمين بأنكِ عارية، فقط حافية، استهلكتِ عُريكِ في غرفة الحجز وعلى سرير الطبيب، العُري لم يعد يُخيفكِ، لكنَّ قدميكِ العاريتين تخيفانكِ، تخطين في الوحل والتراب، تمشين على الزجاج المتكسر والجمر مثل الممثلة في الفيلم الهندي الذي لا تذكرين منه سوى هذا المشهد، امرأة تغني وتبكي وترقص وتسير على الجمر من أجل الحب. تسيرين أنتِ حافية من أجل ماذا؟ لا شيء، لا تشعرين بشيء، كل ما يلمس قدميكِ مثل المطاط، وكأنهما متورمتان، أو مخدرتان، لكنكِ تخجلين من عري قدميكِ، تبحثين أمام أبواب البيوت عن أيِّ شيء، حذاء قديم أو خف تركه أحدهم ولا تجدين. تريدين العودة إلى بيتكِ لكنكِ تائهة، تلفين حول نفسكِ، تمشين في المكان، تجرين في نفس المكان).

تستيقظين وقدماكِ تؤلمانكِ، تجدينهما متسختين وكأنكِ خضت في المستنقعات التي يسجل مصطفى أصواتها في روسيا، يمر على بالكِ وتكتشفين أنه لم يعد هنا. مثل كل صباح، تستغرقين

خمس دقائق لاستيعاب أنه لم يعد هنا. لا تصابين بحزن كبير أو تفتقدينه كثيرًا كما حدث بعد خطبتكِ، وبقائكِ لساعات راقدة على كنبة غرفة الصالون تنظرين إلى السقف وتتمنين أن تجدي نفسك في حضنه فجأة، مزق الاشتياق وقتها صدركِ وتركككِ مكشوفة، منهوشة مثل غزالة هاجمتها لبؤة. لم تعودي بعدها كما كنتِ، استهلكتِ كل الاشتياق والدماء والحياة، عدتِ مثل زومبي يحاول التخفي بين الأحياء، تجمدتِ في مكانك لسنوات، في شقة جدرانها تطبق على روحكِ، بشباك كبير يدخل ضوء النهار وقسوة الليل.

السماء خارج النافذة غريبة، كأنها محترقة، ثمَّة لون أصفر يغلف حياتكِ، يغلف العمارات الأرجوانية، والبيوت القصيرة الشعبية، تمشين في الشارع وكأنكِ غائبة عن المكان، حتى إنكِ اليوم لا تذكرين الكثير، لا تذكرين سوى اللون الأصفر والتراب الأحمر وكأنه عالم آخر، لا المحلات تشبه المحلات في وطنكِ، ولا الطعام هو الطعام ولا الناس هم الناس.

يعود الرجل الذي أصبح زوجكِ كل مساء إلى البيت، فتعيدين اكتشاف كيف أصبحت حياتكِ من جديد.كل يوم تفقدين ذاكرتكِ وتستعيدينها، كل يوم تودين الهرب، تتفرجين على صور مصطفى على الفيسبوك، أو ترسلين رسائل قصيرة إلى ياسمين ويحيى، تستعيدين كل فيديوهات سعد، ثم تغلقين الكمبيوتر وتجلسين على الكنبة بلا حراك، أو تغادرين البيت لتتمشي في المول البارد مثل ثلاجات مشرحة زينهم. تقولين لنفسكِ إنكِ مُتِ وحُجزتِ

في الثلاجة بجوار سعد، وإن كل هذه الحياة حياة متخيلة، كل ما حدث لكِ بعد هذا اليوم، هو محض خيال قاسٍ، هو رغباتكِ الشاذة المجنونة، هو أوهامكِ في الوقوف عارية أمام رجال يتأملون جسمكِ، أو طبيب يدس إصبعيه في فرجكِ، أو سجانة تكتب أمام اسمكِ تصنيفًا لا يهم أحدًا.

كيف تحولت حياتكِ إلى هذا الحد، انظري في مرآتكِ وأجيبي على نفسكِ، امرأة تضاعف وزنها بوجه شاحب وشعر معقود إلى الخلف، ترتدي بنطلون جينز واسعًا وقميصًا أخضر شاحبًا وحقيبة بالية، لا تجرؤ على مطالبة الرجل الذي تمنحه جسمها بملابس جديدة أو زجاجة عطر. تضع المخططات لإخفاء بعض العملات النقدية في خزانة الملابس، وتخفي ما اشترته أسفل الأريكة حتى لا يراه، تراسل المواقع لنشر مقال تافه أو حتى تبيع مقالاتها لأسماء أخرى شهيرة مقابل بعض المال، لتشعر أنها قادرة على فعل أيِّ شيء، شراء شيء بسيط مثل فستان أسود لا يناسبها ولن يناسبها، لكنه يظل مثل أمل خافت مختبئ في دولاب، يعدها بأن الأمور ربما تتحول، يعدها بأنها ربما تتقشر ذات يوم إلى امرأة قديمة لم يتبقَّ منها سوى طيف.

تمارين كتابة

نصف ساعة من الصمت والتأمل، ثم بعده سجلي كل ما فكرت فيه.

جمل تخص الرواية حتى لو لن تستخدميها، تصوير مكان أو شريط صوت أو مشاهدات في المكان، تفاصيل زمنية ومكانية وصوتية كل يوم لمدة عشرة أسابيع..

سجلي الأغاني، مشاهد استرعت انتباهكِ في الشارع، رائحة الأماكن التي تزورينها، المرة التي دخلتِ فيها إلى محل ملابس وشممتِ رائحة مدرستك الابتدائية.. رائحة ساندوتشات المربى ممزوجة بالورق والمطهرات والتراب والجلد.. استعيدي ذاكرة الرائحة..

كتابة معلومات عامة حول الشخصيات.. اكتبي حتى أبراجهم ومقاسات أحذيتهم.. لون أعينهم وأغانيهم المفضلة..

اكتبي كلمات مبعثرة.. أحلامًا.. انظمي شعرًا.. لا تخجلي من شعركِ الساذج..

انظري إلى السقف.. تأملي السقف كل ليلة قبل النوم..

سافري كثيرًا جدًّا.. تأملي الطريق الزراعي من شباك الميكروباص.. سترين أشياءَ.. بالتأكيد سترين أشياءَ.

(تحلمين أنكِ في حضنه)..

فاجأتكِ الرائحة بمجرد أن هبطتِ من الطائرة، رأيتِ من النافذة البلد الذي يسرق منكِ كل يوم قطعة من القلب. بدا أجمل مما كان عليه عند الرحيل، رحلتِ وأنتِ ترينه مغطى بسحابة رمادية، وعندما عدتِ كانت الصورة أوضح، الصورة أوضح لكن الرائحة اختلفت.

رائحة غريبة عليكِ، مثل رائحة شقق المصيف، وكأن المدينة باتت أيضًا عارية، خالية ربما من كل ما تعرفينه، من كل «أشيائك». الشوارع بدت مختلفة، تقطعها كبارٍ جديدة، وبنايات جديدة، للحظات شعرتِ أنكِ لم تعودي، أو كأن العيب في عينيكِ، ترين كل شيء زائفًا وبلاستيكيًّا لأنكِ زائفة وبلاستيكية. كنتِ ترتدين بنطلونًا أسود وتيشيرت بيضاء وسترة سوداء، وتجمعين شعركِ خلف أذنيكِ، تضعين نظارات طبية بعد أن اعترفتِ أخيرًا بضعف بصركِ، وتحملين حقيبة كتف كبيرة فارغة.

ينتظركِ أبوكِ في المطار، يحضنكِ فتبكين، حاول هو أيضًا كتم دموعه، يخبركِ بأنكِ الفائزة، وزوجكِ (طليقكِ) هو الخاسر،

وأنه تمنى عودتكِ. البيت مظلم جدًّا بدونكِ، ومصر نورت بكِ، مصر نورت بكِ يا نانا، وكل بلاد الدنيا أظلمت.

تنظرين له بامتنان، تضعين ابتسامة على وجهكِ، تخبرينه أنكِ بخير، زواج فاشل قصير لا يعني شيئًا، «تجربة وعدت» كما يقول عمرو دياب في الأغنية، تغنينها له فيضحك معكِ. يجلس إلى جوار السائق في السيارة المؤجرة لتحملكما إلى طنطا، تثبتين نظركِ على مؤخرة عنقه، متضخمة بفعل كيس دهني غير ضار لا يود إزالته. تتمنين لو كنتِ قادرة على اتخاذ القرارات بنفس سهولة أخذ أبيكِ لقراراته، كلما طلبتِ منه إزالة الكيس يقول إنه لا يؤلمه، وإنه كبر جدًّا في السن على إجراء العمليات حتى البسيطة. يقول «أنا خلاص قربت أموت» فينكسر قلبكِ، وتوشكين على فقدان الوعي، ماذا لو كنتِ أيضًا قادرة على قول نفس الجملة مع كل خسارة؟ تقولين «لا شيء يهم، لأنني في النهاية سأموت». لماذا لا تريدين تصديق أنكِ ستموتين، على الرغم من أنكِ هذا الصباح قرأتِ نعي ياسمين على الفيسبوك، ولم تبكي؟

ماتت ياسمين، وعلى بروفيلها تظهر كلمة Remembering Yasmine El-Sayed، نتذكر ياسمين السيد. تحاولين تذكر ياسمين السيد بعد اختفائها سنين، آخر مرة تحدثتِ فيها معها أخبرتكِ أنها ستترك يحيى، أو أنه هو من سيتركها.

يحيى لم يخبركِ بشيء، اكتفى كعادته بتبادل المزاح والذكريات، والجمل الغامضة مثل شِعرُه. اكتفى بحذف صورهما وإرسال رسالة قصيرة لكِ يقول فيها إنه عاد إلى عزلته. أما ياسمين فتحولت،

باتت شخصًا آخر، تخلع الحجاب لبعض الوقت وتنشر صورها في حفلات الأصدقاء، ثم ترتديه ولا تنشر سوى الأدعية والآيات القرآنية. تنشر وصفات الطعام والنصوص القصيرة، ثم تنشر لايف تتحدث فيه وكأنها تتحدث مع نفسها. ثم تغلق الحساب، ثم تعيده.

بعد شهور اتصلتْ بكِ على الماسنجر صديقة من الفيسبوك لا تعرفينها جيدًا، اسمها سارة، ادعتْ أنها طبيبة ياسمين في المصحة، وطلبتْ منكِ أن تتحدثي معها، أن تحاولي تذكيرها بلحظات سعيدة، صَمَتِّ للحظات ولم تعرفي ماذا تقولين، لحظات سعيدة؟ بدت وكأنها مُحيتْ، ثم أي مصحة؟ ولماذا لم تخبركِ أو يخبركِ يحيى؟ فكرتِ أنها ربما تُعالج من الإدمان، ربما أعطاها يحيى شيئًا من الأشياء الغريبة التي يتعاطاها مع أصدقائه فلم تنجُ. أو أنها في صدمة بسبب الطلاق. ناديتها، رددتِ اسمها كثيرًا، سمعتِ صوت تنفسها لكنها لم تُجب، أغلَقَتْ الخط واختَفَتْ.

تفتحين الماسنجر لتقرئي آخر رسالة بينكما، أرسلتها لكِ منذ شهور قليلة بعدما تفشت الجائحة، كَتبتْ «سامحيني» عشرات المرات بلا تفسير، لم تفهمي، تطلُب السماح من أجل ماذا؟ من أجل يحيى أم سعد أم اختفائها أم بسبب الخوف من الموت في وباء غريب؟

مسكينة ياسمين، مسكينة مثلكِ، ومثل مصطفى وسعد ويحيى. لهذا ستكتبين رواية، وستحكين فيها كل شيء، لأن الرواية على عكس الجميع ستعيش، لو قرأها شخص واحد فقط، لو لم يقرأها أحد، لو بقيت على رف مكتبة قديمة في مدينة صغيرة، لو أهداها

شاب لفتاته، أو اشتراها بائع وسط كراكيب بيت قديم، أو نسيها أحدهم على مقعد في ميكروباص، ستعيش وسنموت جميعًا. لذلك ستكتبينها، لأنكِ تكرهين الموت، وتريدين أن تظلي حية حتى لو عانيتِ من انتفاخ في مؤخرة عنقكِ، حتى لو تظاهرتِ أن حياتكِ الحالية هي حياتكِ الحقيقية، حتى لو لم تتمكني من مقابلة مصطفى، تريدين أن تظلي حية.

تفكرين في مصطفى، تقررين وأنتِ تفرغين حقائبك أنكِ ستتفرغين للبحث عنه بكل الطرق، تبحثين باسمه واسم زوجته ولا تجدين سوى صورة غير واضحة لها وهي عروس، تجلس في سيارة مزينة على بروفيل صديقتها، تحاولين تقريب الصورة، تريدين رؤية وجهها، لكنكِ لا ترين شيئًا، وكأن العالم يرفض أن تري ملامح المرأة التي تشاركه حياته، والتي يراها كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، وكأنكِ إن رأيتِ ملامحها ستتحول إلى حقيقة، وستوقنين أنه انتهى، أنه تحول إلى شخص آخر لا يعرفكِ، ولا تعرفينه.

تسافرين إلى القاهرة، وتلتقين بيحيى، دعاكِ إلى حفل في بيته بعد تجديده بديكورات أنيقة وعصرية تليق بمكانته الجديدة. بار ممتلئ بزجاجات الخمور، ولوحات جميلة على الحائط، تتوسطها لوحتكِ القديمة، وأضواء موزعة بعناية وفرش وثير. تدخلين بيته ولا ترفعين الكمامة من على وجهكِ، يرحب بكِ بحماس يفزعكِ. يبدو أكبر مما تتذكرين، بشعر خفيف على مقدمة رأسه ولحية طويلة، يعيش كما يظهر على الفيسبوك أسعد أيامه، محاطًا بالمعجبات وبمشاهير الوسطين الثقافي والفني، نجم الأمسيات الشعرية، وأشهر مؤلف

على الساحة، يكتب الأغاني العاطفية والمسرحيات الكوميدية الرائجة التي يعرضها التلفزيون ويشاهدها الجميع.

تقفين مندهشة على جنب تتفرجين، يقترب منكِ ويجركِ من يدكِ إلى التراس، يريد أن يريكِ الشجر والزرع الذي زرعه بيديه، تبتسمين لحظة، يوقفكِ أمام شجرة بعينها، شجرة ساكنة لا تهتز أوراقها مع النسمات. تلاحظين شكل الأوراق الغريب وتعرفين أنها شجرة قِنَّب. الظلام يحيطكما، والصخب في الخلفية بعيد، وكأنكما تقفان في عالم آخر. تنتبهين إلى تفاصيل صغيرة حولك، إلى كرسي وحيد، وترابيزة متربَّبة لا شيء عليها سوى مطفأة نحاسية ممتلئة بأعقاب السجائر. تومض في ذهنكِ الصورة كاملة، تستديرين ليحيى بعينين دامعتين، يبتسم، يرتعش، تشعرين باهتزازه وتدركين كل شيء، يفهم أنكِ فهمتِ، ممثل بارع! كل هذا لا شيء، كل الصخب والضحكات والصور والأغاني لا شيء، شعرتِ بوحدته من مصافحته لكف يدكِ، من سلامه الحماسي وصوته المرتفع، من التجاعيد حول العينين والتهدل في الكتفين. كان مجرد قشرة فارغة أخرى تسير وتتحرك وتتحدث أمامكِ.

يعانقكِ، ينشج على كتفكِ، ينظر إلى وجهكِ، يقول لم يتبقَّ سواكما، تتمتمين ومصطفى.. هو لا يعرفه سوى من حكاياتك، ومصطفى لا يعرف يحيى سوى كونه الرجل الذي أخذكِ أولًا، الأمر كله بالنسبة لمصطفى مجرد منافسة، وبالنسبة ليحيى مجرد محاولات لتقضية الوقت، وبالنسبة لكِ.. لا شيء. لا شيء سوى رغبتك في تعريف نفسكِ، لكنكِ في كل مرة تنتهين إلى فقدانها.

قبل أن تغادري يعطيك دفترين، يقول إن ياسمين دونت فيهما يومياتها في المصحة. تتشبثين بالدفترين وكأنهما حل لغزكِ الضائع. يخبركِ بأنه سيتصل بكِ، تعرفين أنه لن يتصل، ستتحدثان على فترات طويلة، وربما تصطدمان ببعضكما بعد ذلك في ندوة أو في معرض الكتاب، سترحبان ببعضكما، ستتعانقان وتقبلينه على وجنتيه، وسيقدمكِ إلى الجميع على أنكِ رفيقة العمر، وستبتسمين، وستلتقطان الصور وتنشرانها على فيسبوك. ثم لا شيء، لن تعودا أبدًا إلى ما كنتما عليه. ولن تحزنا حتى على ذلك.

تمر أيامكِ.. تعيشين حياتكِ، تشغلين نفسكِ بالقراءة وورش الكتابة وحضور الندوات وتخططين للعودة إلى الدراسة، حياتكِ عادية لكنها جيدة، جامدة لكنها محتملة، ثم ذات يوم، يعود مصطفى أخيرًا إلى الحياة، لا تعرفين مدى صدق الجملة في حينها، لأنه عندما يظهر فجأة أمامكِ على إنستجرام تشهقين وكأنكِ ترين شخصًا ميتًا ينهض. هو كان ميتًا ونهض، سيخبركِ بذلك فيما بعد، لكن في هذه اللحظة لا تفكرين، تتحرك يداكِ تلقائيًا لترسلا له أغنيتكما، تتابعين كلمة typing وتنتظرين ما سيقول وكأنكِ تنتظرين حكمًا بالإعدام أو الانعتاق، تتوقفين عن التنفس حتى تظهر جملته، يسألكِ أين أنتِ وكأنكما لم تفترقا يومًا، وتجيبين. تطلبين أن تلتقيا في الميدان بعد أيام، يوم ٢ فبراير، أمام مجمع التحرير، مكان ما مات سعد، ومات هو، ومُت أنتِ، وتوقف الزمن، وتجمدت الحياة.

يصمت قليلًا، لحظات تمر وكأنها عشر سنوات، عشر سنوات من الثبات في المكان، عشر سنوات من المشي في المكان، عشر سنوات من الجري في المكان، حتى يرد بالموافقة. تستعيدين

صوته في ذاكرتكِ، وتستعيدين رائحته، كل شيء إلا لمسته، كل شيء إلا الإحساس بجسدكِ، كل شيء مثل عجين، تكرهين هذه الكلمة، ع ج ي ن، حتى نطقها لزج، مثل إحساسكِ بكل شيء. عجين.. طين.. لزوجة.. قنديل بحر.. بيجاما ساتان تصيب جلدكِ بالحساسية، شيء طري مقرف.. شيء ناعم لا خشونة فيه تجعله يتشبث بما حوله، يتشبث بالحياة.

تريدين مقابلته لتستعيدي الإحساس بالحياة، لتعودي بالزمن عشر سنوات، هو أيضًا فكر في ذلك، تعرفينه جيدًا.. إجابته السريعة، موافقته، توقفه عن الكلام وكأنه ينتظر شيئًا. تعرفين ما يفكر فيه وما يريده، لكن ما يؤلمكِ، يؤلمكما، أن الحياة لا تعود إلى الخلف، وأن الأيام لا تتكرر. كل يوم جمعكما معًا لن يتكرر، وكل يوم سيجمعكما لن يتكرر. وعندما تلتقيان لن يتغير شيء، لأنكما ستلتقيان للحظات، لساعات، لأيام، ستذهب ولن تعود، مثل كل شيء، لن تعود.

تسيرين في الشارع، وتفكرين في كتابة رواية، تصلين إلى ميدان طلعت حرب، تلفين حول التمثال، تكملين سيركِ الطويل، تمرين على كل الأماكن التي مشيتِ فيها عشرات المرات، وقابلتِ فيها عشرات الأشخاص، وبكيتِ فيها، وضحكتِ فيها، وأكلتِ وشربتِ وركضتِ ونمتِ. حيث قبلكِ مصطفى ذات ليلة في الظلام، وجلستِ مع ياسمين لأول مرة، واحتفلتِ مع سعد ومها بخطبتهما، ومنحكِ يحيى النسخة الأولى من ديوانه. تنظرين حولكِ، تبتلعين المشاهد بعينيكِ وكأنها المرة الأخيرة التي سترينها فيها. تجرِّين

قدميكِ إلى ميدان التحرير وكأنكِ خائفة من الوصول إليه، تمشين وكأنكِ تسيرين داخل كرة شفافة، يبدأ المطر في الهطول، خفيفًا خفيفًا في البداية ثم يزداد ثقلًا، تكتسب كل قطرة وزنًا وهي تهطل على رأسكِ، ظهركِ، وجهكِ وذراعيكِ. تفرغ الشوارع من المارة، تصلين إلى ميدان التحرير، يبدو فارغًا أكثر مما يجب، تنعكس أضواء السيارات على ماء المطر في أرض الشارع فتحدث توهجًا، ضيًّا يشبه شكل الدماء التي سالت ذات يوم.

ينقبض صدركِ كلما مشيتِ في الميدان، تُطبق طاقة المكان على روحكِ، أحيانًا تفكرين أن الهواء لا يزال يحمل رائحة الغاز، ثمَّة ضباب خفيف أزرق متخلف من كل القنابل التي ألقيت وقتها، ضباب ساكن لا ينقشع أبدًا. على الرغم من الأضواء، على الرغم من المسلة التي انبثقت من منتصفه، والكباش التي تحرسها، على الرغم من كل لحظات الفرح التي تلت ذلك، لا يزال طيف جميع من ماتوا هنا، حولكِ، داخلكِ، داخل قلبكِ.

تتجهين إلى مجمع التحرير، تعبرين الطريق وتسيرين في دوائر، تصلين إلى المكان وتحاولين أن تقاومي مشاعركِ، كنتِ كما أنتِ، بنفس ملابسكِ القديمة، ونفس الشال الملون حول رقبتكِ، بكمامة زرقاء تحميكِ من فيروس صغير وليس من غاز مسيِّل للدموع، تحاولين حبس دموعكِ، لكنها تغافلكِ وتخرج لتغشِّي عينيكِ، مثل ضباب خفيف يغلف رؤيتكِ، وترينه ينتظركِ.. ترينه من خلف الدموع والمطر والظلام وأضواء السيارات، والأشباح والأحياء.

يلتقط يدكِ بيده، يزيح كمامتكِ وكمامته، ينظر في عينيكِ وتنظرين في عينيه. تتلفتين حولكِ، كل شيء ساكن، كل شيء غريب. تقولين «يبدو أن كل شيء قد تغيَّر»، يقول: «إلا نحن».

تصمتين، تصمتين طويلًا وتسيرين إلى جواره، كان يعود بكِ من حيث أتيتِ، تعبران الميدان والمسلة والكباش والأرصفة، والخارجين من مخارج المترو، والتائهين في مداخل الشوارع. يعود بكِ إلى قلب المدينة، إلى خريطتكِ وخريطته، وإلى كل اللحظات التي منحتكما كل شيء، كل الحياة، وكل المشاعر، وكل الأفكار، وكل الانتصارات، وكل الإخفاقات.

تقولين:

يبدو أنني سأكتب رواية..

طنطا

٢ فبراير ٢٠٢٢

telegram @yasmeenbook

شكر خاص

- لروح الفنان الشهيد أحمد بسيوني، والذي ذُكر مشروعه «٣٠ يوم جري في المكان» بتصرُّف ضمن أحداث الرواية.

www.universes.art/en/nafas/articles/2011/ahmed-basiony/photos/art-projects/12

- للفنان مجدي مصطفى الذي أمدني بالكثير من المعرفة حول الفن السمعي البصري Audiovisual Art، وأعماله الفنية التي ذُكر بعضها بتصرُّف ضمن أحداث الرواية، مثل «انتشار طيفي»، ميجافون - «ذاكرة شجرة» و«دوائر العزلة - المساحة المفقودة».

www.magdimostafa.com/The-surface-of-spectral-scattering.aspx

- د.دينا الشيخ التي أمدتني بمعلومات طبية ونفسية لازمة ضمن أحداث الرواية.

- الغطاسة سمية زيدان التي أمدتني بمعلومات لازمة ضمن أحداث الرواية.

- هدى أبوزيد التي لم تبخل بملحوظاتها الذكية والدقيقة.

- للفنان خالد العجيزي ولوحاته المُلهمة ضمن مشروع (احتياج).

- رامي حمدي ورفقاء الكتابة في كافيه جرانيز بطنطا.

الأغاني التي وردت في الرواية

- العيون السود، غناء وردة، ألحان بليغ حمدي وكلمات محمد حمزة.
- أنا مستحيل، غناء نانسي زعبلاوي، كلمات وألحان مروان خوري.
- إيه في أمل، غناء فيروز، كلمات وألحان زياد الرحباني.
- بودعك، غناء وردة وبليغ حمدي، كلمات منصور الشادي، ألحان بليغ حمدي.
- بنلف، غناء وردة، كلمات وألحان بليغ حمدي.
- عدى الليل، غناء إيهاب توفيق، كلمات بهاء الدين محمد، ألحان حسن أبو السعود.
- تجربة وعدت، غناء عمرو دياب، كلمات مجدي النجار، ألحان عمرو دياب.

telegram @yasmeenbook